قصة

مروة جمال

تدقيق لغوي

نهى طلبة

فريق عمل شخابيط وردية للنشر الإلكتروني

Contact

https://www.facebook.com/groups/shakhabeit.wardia/?fref=nf

المقدمة

لحظات.. قد يبدو فيها العالم مشوشاً من خلف لفافة تبغ محترقة

وقد يبدو قاتماً بعد أن تتمكن منه أوزار الماضي

وربما يكون فرصة نصبو إليها ولو فوق أنقاض طوفان

أوراق لعب مبعثرة بين ربح وخسارة أم ربما.. خلاص

ولكن حتماً سيتبدل كل شيء حين ظهور الآس.

الفصل الأول

لم تصدق عينيها عندما وجدت نفسها أمامه وجهاً لوجه..

ما زال كما هو بل ربما ازداد وسامة؛ ابتسامته العابثة.. نظرته الجريئة.. نبرته المتلونة..

نعم إنه هو من حطمها.. بعثرها كشظايا زجاج رخيص..

دون ندم.. دون اكتراث.. دون مشاعر..

سيف الأنصاري... رجل الفرص الضائعة!

زفرت ببطء لتقضي على نبضات قلبها المتقافزة.. تقدمت نحو الرجلين وبخطوات واثقة بعد أن رمقت بطل ماضيها المؤلم بنظرة من التحدي.. جلست أمامه دون اكتراث بعد أن توجهت بابتسامة واثقة لمديرها الذي تولى اتمام التعارف بريبة بعد ملاحظته للصراع البصري بينهما.

اعتدل راغب بجلسته ثم قال بصوت أجش: ـ سيد سيف.. دعني أقدم لك المهندسة هند؛ مديرة قسم المبيعات بالشركة وهي كنزنا الثمين بلا منازع.

ابتسم سيف بمكر وقال بثقة دون أن يحيد بنظره عنها: ـ عزيزي راغب.. أنا أعلم جيداً من هي المهندسة هند, فكنزك الثمين تعلم قواعد المهنة لدينا بشركات سيف الأنصاري!

لمحة سريعة من الغضب طغت على ملامح راغب والتي زادت عندما رآها ما زالت تبادل المدعو سيف نظرات التحدي دون أن تهتز لها شعرة.

صمت لوهلة ثم تابع بدهشة: ـ هند.. أنتِ لم تخبريني أنكِ عملتِ بشركات الأنصاري؟!

ابتسمت بدهاء وكأنها كانت تنتظر سؤاله وعلى عكس سيف توجهت بنظرها نحو رب عملها وأجابت بثقة: ـ عام واحد فقط سيد راغب.. أنا لم أعمل بشركات الأنصاري سوى عام واحد, لم أكتسب فيه خبرة تُذكر ولهذا آثرت أن أسقطها من سيرتي الذاتية.

ألقت بقنبلتها وتوجهت ببصرها مسرعة نحوه متمنية ثورة وغضب وغيظ وربما رحيل فهي لا تحتمل هذا البائس أكثر من ذلك, ولكن لم تنل ما تمنته بل نالت نظرة متفحصة مرت على جسدها ببطء وكأنه تعمد إهانتها..

نبرة خافته بدت كفحيح ثعبان وصوت ماكر أيقظ مشاعر الكره بداخلها خاصةً عندما قال موجهاً حديثه لراغب: ـ ربما عزيزتي هند محقة سيد راغب, هي لم تمكث معنا سوى عام واحد بالفعل.. ولكنني حقاً حزين يا هند!.. أحقاً لم تتعلمي شيئاً من سيف الأنصاري مُعلمك الذي تولى تدريبك مباشرة بعد التخرج؟!

قال جملته وهو يرمقها بتحدي.. تحدي كاد أن يُبرز الدماء بوجهها ليتلون بلون الغضب ولكنها تماسكت ورمقته باستهزاء رأت أنه يستحقه ثم أجابت: ـ بلى سيد سيف.. تعلمت منك شيئاً..

ابتسم بثقة: ـ وما هو؟.

بعيون لامعة وابتسامة واثقة مرت على زاوية ثغرها أجابت: ـ الخديعة!!.

كانت تجلس بمكتبها تقرأ بعض الأوراق وكأنها لم تلق بقنبلة للتو ثم ترحل بعد أن أيقظت الدماء بوجه سيف الأنصاري...

غضب استدركه البائس بعد لحظات ليتغلب عليه بابتسامة عابثة لينهي ما جاء من أجله.

زفر راغب ببطء وهو يتأملها...

هند..

تلك القاسية التي اقتحمت عالمه منذ سنوات.. أجمل قاسية وقعت عيناه عليها؛ خصلات ظلام الليل المتوهجة بضوء وجهها القمري, عيناها التي تُشع ببريق الذهب الأسود فتأسرك عبداً في لحظات, نبرتها الواثقة وأنوثتها الطاغية..

آه من تلك المرأة كادت أن تكون رمزاً للكمال..

كادت أن تصبح زوجته لولا..

أغمض عينيه وضغط على صدغيه ليتخلص من أفكاره المؤلمة, عندها لمحته يقف على بُعد خطوات من باب غرفة مكتبها يسترق النظر إليها كعادته..

ابتسمت بسخرية فمديرها الأربعيني ما زال هائماً في بحر أنثى لن يستطيع سبر أغوارها حتى وإن تغلب على هواجس عقله.. أنثى لن تخضع لرجل مهما ولى الزمن... ليس مرة أخرى.

تنحنح راغب ثم دلف للغرفة بملامح غاضبة..

استقبلته بتحفز وبنبرة هادئة تحدثت: ـ سيد راغب.. تفضل..

راغب: ـ ما كان هذا؟.

هند: ـ عفواً!!

راغب: ـ لا تروغين يا هند, تعلمين تماماً ما أقصد.

زفرت بضيق وتابعت: ـ وأنت سيد راغب تعلم جيداً من هو سيف الأنصاري وتعلم كيف تحصل شركاته على أغلب صفقاتها!

راغب: ـ تروغين مرة أخرى يا هند.

صمتت بعد أن تمكن الضيق من ملامحها.. غابت ثقة عينيها وسط هواجس ماضي ظنت أنها تخلصت من جراحه.

تابع راغب بصوت أجش: ـ لديكِ مشكلة يا هند مع سيف الأنصاري.. لديكِ ما تخفينه.

نظرت نحو عاشقها الأربعيني بتحدٍ وتابعت: ـ وإن كان فهذا شيء يخصني وحدي سيد راغب.

تمكن منه الغضب بشدة أم ربما الغيرة.. فها هي تعترف بوجود شيء ما بينها وبين هذا العابث؛ ماضٍ, ذكريات لا يعلم فحواها..

تمكن الأدرينالين من نبضاته وتملكت الحدة من ملامحه وعلت نبرة صوته معبرة عن ثورة رجل عاشق ولكن بكلمات ظن أنها سبيله الوحيد للتخلص من تأثيرها عليه فتابع زاعقاً: ـ نعم.. علاقاتك الشخصية شيء يخصك وحدك يا آنسة هند بشرط أن لا يؤثر ذلك على سير العمل خاصةً مع مديرك الجديد!

نظرت نحوه بغضب أتبعه ذهول عندما لفظ عبارته الأخيرة وبنبرة مترددة همهمت: ـ ماذا... ماذا تقصد..؟..

أجابها ببأس: ـ غداً سيتم توقيع عقد شراكة بيننا وبين شركات الأنصاري.. غداً سينضم هذا الكيان الصغير لصرح الأنصاري وستصبحين موظفة بشركاته مرة أخرى!.

أدلى بدلوه وتركها تتهاوى على مقعدها ليتسلل الضعف رويداً رويداً إلى ملامحها الواثقة.

ألقى نظرة أخرى على ساعته اليدوية.. الساعة تعدت السادسة مساءاً وهي لم تظهر بعد.. أصبحتِ امرأةً وحيدة يا هند تقضين أغلب أوقاتك بين جدران العمل, ولكنكِ ازددتِ جمالاً أيتها المتمردة.. غابت الصغيرة التى كانت تشرئب على أصابع قدميها لتتلقى قبلاتي وحلت محلها متمردة غاضبة واثقة بنفسها لأبعد الحدود...

وكم أعشق هذا!.

ابتسم بمكر عندما لمحها أخيراً تخرج من الشركة متجهة نحو سيارتها... قرقعة كعب حذائها تصدو بثقة معبرة عن سيقان عارية جذبت انتباهه فشرد لوهلة قبل أن يستدرك نفسه ويتوجه إليها..

انتبهت لصوته المميز وهو يهمس بجانبها قائلاً بمكر: ـ ستتسببين بأحد الحوادث يومًا ما أيتها الجميلة!

قال عبارته وهو يرمق تنورتها القصيرة بنظرة متحفصة.....

ابتسمت بثقة وتابعت وهي تنظر بتحدٍ لعينيه: ـ لا أهتم!!

اقترب منها حتى شعرت بأنفاسه تلفح وجهها وبمكره المعتاد تابع: ـ ولكن أنا أهتم!!

لم تتحرك قيد أُنملة بل أوقفت قطار قلبها المسرع ببرود أعصاب استدعته عند الضرورة وتابعت: ـ إذاً هي مشكلتك أيها المتحاذق!

ابتسامة مستهزئة علت ثغره ثم تابع: ـ تغيرتِ كثيراً يا هند.. أين أخفيتِ تلك الفتاة التي كنت أستمع لطبول العشق كلما اقتربت منها؟!

ابتسمت بدهاء ثم حركت سبابتها بثقة تدعوه ليقترب منها أكثر لتهمس قائلة: ـ ألم تعلم!!.. لقد نضجت تلك الصغيرة ولكن يبدو أنك أنت من تعيش أزمة منتصف العمر!

انفجر ضاحكاً بشدة حتى شعرت أن كل من في الجوار قد استمع لصوته.. ابتسم لها متابعاً: ـ أزمة منتصف العمر!!!!.. ولكن عزيزتي أنا لم أكمل عامي الخامس والثلاثون بعد!

نظرت نحوه بإزدراء وتابعت متباهية: ـ حقاً.. إذاً أنت مثير للشفقة

همت لتركه وابتعدت عنه بالفعل ولكنه لحقها ليعترض طريقها بغضب متابعاً: ـ أنا لم أكمل حديثي بعد..

تابعت بضيق: ـ ولكن أنا انتهيت.

أردف: ـ عزيزتي.. ليست تلك هي الطريقة المناسبة التي تحادثين بها مديرك الجديد..

نظرت نحوه بتحدٍ مشيرة لمبنى الشركة: ـ خارج جدران هذا المبنى أنت مجرد شخص يلاحقني, فلا تجبرني على افتعال فضيحة.

نظرة عابثة علت ملامحه وكأنها دون قصد أعطته ما يتمنى..

شعرت بقبضته القوية تحيط خصرها ليجذبها نحوه بقوة في مفاجأة سمرتها لدقائق ثم همس قائلاً: ـ أنا قادر على افتعال فضيحة الآن إن أردت!.

قبل أن تنطق ابتعد عنها ليحييها بثقة متجهاً نحو سيارته وهو يرمقها بتحدٍ متابعاً: ـ يبدو أنني سأستمتع كثيراً بعملي الجديد.

تمكن منها الغيظ وبلغ ذروته وأصبح يجري في عروقها مجرى الدماء حتى شعرت بأنفاس الغضب تخترق أذنيها.. غضب تمكن من ساقيها لتنطلق مبتعدة عنه نحو سيارتها وتهرب مسرعة من تأثير رجل ظنت أنها تغلبت عليه منذ سنوات.

كانت تنظر بتحفز نحو رئيسها وهو يقلب الصفحات أمامه باهتمام.. خلع عويناته ذات الإطار السميك ونظر نحوها بتفحص متابعاً: ـ جيد يا ريم.. سأنشره في العدد المقبل.

زمت شفتيها وأعادت خصلة قصيرة من شعرها الكستنائي متابعة: ـ العدد المقبل!.. تستطيع إرساله للمطبعة الآن ليلحق بالطبعة الحالية.

أجابها بضيق: ـ لا.. لا.. هو يحتاج بعض التعديل.

زفرت متابعة: ـ لو انتظرنا لن يكون سبقاً ستصبح مجرد ثرثرة واهية سبقتنا إليها الكثير من الصحف الصفراء.

ابتسم العجوز متابعاً: ـ حسناً.. ضيفي بعض التوابل لنقل مثلاً الحروف الأولى من الأسماء, فأنتِ لم تلمحي من قريب أو بعيد للشخصيات يا ريم.

ريم: ـ أستاذ عادل.. لقد أوضحت جيداً من المقصود بين سطور المقال.. الحروف الأولى طريقة تقليدية ملّ منها القارئ منذ سنوات.

زمجر بغضب قائلاً: ـ هل تقصدين أنني رجلٌ قديم وتقليدي أيتها المتابهية؟؟

ارتبكت قليلًا وهمت متابعة: ـ بالطبع لا.....

قاطعها على الفور: ـ عدّلي المقال يا آنسة, فقارئ صحف الفضائح لا يستسيغ ألغاز ما بين السطور.

ألقى بالأوراق دون اهتمام مشيراً إليها بالرحيل لتأخذها مغادرة لمكتبها بغضب وهي تسب وتلعن تلك الجريدة الصفراء التي قتلت طموحها ربما قبل أن يبدأ.

تمر علينا أوقات نشعر أننا غارقين بتفاصيل بلا معنى؛ نقاط صنبور متقطعة أم ربما أصوات متزامنة من ضوضاء مختلطة..

شعرت أنها تستمع لكل هذا بجانب أصوات أنفاسها المضطربة..

هي.. وهو.. وعيادة فخمة.. وطبيب شهير.. ونساء لا يكففن عن الحديث..

أصوات عالية متداخلة طاغية على كل شيء حتى نفسها.. عبق مختلط برائحة عطور نفاذة وأنفاس كريهة شوهت طبيعة الهواء..

قبضته القوية التي قبضت بقسوة على ذراعها عندما لمس ترددها في دخول المكان.. الجو بارد مؤلم كملمس الثلج.. ارتجف جسدها الضئيل وزاغت عيناها باحثة بيأس عن الخلاص..

رمقها بنظرة مرعبة أفزعت كل الأفكار بداخل عقلها حتى قبل أن تظهر همس بتوعد: ـ إياكِ وافتعال فضيحة بالداخل.. لن أرحمك.

لم تجب ولكن انقباض ملامحها وأنفاسها المضطربة كادت أن تلفت انتباه الجميع...

زفر بضيق ثم تابع بنبرة أقل حدة: ـ ساعة من الزمن وننتهي من هذا العبث.. سارة.. هل تسمعينني؟.. أجيبي..

خرجت نبرتها مرتجفة.. قاتمة: ـ أسمعك.

تابع: ـ من الأفضل لكِ أن تسمعنني أيتها الحمقاء.. فأنا أستطيع سحقك كالحشرة إن أردت.. كوني على ثقة من ذلك.

كانت عيناه تشع بغضب مخيف ونبرته متوعدة بحنق..

عاصم الرازي... الرجل الحديدي

نظراته الاعتيادية ترهب الجميع وكلماته سهم نافذ على كل الرقاب حتى زوجها!..

دقائق ونطقت الممرضة باسمها المستعار.. جذبها بتملك متجهاً بها نحو الغرفة المغلقة.. غرفة أخرى وليلة أخرى لا تختلف كثيراً عن ليلة سابقة, فكلتاهما مجرد ستار قبيح أسود كظلمة الليل يخفي بداخله بطل روايتها بلا منازع.... الإنتهاك.

استقبلهما الطبيب بابتسامة مقتضبة مُرَحِباً: ـ أهلاً سيد عاصم.. تفضل...

جلس عاصم وهي أمامه مطأطئة رأسها متحاشية نظرات الطبيب نحوها..
تابع عاصم: ـ حسناً.. متى سنبدأ؟..

الطبيب: ـ دقائق.. أخبريني إذاً هل تعانين من أي أمراض؟

أجابت باقتضاب: ـ لا.

الطبيب: ـ هل تتحسسين من أي المكونات؟

تابعت دون أن ترفع رأسها: ـ لا.

الطبيب: ـ حسناً.. رجاءاً اخلعي جميع ملابسك وارتدي هذا.

قال عبارته وهو يناولها ثوباً أخضر اللون من المتعارف ارتدائه أثناء العمليات...

أخذت الثوب بيد مرتجفة وتوجهت نحو غرفة صغيرة أشار لها بيده دون اكتراث.. لا تدري ماذا أصابها..

هي لا تتوجه نحو الغرفة بل تخطو في اتجاه آخر..

أنفاسها تخرج بصعوبة.. زفير.. زفير فقط دون شهيق.. وكلمات عاصم تصدو بإلحاح داخل أذنيها...

"سنتخلص من الجنين"..

ثغره الغاضب وشاربه الكث وملامحه المتوعدة ونظرته الجائعة وليلة مظلمة تهاوت فيها جدران العفة..

أخيراً امتلأ صدرها بالهواء.. نسمات باردة بدت كرمق أخير وسبيل وحيد ونهاية منطقية لهذا العبث...

لحظة..

لحظة فاصلة استدركها عاصم بعد فوات الآوان عندما لفحت الرياح الباردة وجهه ليجدها تقف بأقدام مرتجفة على حافة النافذة

مقهى صغير اعتادت الهروب بين جدرانه الدافئة ورائحة القهوة المميزة التي تنضح بها جوانبه..

أخرجت هند رواية لماركيز من حقيبتها وأشعلت لفافة تبغ من ماركة كينج إدوارد ورمقت النادل بنظرة حادة عندما كاد أن يوقع قهوتها الساخنة على الكتاب..

كانت الساعة قد قاربت على التاسعة مساءاً وبرودة الطقس أجبرت العامة على المكوث بمنازلهم أو الإختباء داخل جدران المقاهي العامرة بعبق المشروبات الدافئة وروائح التبغ..

صفة الهدوء هي السائدة بهذا الحي ولهذا اختارته خصيصاً لتسكن به منذ سنوات.. هدوء لا يؤرقه سوى عيادة النساء الكامنة بالدور الثاني بنفس مبنى مقهاها المفضل.. نساء يحملن بطوناً منتفخة ومنبع شكوى لا ينضب, وأخريات تبدو عليهن الريبة يقضين بعض الوقت بالمقهى قبل أن يصعدن لعيادة الطبيب الكهل الذي لازمته سمعة سيئة منذ سنوات..

نظرت بحنق نحو امرأة في الطاولة المجاورة تتحدث بهمس يحمل ألغازاً مبهمة لرفيقتها.. كلمات بعثرت السكون حولها وطغت على عبارات ماركيز وعزلتها الوقتية..

اطفأت لفافة التبغ بغضب وخرجت دون أن تكمل قهوتها.. فالمنزل يبدو أفضل بحق ولكنها لا تريد العودة الآن فذكرى سيف الأنصاري تقتحمها رغماً عنها وهي لا تود قضاء الليل في أحلام يقظه يلعب هو بها دور البطولة..

ظلت واقفة بجانب المقهى تراقب سيارتها وتحرق لفافة أخرى من التبغ.. تذكرت آخر لقاء بينهما منذ سنوات.. في سيارة كتلك وبعد أن تذوق رحيق شفتيها كعادته باسم الحب قدّم عرضه المخزي.. عرض كشف عن قبح عالمها المخملي في لحظات.. تهاوت وانهارت وبكت وغضبت وكادت أن تبادره بصفعة.. اتهمها بأنها حمقاء وستفقد فرصة العمر بحماقتها ومن وقتها لقبته برجل الفرص الضائعة.

ابتسمت بسخرية وهي تنظر للفضاء حولها.. سيارات بين ذهاب وإياب, وأقدام مسرعة وأخرى متباطئة, وحياة مستمرة وهي تراقبها من خلف دخان لفافة تبغ أحرقتها واحترقت معها منذ سنوات..

زفرت بيأس وهمت تتوجه نحو سيارتها..

ولكن هي لحظات..

صرخ فيها السكون وتجمدت نظراتها وجحظت عيناها بفزع وهي تشاهد هذا الجسد الضئيل يسقط من السماء ليرتطم مباشرة بسقف سيارتها...

الفصل الثاني

زفرت بضيق.. تمددت على مقعدها الدوار وظلت تتمايل يميناً ويساراً محدقة في السقف.. كانت ترى أحلامًا وأوهامًا وطموحًا تبعثر مع أول احتكاك بعالم السطور.. قلم ثائر يعافر من أجل الظهور لينتهي به الأمر على أوراق صحيفة صفراء بقسم الفضائح!!!

صوت رفيع أخرجها من غفوتها.. هتفت بسمة بدهشة قائلة: ـ ريم.. ما زلتِ هنا!

بسمة زميلة العمل الثرثارة تنتقل كالذبابة بين أروقة المبنى للتغذى على خبر هذا وفضيحة تلك.. قصيرة للغاية وهي خير مثال على المثل القائل احترس من كل من اقترب من الأرض.. عيون غائرة وفم مكتنز وبشرة بيضاء قريبة من الشحوب وجسد تهاوى منذ زمن أمام نكهات الحياة بشحومها ودهونها..

ابتسمت لها ريم ببرود وتابعت: ـ وأنتِ ما زلتِ هنا.

بسمة: ـ متأخرة كعادتي.. كما أن زوجي سافر بمأمورية للعمل وأنا أكره المكوث وحدي.

ريم: ـ عموماً أنا على وشك المغادرة.

نظرت لها بسمة بمكر وتابعت: ـ انتظري.. ألن تخبريني ما بكِ؟

نظرت لها ريم بدهشة: ـ ماذا؟

بسمة: ـ عزيزتي.. الضيق يعلو ملامحك الجميلة.. لقد رفض رئيس التحرير المقال خاصتك.. كلنا نعلم.

ريم: ـ يبدو أنني كنت فاكهة الثرثرة لهذا اليوم.

بسمة: ـ ربما لأنكِ غير قادرة على الثرثرة.

ريم: ـ ماذا تقصدين؟

اقتربت منها بسمة بعد أن جذبت مقعداً وهمست بمكر: ـ أنتِ تكتبين بقسم النميمة يا ريم, بل صحيفة النميمة.. ولكنك تُصرين على تغليف مقالاتك بإطار سياسي واجتماعي يخاطب نوع آخر من القراء لا يبتاع صحيفتنا.

ضحكت ريم ساخرة: ـ نعم.. فنحن مجرد سطور فاضحة ليس أكثر.

لمعت عينا بسمة وتابعت: ـ لسنا مجرد سطور فاضحة بل كيان ممتلئ بها أيتها الحمقاء!

نظرت نحوها ريم بتحفز: ـ ماذا تقصدين؟

بسمة: ـ أقصد أن هناك من يسطع نجمها بشدة تلك الأيام واقتربت من إصدار عمود أسبوعي وأنتِ قابعة بين أوراقك!

ريم: ـ تتحدثين عن من؟

بسمة: ـ ريتاج.

برقت عينا ريم وهتفت بصدمة: ـ ريتاج!!.. عمود أسبوعي من أجل ريتاج!.. إنها تقوم بترجمة فضائح نجوم الغرب ليس أكثر...

بسمة: ـ حسناً.. ربما لديها قلمٌ متواضع ولكن جسدها غير متواضع بالمرة وهي تقوم باستغلاله جيداً خلف الأبواب المغلقة!

قالت بسمة جملتها بخبث وهي تشير نحو غرفة رئيس التحرير...

نظرت لها ريم بصدمة وتابعت: ـ لا!!.. لا تقصدين..

بسمة: ـ بل أقصد.. هي ليست مثلك

رمقتها ريم بغضب: ـ ماذا تقصدين؟

لم تجبها بسمة ولكنها رمقتها باستهزاء..

نعم هي تقصد قوامها الذي تعمدت اخفاء انحنائته خلف سراويل وقمصان من شيم الرجال... خصلاتها القصيرة المبعثرة التي يبدو أنها ضلت طريقها في رحلة البحث عن فرشاة أم ربما وجهها الذي ضلت مستحضرات التجميل طريقها نحوه..

ابتسمت باقتضاب ثم لملمت أوراقها وتابعت وهي تستعد للرحيل: ـ أنا لا أهتم بتلك المظاهر الجوفاء.. لا أبالي سوى بعملي.

ابتسمت بسمة وتابعت: ـ أنتِ فتاة ذات طموح.

ريم: ـ أنا فتاة تبحث عن الطموح..

بسمة: ـ أو ربما فرصة؟

ريم ساخرة: ـ نعم.. فرصة لن تأتي..

قالت عبارتها وشردت لوهلة.. شرود لم يقطعه سوى رنين الهاتف من أحد مصادرها..

رنين الفرصة

ـ أستاذة ريم.. خبر بمليون جنيه.. عن طبيب الفضائح..

ريم: ـ ماذا؟.. ماذا تقصد؟..

المصدر: ـ لقد ألقت امرأة بنفسها للتو من نافذة مكتبه....

نعم.... هي تبحث عن فرصة وحان الوقت لإقتناصها.

مريضة... حالة....

شقراء في عامها الحادي والعشرين جاءت متشبثة بذراع عاصم الرازي وغادرت محمولة على وسائد الرياح!!!!

لم يُصدق الطبيب الخمسيني عينيه وهو يُبصر اختفائها في ثوانٍ معدودة... ثوانٍ قاتلة بغيضة رأى فيها زوجته وابنتيه اللاتي سيتدمر عالمهن بعد تلك الفضيحة... الأقاويل التي ستتحول لواقع ملموس كجسد تلك الحمقاء الذي تهاوى من نافذة عيادته الشهيرة .. العيادة التي تزينت على مر السنوات بوجوه المال والسلطة والخطيئة.. الخطيئة التي قرر أن يمحوها يومياً داخل غرفة الجراحة؛ صك عذرية, بذرة خاطئة برحم اعتاد العبث, زوجة وزير, وعشيقة شهير, ونجمة تخشى الفضيحة..

نعم..

لقبوه ببئر المشاهير ولكن حتى تلك اللحظة كانت مجرد أقاويل...

اللحظة التي دلف فيها عاصم الرازي لغرفته ومعه خطيئته.

توجه بنظره نحو عاصم ليجد الرجل الحديدي يبدو كمدخنة قطار مسرع؛ وجهه أحمر كقلب البندورة وأنفاسه متسارعة مضطربة مرئية..

نعم مرئية فهو يكاد يُجزم رؤيته لدخان القطار الأسود يخرج من منخاره ليحيط وجهه بهالة بائسة من الغضب.. فالمرأة التي قفزت من النافذة لتوها لم تكن مجرد خطيئة تحمل جنينه بين أحشائها فهي أيضاً زوجة ابن عمه!!

زفر حسين ببطء ثم توجه لعاصم بعيون جاحظة قائلاً: ـ أيها الأحمق.. شهوتك الرعناء ستطيح بنا جميعاً.

لم ينطق عاصم ولم يستدر لطبيبه البائس ولكنه نهض ليتوجه بخطوات مترددة نحو النافذة..

استوقفه حسين في غضب بعد أن غرز أنامله في ذراعه المتصلبة وقال بسخط: ـ ماذا تظن نفسك فاعلاً؟!

أخيراً خرج صوته.. كان خافتاً غاضباً رخيماً كعادته: ـ أتركني يا حسين.. الحمقاء قد تكون جثة هامدة الآن على الإسفلت.

حسين: ـ جثة تطايرت من نافذة عيادتي يا عاصم, وآخر ما ينقصني الآن ظهور عضو برلمان شهير في الصورة!

عاصم: ـ ماذا..؟....

حسين: ـ انتظر هنا ولا تتحرك كفاني ما حدث.. دعني أفكر في مبرر منطقي لسقوط تلك المرأة من نافذة عيادتي.

جز على أسنانه وهو ينطق عبارته الأخيرة ثم اتصل بالإسعاف حتى قبل أن يُلقى نظرة على جسدها من النافذة....

فعلياً هي لا تعي ما حدث ولكنها وجدت نفسها تقفز بجانب صاحبة الجسد الطائر بسيارة الإسعاف.

من هي؟ وماذا حدث؟!

قفزت أم دفعها أحدهم؟....

تساؤلات عديدة جالت بخاطرها وهي تتأمل الجسد المسجي أمامها..

امرأة في عالم متأرجح بين حياة وموت ومعزوفة بائسة تُشكلها سارينة الإسعاف وأقدام تهرع للطوارئ وطبيب صارخ وممرضة مرتبكة وفراش متحرك بل راكض بفعل دفعهم نحو غرفة جراحة ربما من أجل إنقاذ جسد ولكن ماذا عن الروح!....

جلست بغرفة الإنتظار مع لفافة أخرى من التبغ.. أحرقتها بارتباك وقررت الرحيل ربما للمرة العاشرة قبل أن تتراجع وتعود من أجل الإطمئنان عليها.. هزت رأسها بالنفي عندما سألتها الممرضة عن بيانات المصابة... هي لا تعلم من تكون وليس لها علاقة بها من قريب أو بعيد... العلاقة الوحيدة مع سيارتها التي ربما تكون أنقذت دون قصد حياة المسكينة.

قطع سكون انتظارها دخول مُسرع لامرأة متحفزة كانت ترتدي سروالاً بالياً من خامة الجينز وسترة سوداء اللون وقد تناثرت خصلاتها البنية القصيرة على وجهها..

ظنت في البداية أنها أحد أقرباء الممددة بالداخل حتى بادرتها بسؤال مسرع: ـ عفواً.. جئتِ مع الحالة التي سقطت من الدور الثاني؟

ردت هند بإيجاز: ـ نعم.

ريم: ـ ماذا حدث؟.. أخبريني ماذا رأيتِ؟

هند: ـ من أنتِ؟

ريم بابتسامة: ـ عفواً.. أنا ريم الشاذلي.. صحفية بجريدة الخبر.

رمقتها هند بغضب وتابعت: ـ ابحثي عن سبقك الصحفي بمكان آخر.

ريم: ـ عفواً.. أنتِ لا تدركين, هذا ليس مجرد خبر... ألا تعلمين من هو حسين سلطان؟.. بئر المشاهير!

نظرت هند نحوها بضيق ثم تابعت بنبرة أكثر حدة: ـ لن أكرر كلامي.

زفرت ريم بضيق وابتعدت عنها ولكنها لم ترحل.. استقرت بمقعد مجاور في انتظار خروج صاحبة القصة..

نعم قصة الموسم قد تكون بالداخل تحت رحمة مبضع الجراحة..

أغمضت عينيها في سلام بل ربما أحلام وردية!!.. غير مدركة للنظرات الغاضبة الموجهة نحوها من هند..

تلك المرأة التي استنشقت قسوة العالم منذ نعومة أظافرها.. وتذوقت نكهة الظلم حتى اعتادتها.. من شبت وحيدة بمنزل اعتجت جوانبه بضحكات الأطفال.. وتزينت جدرانه ببكائهم..

دار رحمة للأيتام.

انتفض عاصم بغضب عندما لمح دخول حسين للغرفة ثم أمسك بطرفي قميصه ببئس زاعقاً: ـ أيها الأحمق كيف تجرؤ على احتجازي هنا؟!..

حسين: ـ كان يجب أن أفعل ذلك.. غضبك قد يزيد الأمر تعقيداً وأنت غير متحكم به.

عاصم: ـ لو لم أتحكم بغضبي كنت سأحطم باب غرفتك اللعينة وعيادتك بأكملها!

حسين: ـ اهدأ, عاصم.

عاصم: ـ ماذا حدث؟

حسين: ـ نقلتها الإسعاف للمشفى وأنا أدليت بأقوالي للشرطة.

عاصم: ـ ماذا قلت؟

حسين: ـ أخبرتهم أنها مريضة جاءت تطلب مني عملية إجهاض, وأنني رفضت بشدة وكدت أن أطردها من العيادة فهددتني أنها ستلقى بنفسها من النافذة لو لم أرضخ لرغبتها, وقبل أن أوقن انهيارها الفعلي كانت قد قفزت بالفعل!

عاصم: ـ وصدقوا هذا الهراء؟!

حسين: ـ هذا الهراء هو أفضل ما لدي.. ولكن سيكون حقيقة عندما تؤكده هي.

عاصم: ـ هي!!

حسين: ـ سارة لم تمت.. لقد خرجت لتوها من الجراحة ولكنها بالطبع فقدت الجنين.

تهاوى عاصم على مقعده وأغمض عينيه لدقائق في محاولة لتجميع عقله المبعثر ثم تابع: ـ هل أخبرتهم من تكون؟

حسين: ـ لا.. أعطيتهم البيانات الزائفة التي سجلتها أنت.

عاصم: ـ ومتى ستستجوبها الشرطة؟

حسين: ـ ليس قبل يوم, فهي ما زالت حتى الآن غائبة عن الوعي.

زفر عاصم بضيق وفرك صدغيه في يأس فتابع حسين: ـ حان دورك يا عاصم.. يجب أن تؤكد سارة كلامي في التحقيق.

صمت لوهلة بل صمت كثيراً ربما في محاولة لاستعادة بأسه..

كانت أفكار الغضب تجول بخاطره..

في لحظات رأى ماضيه وحاضره بل ومستقبله أيضاً يتهاوى تحت أقدامها..

نظر عاصم لصديقه ببأس ثم تابع بنبرة واثقة: ـ لا تقلق.. هو خطأي وأعلم كيف سأصلحه.

ـ الحالة مستقرة ولكنها لن تفيق قبل ساعات والزيارة ممنوعة حتى يأمر الطبيب بغير ذلك.

كانت تلك العبارة هي كلمات الممرضة بالتحديد لها ولصاحبة السبق المنشود..

غادرت هند المشفى بجسد مرهق ينشد الفراش بإلحاح ورغم ذلك لم تستطع النوم.. فأفكار الحاضر وهواجس الماضي استحوذتا على عقلها بإصرار...

سيف الأنصاري الذي اقتحم عالمها من جديد بعد أن خرج وتركها بالية ممزقة بعرضٍ مخزٍ يحمل في طياته عقد زواج عرفي من أجل متعة محرمة...

سيف الرجل الذي علمها كيف تنطق بعبارات الحب.. الوسيم الذي اقتحم أحلامها قبل واقعها.. الوحيد الذي سمحت له باقتحام شفتيها بدعوى الحب, وفي النهاية بعثر حروف عشقها وتهاوت أحلامها مع عرض مخزي ينشد جسدها في الخفاء بعيداً عن أعين مجتمع لن يقبل زواجه بامرأة مثلها..

زفرت بغيظ وقلبت الدفة لحاضر أخرجها منذ ساعات من ذكراه البائسة..

ما وراء تلك المسكينة الراقدة بالمشفى؟...

لقد كادت أن تفقد حياتها.. عبارة أخرى قذفتها الممرضة..

المصابة فقدت الجنين..

جنين!!!

الحمقاء كانت تحمل بذرة الخطيئة.. الأقاويل حقيقية إذاً فالطبيب الشهير يُجري جراحات الإجهاض في الخفاء..

زفرت بضيق..

هي تكره البائسة الآن.. الحسنة الوحيدة أنها تخلصت من الجنين.. أنقذته من قسوة الحياة..

ليتهم تخلصوا منها مثله.. بدلاً من أن يتركوها بدثار ممزق أمام إحدى دور الأيتام..

هربت عبرة حارة ألهبت وجنتها.. فسيارتها الفارهة ومظهرها الراقي ونجاحها المهني لن يمحي حقيقة تنمو كأزهار شوك يوماً تلو الآخر..

هي امرأة مجهولة النسب..

وعلى أحد الأسرة البيضاء ترقد امرأة أخرى نجت لتوها من موت محقق..

سكون.. وكأن العالم حولها فقد النطق..

أهذا هو الموت؟..

تجولت ببصرها تبحث عن أمها.. أبيها.. ولكن لا شيء..

فقط سكون وظلام تبدد كلاهما بعد لحظات على صوت فتاة صغيرة تشدو بصوت خافت وهي تقوم بجلي الصحون..

انتبهت بقلق... أمعنت النظر نحوها..

كانت هي.. هي منذ عدة سنوات..

منذ خمس سنوات.....

مراهقة لم تكد تكمل عامها الثامن العشر.. صوت شدوها الرقيق يكافح ليطغى على صوت الماء المنهمر بإصرار فوق صحون متكدسة في إشارة واضحة لمهمة الجلي التي لا تنتهي...

قطع نغم أنشودتها الخافتة صراخ زوجة أبيها المعتاد: ـ سارة... سااااااااااارة..

آاااااه.. زوجة أبيها المتسلطة أو بمعنى أصح أرملته...

غادر الحياة وتركها تعاني الويل معها.. لحق بأمها بعد أن أدخل تلك الصارخة إلى عالمها بحجة العناية بها..

زمت شفتيها وألقت نظرة على انعكاس صورتها بأحد القدور؛

جميلة.. يافعة.. خصلات ذهبية لامعة استرسلت على كتفيها.. عينان ببريق بني كلون القهوة.. وبشرة عاجية ملساء كثوب حريري.. إنها مثل سندريلا.. لا تتمنى شيئاً سوى أمير يخلصها من زوجة أبيها الماكرة.. وقد جاء سريعاً.. أسرع مما تمنت..

لم تُصدق نفسها عندما استمعت لكلمات نوال زوجة أبيها أو الخالة نوال كما اعتادت أن تلقبها..

ابتسمت نوال بمكر وتابعت: ـ لقد تقدم أحدهم من أجل الزواج بكِ

ـ حقاً..

تلعثمت سارة وهي تجيب ثم تابعت: ـ من يكون؟

نوال: ـ أسامة الرازي..

شعرت أن العالم يدور.. لا.. لا.. بل يتراقص من حولها...

أحد أفراد عائلة الرازي يريد الزواج منها!.. منها هي!!.. وهي ابنة الرجل البسيط وساكنة هذا المنزل المتواضع!..

والآن قد تُصبح إحدى زوجات آل الرازي..

أخيراً سيتحقق الحلم وجاءها الأمير!!!

سألت بتردد: ـ كم يبلغ من العمر يا خالتي؟

أطلقت نوال ضحكة ساخرة ثم تابعت: ـ شاب أيتها المحظوظة وليس كهلاً.. أسامة يبلغ فقط السادسة والعشرين من العمر.

كانت عبارتها الأخيرة ناقمة..

ابتسمت الصغيرة سارة بسعادة.. ربما نوال تود الرفض ولكن لا تستطيع, فمن يستطيع رفض هؤلاء!.. فهم يمتلكون تقريباً كل شبر من أراضى البلدة..

وكأنهم الوجه الحديث للإقطاع..

حان موعد اللقاء مع الزوج المنتظر.. لقد مرت بضعة أيام منذ فاجئتها نوال بعرض الزواج والآن وقت اللقاء..

ألقت نظرة أخيرة على ملامحها بالمرآة .. ملامح من الإضطراب أحاطتها بطرحة زرقاء اللون..

ابتسمت باقتضاب وخرجت من غرفتها متعثرة تحمل أكواب باردة كيديها.. كانوا خمسة؛ سيدتين ورجل وطفلة ومعهم نوال...

لم تستطع أن تتبين ملامحهم فقد كانت السجادة القاتمة هي صاحبة النصيب الأكبر من نظراتها..

ـ بسم الله ما شاء الله.

خرجت العبارة من إحدى السيدتين وكان يبدو أنها الأصغر سناً.. استطاعت سارة تبين ملامحها خلسة.. امرأة صغيرة الحجم ببشرة شاحبة ويبدو أنها في العقد الرابع من العمر..

تابعت نوال بصوت جلي: ـ تعالي يا سارة... ألقي التحية على السيد عاصم وزوجته السيدة صفاء.. وبالطبع الحاجة فُتنة والدة العريس.

شعرت سارة بسرعة الدماء التي تدفقت نحو وجهها...

لقد قالت والدة العريس و.. و.. من أيضاً.. السيد عاصم..

إذاً هذا هو عاصم الرازي يلقبونه بالرجل الحديدي وهو المتحكم بشئون تلك العائلة وتلك البسيطة هي زوجته وربما الطفلة نجلتهما ولكن...

مهلاً أين العريس؟؟!!

سؤال بديهي ولكن لم تستطع الصغيرة إلقائه.. فقط جلست بجسد مرتعش بجانب تلك العجوز التي ظلت ترمقها بتفحص.. وتستمع لصوت عاصم الرازي الأجش وهو يملي قواعد الزيجة على نوال التي تهلل وجهها عندما استمعت لرقم مهر العروس الصغيرة من أجل هذا المدعو أسامة الذي لم يظهر حتى الآن...

وتم الاتفاق وغادروا وهي لا تعي سوى شيئاً واحداً أن زواجها سيتم في خلال شهرين بعد عودة المدعو أسامة من سفره....

شهران وستتخلص من رفقة نوال للأبد.. نعم هذا هو المهم ولا شيء غير ذلك..

حتى إن كانت ستتزوج من رجل لم تتسنَ لها رؤيته...

الفصل الثالث

رجل لم تتسنَ لها رؤيته سوى قبل الزفاف ببضعة أيام..

جاء في زيارة خاطفة.. لم تستقر نظراته على ملامحها سوى للحظات.. لحظات لم تتبين منها سوى ابتسامته المقتضبة وقامته القصيرة نوعاً ما.. لم يكن وسيماً بقدر ملحوظ ولكنه كان يحمل جاذبية معتدلة..

كانت سعيدة فهي ستقترن بخيرة شباب البلدة كما يدعون.. لم تبالِ عندما رمقتها نوال بسخرية معللة زواجها برغبة حماتها بنسل يؤنس وحدتها من ابنها الحاضر الغائب وزوجة لا تملك حق الاعتراض.. لم تكن تبالي بشيء سوى الهروب من جحيم نوال؛ هروب بدأ بليلة زفافٍ صاخبة.. نساء يُمسكن بطبول الفرح ينشدن ويتمايلن, وفتيات يتراقصن, ونساء يتهامسن عن الصغيرة الجميلة التي ابتاعتها فُتنة من أجل زواج ابنها العابث عله يترك بلاد الغرب ويمكث بجوارها منتجاً العديد من الأحفاد..

مر الزفاف بصخبه كحلم مضئ ووجدت نفسها وحيدة معه بين أربع جدران.. خجل وخوف وارتباك تزايد عندما اقترب منها...

ابتسم ساخراً وقال وهو ممسك بذقنها الصغير: ـ عمرك ثمانية عشر عاماً إذاً!

أومأت رأسها بارتباك وهي تحاول التحكم في أنفاسها الصارخة تابع مستهزئاً: ـ كما أرادت أمي بالضبط!..

ابتعد عنها وبدأ في خلع ملابسه.. في البداية تسمرت مكانها غير موقنة بما يحدث وسيحدث وبعد ذلك هرعت راكضة نحو دورة المياه..

في المرآة تأملت ملامحها.. كانت تبدو مختلفة..

ما بال تلك المساحيق تبدل الوجه من حال إلى حال!!!

ولكن هي لا تبدو كهؤلاء التي تراهن في التلفاز يتحولن بفعل تلك المساحيق لنجمات بل أميرات.. وهي لا تبدو كذلك, بل تبدو كعروس من الحلوى تنضح ملامحها بألوان غير متناسقة..

زفرت بغضب وقررت التخلص من تلك الأطنان عل الماء البارد يخفف بدوره من احمرار وجهها..

خرجت بعد وقت ليس بقليل تبحث بعيونها عنه بارتباك..

أخيراً ظهر من العدم وكان قد ارتدى ملابس للنوم..

نظر نحوها في دهشة قائلاً: ـ أنتِ حقاً جميلة!.. من هي الحمقاء التي وضعت تبرجك!

أجابت بتلعثم: ـ صديقة للخالة نوال.

تابع وهو يرمقها بشغف: ـ يبدو أنها كانت تقصد اخفاء جمالك بمكر.... شعرت بدقات قلبها متسارعة بعد عبارته الأخيرة.. بركان ثائر من الخجل والرهبة ولم يساعد اقترابه السريع منها على اخماده..

حتى تلك الليلة لم تكن تعلم ما هو الزواج ولم يبالِ أحد بنصحها.. حتى زوجها لم يبالِ سوى برغبته الفطرية التي تفجرت بوجه فتاة غادرت لتوها ربيعها الثامن عشر.....

وعلى مر العصور يعقب الربيع الصيف بحرارته ثم الخريف بتساقط أوراقه يليه شتاء بارد كملمس الثلج, ولكن في عالمها يبدو أن قطار الخريف جاء ولا ينوي العودة.. فها هي الآن تقترب ببطء نملة نحو عامها الثاني والعشرين.. أربع سنوات.. أيام وشهور تمخضت عن حقائق لم يستوعبها عقلها الصغير في حينها؛ الزوج الذي يهوى عبث السفر ويعيش مع امرأة أخرى في بلاد بعيدة, والحماة التي كانت تبحث عن حمقاء تستقبل بذور ابنها الغائب عله يعود لرشده وولده بعد ذلك.. أربع سنوات لم ترى فيهم زوجها سوى مرات معدودة.. شهر في بداية الزفاف وزيارة خاطفة منذ عام بناءً على إلحاح والدته.. جاءها وغادرها دون مشاعر ليتركها محطمة أكثر مما سبق..

كانت تود الهروب من هذا الجحيم.. جحيم وحدتها بين أربع جدران وجحيم فُتنة حماتها المصون التي تستحق لقب فِتنة "بكسر الفاء" مع سبق الإصرار فالعجوز تعاملها كخادمة وترمقها دائماً بنظرات الغيظ متوعدة بزواج أسامة من أخرى تحقق لها حلم الإنجاب الذي لم يتحقق حتى الآن.. ولكن أين ستهرب؟.. هل ستعود لنوال؟..

على الأقل هنا لديها مسكنها المستقل الذي اعتادته مع مرور السنوات.. وإن غادرت البلدة, أين ستذهب؟؟؟ وكيف ستعمل بشهادتها المتواضعة؟.. وهكذا اعتادت وحدتها.. وحدة لم يكن يؤنسها سوى ظهور "آية" الوحيدة التي صادقتها من عائلة الرازي..

من يصدق أن آية الرقيقة هي الأخت الصغرى لعاصم الرازي قاسي القلب الذي ابتاعها بحفنة من الأموال من أجل فُتنة وولدها!..

ولكن آية تختلف عنهم جميعاً؛ بشوشة الوجه.. رقيقة للغاية وستتزوج بدورها بعد أيام.. سترحل من أضاءت شمعة عزلتها وتتركها من جديد تتخبط في ظلام الوحدة..

إبتمست لها آية بعد أن جذبتها من ذراعها قائلة: ـ لا اعتراض.. الليلة هي ليلة الحنة, وأنا العروس ورغباتي أوامر!

تململت سارة برقة: ـ آية.. تعلمين أنا أكره مساحيق التجميل.

نظرت نحوها آية بخبث وتابعت: ـ تكرهينها أم لا تحتاجينها أيتها الجميلة؟.. هناك فرق!

سارة: ـ صدقيني يا آية تجربتي الوحيدة مع مساحيق التجميل كانت في ليلة زفافي ولم تكن مشجعة بالمرة.

آية: ـ هذا لأن الحاقدة نوال جاءت بخرقاء لتعبث بوجهك الملائكي.. لكن أنا وبلا فخر أنهيت لتوى دورة في فن التبرج ولكن لا تخبري أحداً.. اتفقنا؟

سارة بابتسامة: ـ حسناً.

آية: ـ إذاً هيا.. اخلعي ذلك الوشاح فجميعهن نساء بالخارج, وارتدي هذا..

ناولتها آية ثوباً ذهبي اللون بدون أكمام بقماشٍ حريري الملمس وصدر مطرز برقة بأحجار صغيرة بلون ماسي..

نظرت نحوها سارة بدهشة: ـ ما هذا؟!

آية: ـ هذا من أجلك, سترتدينه الليلة.

سارة: ـ آية.. أرجوكِ..

آية بحزم: ـ لن أقبل باعتراض.. لا تغضبي العروس.. دعينا ننهي تبرجك ونصفف خصلاتك المشرقة.. هيا فأنتِ صديقتي المقربة وأريدك متألقة بجانبي.

استسلمت سارة بابتسامة لرغبة صديقتها في النهاية, بل شعرت بالفخر عندما انسدل الثوب الحريري على جسدها.. شعرت بأنوثة كادت أن تنساها وسط أيامها الفارغة.. أنوثة رمقتها حماتها بغيظ وعائلة زوجها بحسد..

قررت ألا تبالي بأحد سوى آية التي كانت تبدو مشرقة بدورها في ثوب حريري قصير..

كانت ليلة جميلة ممتلئة بصخب حياة افتقدتها في الآونة الأخيرة؛ فتيات يتبارين في الرقص, وآية تتمايل بغنج مع الأنغام الصاخبة.. جذبتها آية لتشاركها الرقص ولكنها رفضت بخجل استشعرته آية من نظرات نساء العائلة نحو غرفة الفتيات المشعة بالأنغام الراقصة.. توجهت آية نحو باب الغرفة وواربته قليلاً ثم تابعت: ـ هيا يا سارة.. إذا أغلقته سيقفزن جميعهن بالغرفة....

ضحكت الفتيات بشدة وسارة ترفض بتوسل دون جدوى حتى تابعت إحدى قريبات زوجها بمكر: ـ هيا سارة.. فآية متحمسة كثيراً من أجلك, دعينا نرى إذا كان رقصك يستحق المشاهدة!

أجابت آية بثقة: ـ بل يستحق تشجيعاً حاراً أيضاً.. هيا يا سارة وسأشارك الرقص ستكون رقصتنا سوياً بتلك الليلة المميزة..

نهضت سارة بتردد ولكن ابتسامة آية وموسيقاها المفضلة شجعتها على التمايل مع الألحان..

آية تعلم عشق صديقتها لتلك المقطوعة

"نبتدي منين الحكاية"

وتمايلت سارة.. وعندما تتمايل فهي تغوص بعالم آخر يحمل أحلامها.. ذكراها.. أمانيها.. مخاوفها.. رغباتها..

عالم موازٍ مع خلفية ناعمة لموسيقى حالمة تختارها بعناية..

بعينين مغمضتين تاهت وتركت المجال لإنحنائات جسدها تتجول بحرية في الفراغ حولها وسط نظرات متعددة بين إعجاب وحسد.. وفي وسط هذا الصخب كانت هناك عينان تراقبان في شغف؛

عاصم الرازي الذي طغت الموسيقى الصاخبة على حضوره ومنع الباب النصف مغلق قاطني الغرفة من ملاحظته..

ولكن هو.. هو لاحظ جيداً هذا الجسد المتمايل وتلك الخصلات المشرقة والبشرة التي اقتربت من لون الجدار الكريمي والملامح الفاتنة التي اختارتها فُتنة منذ سنوات لتكون زوجة لابن عمه.. الأحمق!

تنهدت صفاء براحة بعد أن استلقت بجانب زوجها بالفراش ثم قالت: ـ لقد كانت ليلة رائعة, وآية كانت تبدو جميلة للغاية.

أجابها شارداً: ـ نعم.. كانت تبدو رائعة الجمال.
لم يكن يتحدث عن آية بل كان يتحدث عن الشقراء الفاتنة التي فاز بها ابن عمه الأحمق, بل هو من سلمها له منذ سنوات دون أن يلحظ حتى ملامحها!...

رآها في المنزل تتمايل بغنج, ورآها في الزفاف تجلس ساكنة بجانب فُتنة تُخفي خصلاتها الذهبية خلف شال أسود اللون زاد من توهج بشرتها وتستر جسدها الفاتن خلف ثوب محتشم لم يعد له داعٍ الآن! فقد رأى من جمالها ما استحوذ على عقله بشدة وهو الذي اعتاد نيل ما أراد وقتما أراد..
قطع أفكاره الجامحة التي طالما غابت عنها زوجته صوتها الحالم متابعة: ـ ستكون سلمى جميلة مثلها في ليلة زفافها.

أجابها بدهشة: ـ ماذا؟!

صفاء: ـ سلمى ابنتنا يا عاصم!

عاصم: ـ أتفكرين في زواج سلمى منذ الآن؟!

ضحكت بشدة: ـ السنوات تقفز بسرعة البرق يا عاصم, قبل أن نوقن ما يحدث ستكون سلمى في ثوب زفافها الأبيض ومحمود يصرخ أبي أريد الزواج بدوري.

قطب جبينه وتابع: ـ ما زال الوقت مبكراً على أحلامك تلك.

صفاء: ـ بل سيمر أسرع مما تتصور, وستزحف الشعيرات البيضاء التي تتعمد اخفائها بجنون على خصلاتك زوجي العزيز وسنستمتع سوياً بقدوم أحفادنا واحداً تلو الآخر.

رمقها بحدة ثم تابع: ـ هيا لتنامي.. فستغادرين مبكراً.

صفاء: ـ أغادر!.. ألن تأتي معنا؟!

عاصم: ـ لا... لدي بعض الأعمال بالبلدة سأنهيها ثم ألحق بكم.

صفاء: ـ إذاً ننتظرك.

قاطعها: ـ كيف؟.. ومدارس الأولاد!... المسافة ساعة من هنا للقاهرة سيوصلكم السائق وسألحق بكم بعد يوم أو اثنين.

رضخت لرغبته واستسلمت للنوم سريعاً, أما هو فقد ظل مستيقظاً كعادته يلهث خلف رغبة أخرى.. رغبة لا يصلح معها تلك المرة عقد عرفي أو حفنة من الأموال وكأن استحالتها زادت من جنونه!

استرعى انتباهها طرقات الباب..

كانت الساعة قد قاربت من العاشرة مساءاً بالتأكيد ليست حماتها فُتنة.. ففُتنة لديها روتين يومي لا يستطيع هرقل نفسه كسره إن أراد!.. فالعجوز تصحو مع شروق الشمس تتناول إفطارها المعتاد ثم تفتح أبواب شقتها من أجل قدوم أم أيمن, وأم أيمن في الثقافة المعتادة هي الخادمة التي تظهر كل صباح ؛ وجه بشوش, بشرة جافة تمكنت منها تشققات الزمن, جسد هزيل لا تُصدق إنتاجه لثمانية أولاد, ولسان لم يعهد التوقف ربما طيلة عمره.. وفي المساء تغادر مع غروب الشمس بعد أن تُنهي مهمتها من غسيل وتنظيف وترتيب لأمور المنزل وعادة لا يُسمح لها بإعداد الطعام, وعند فُتنة

أم أيمن تمثل مصدر متحرك لأخبار البلدة وجلسة مطولة من النميمة التي لن يتعافى منها الزمن..

قبل الظهر بقليل يحين دور سارة تصعد لفُتنة التي ربما تكون رغبتها في المكوث وحيدة بمملكتها في الدور العلوي تاركة لسارة شقة صغيرة بالدور الأول هو أفضل ما حدث لسارة في تلك الزيجة..

في الليل ساعات محددة من العزلة بعيداً عن حماتها المتذمرة دوماً ودائماً..

وفي الصباح موعد محدد ومهمة محددة تتمثل في مقابلة بعض اللحوم النيئة والخضروات المتعددة لتنتهي بوليمة غداء من أجل فُتنة ومنبع ضيوفها الذي لا ينضب, ففُتنة من عائلة كبيرة أغلبهن نساء؛ إثنتا عشر أخت وفُتنة هي أكبرهن.. يتوالين على المنزل باستمرار هن وعائلتهن, ودائماً سارة هي الموكلة بالضيافة التي لا تنتهي وكأن هذا هو دورها الذي وُجدت من أجله بل وتزوجت من أجله ما دام السبب الآخر لم يتحقق ولا تنمو بداخلها بذور من الحاضر الغائب كما تتمنى فُتنة..

مع حلول الظلام ترحل خادمتان إحداهن بأجرة مجزية وبقايا طعام من أجل أسرة تعيلها.. وأخرى.. أخرى أصبحت حفنة الأموال التي تقذفها فُتنة بمهانة بين قبضتيها كزهور تمكن منها الشوك؛ مصروف شهري هو ثمن تلك الجارية من أجل رجل زهدها بعد شهر واحد من الزفاف ولم يأتها بعدها إلا في زيارة خاطفة ليلقاها ببرود ويتركها محطمة أكثر مما سبق..
توجهت نحو الباب بخطوات مرتجفة متسائلة عن سبب زيارة فُتنة لها في هذا التوقيت فبابها لا يستقبل زائرين سوى آية التي رحلت عن البلدة مع زوجها بعد الزفاف الرائع..

جذبت شالاً قطنياً لتغطي به رأسها وتسمرت للحظة عندما استوعبت ماهية الزائر...

عاصم الرازي!.

اضطربت من المفاجأة.. ابتسمت باقتضاب ورحبت بتلعثم أما هو فتحدث بثقة.. بصوت أجش بادرها على الفور: ـ كيف حالكِ؟

أجابت بصوت خافت: ـ الحمد لله.

تابع بنبرة هادئة: ـ هل ستتركين ضيفكِ بالباب؟

بهتت قليلاً ثم أجابت بتردد: ـ تفضل.

تخطاها بعد أن رمقها بنظرة ماكرة لم تلتقطها فبصرها كان مرتكزاً على الأرض..

تركت الباب مفتوحاً وراقبته بدهشة وهو يجلس على الأريكة متابعاً: ـ لقد كنت في زيارة للسيدة فُتنة وفكرت أن أمر للإطمئنان عليكِ.. هل تحتاجين شيئاً؟

الإطمئنان عليها!!!!

منذ متى وعاصم الرازي يهتم بحالها أو يطمئن عليها؟.. بل متى رآها هذا الرازي؟!..

فهو منذ أن جاء في تلك الليلة الغابرة منذ سنوات لإتمام زيجتها بابن عمه الأصغر لم تره تقريباً إلا في مناسبات معدودة ولم يكترث بوجودها قبل ذلك..

ماذا هناك؟.. هل اشتكت فُتنة منها؟.. هل تبحث عن عروس أخرى لأسامة مثلما هددتها من قبل؟.. هل يُريدون تطليقها الآن؟..

هواجس عديدة انتابتها أخرجها منها عبارة أخرى منه عندما قال متابعاً: ـ لم تجيبيني.. هل تحتاجين شيئاً؟.
أجابت بتلعثم: ـ لا.. أشكرك.
عاصم: ـ حسناً.. إن احتجتِ لشيء.. أي شيء لا تتردي في الاتصال بعاصم الرازي..
ناولها كارت صغير يحمل أرقام عديدة.. وضع علامة على أحدهم وتابع: ـ هاتفيني على هذا الرقم.
أخذت الكارت بقبضة مرتعشة ودهشة متملكة من عقلها لتلك الزيارة الغريبة...

تابع بابتسامة عندما لمس اضطرابها: ـ إذا وقعتِ بمشكلة لن يُخرجك منها سوى عاصم الرازي حتى وإن كانت مع فُتنة.
دلى بدلوه وغادر وتركها حائرة بهواجس مختلفة..

بعد ذلك تطورت الأمور سريعاً ففُتنة بالفعل تبحث عن عروس أخرى لأسامة, تجربة أخرى مع امرأة أُخرى ربما تبقيه ولا يتركها كالجميلة الحمقاء التي ابتاعوها له منذ سنوات.. قفزت بعقلها الأفكار واحدة تلو الأخرى.. عاصم الرازي كان يعلم ما تنويه فتنة, بل هو من تولى أمر الزيجة المرتقبة كما فعل سابقاً.. كان يعلم إذاً ولهذا زارها..

هل حقاً لديه حل؟.. هل يشعر الرجل القاسي بالشفقة نحوها؟.. ومع مرور أيام بمذاق صبار تسللت منه المرارة بخبث, ووقت أصبحت عبارات فُتنة اللاذعة هي دقائقه وثوانيه..

بحثت عن الاسم.. الرقم.. وبحماقة امرأة تخطو دون وعي نحو دنيا الأنوثة هاتفته.

الصياد شخص صبور.. يميل للتخطيط بدقة.. ينتقي فريسته بعناية.. يلقي بطعمه وينصب فخه ويقبع في سكون منتظراً قدوم فريسته..

منذ أن أعطاها هاتفه وهو ينتظر هذا الاتصال.. كان شبه واثق من اتصالها, فهو يعلم أن فُتنة لن تكل ولن تمل من مضايقتها خاصةً بعد أن وافق على زيجة جديدة لابنها الغائب, بل وخطب له العروس بنفسه مثل المرة السابقة..

كانت تبدو مرتبكة.. وهي تعلن عن نفسها بالهاتف: ـ سيد عاصم.. أنا سارة..

عاصم: ـ عفواً.. سارة مَن؟

سارة: ـ أنا سارة.. زوجة أسامة الرازي.

علت ابتسامة عابثة ملامحه وتابع: ـ مرحباً..

سارة: ـ هل اتصل بوقت غير مناسب؟

عاصم: ـ لا أبداً..

سارة: ـ لقد أخبرتني أنك تستطيع مساعدتي إن احتجت لشيء..

عاصم: ـ بالطبع.. ماذا تحتاجين؟

سارة بتردد: ـ حسناً.. أنا..

عاصم مقاطعاً: ـ الأمر بخصوص زواج أسامة, أليس كذلك؟

تنهدت بألم فزيجة أسامة يتعامل معها الجميع وكأنها أمراً عادياً وكأنها بدورها ليس لها حق القبول أو الإعتراض.. قبل أن تنطق بادرها بقوله متابعاً: ـ حسناً.. أنا سأكون بالبلدة الليلة سأمر عليكِ وعندها تخبريني بما

تريدين.
قطبت جبينها وقالت على الفور: ـ أستطيع أن أخبرك الآن.
عاصم بحدة: ـ لا.. في المساء أفضل فلدي زائر الآن.. لا تقلقي فأنا في صفك.
قال عبارته الأخيرة بنبرة خافته تحمل في طياتها مكراً لم توقنه في حينها وزيارة أخرى لا تزال جاهلة بسببها..
ألقت نظرة أخيرة على ساعة الحائط قبل أن تنتبه لطرق الباب..

ها قد جاء..

قالتها لنفسها وهي تتوجه لفتح الباب.. رحبت بزائرها بحرص ودعته للدخول مضطرة وتركت الباب مفتوحاً كالمرة السابقة..

جلس عاصم بعد أن أشعل سيجاراً له رائحة خانقة وتابع: ـ ألديكِ مرمدة؟
نظرت حولها باحثة: ـ نعم.. لحظة واحدة.
أحضرت له مرمدة السجائر ووضعتها أمامه.. تابع وهو يرمقها بسخرية: ـ هل ستظلين واقفة هكذا؟
جلست بارتباك على مقعد مواجه.. لم تتحدث على الفور فالكلمات مبعثرة برأسها وتسعى لترتيبها بشكل سليم..

طلاق؟..

نعم هي تريد الطلاق, وتريد أيضاً أن تعمل.. وهو رجل له نفوذ بإشارة منه سيطلقها أسامة بكل سلاسة, وبتوصية منه ستعمل بسهولة رغم شهادتها المتواضعة جداً..

أخيراً خرجت العبارة: ـ أريد الطلاق.

نظر نحوها بتمعن ثم تابع: ـ الطلاق؟

سارة: ـ نعم.

عاصم: ـ ولماذا؟

سارة: ـ عفواً!!

عاصم: ـ لماذا تريدين الطلاق من أسامة؟.. هل هناك امرأة عاقلة تطلب الطلاق من أحد رجال الرازي؟!!

تملك منها الغضب للحظات ثم تابعت: ـ سيد عاصم.. لقد أخبرتني أنك تستطيع مساعدتي.. أرجوك.. أعرف أن الأمر بيدك قبل الجميع..

ابتسم بمكر: ـ حسناً.. أعلم أن الحياة مع فُتنة ليست بسهلة ولكن أسامة شاب طيب القلب!.

كادت أن تدمع من سخرية ما ستقوله تابعت بأسى: ـ أنا لا أعلم من هو أسامة.. فهو زوجي وأنا أطلب منك تطليقي منه!.. هل تعلم لماذا سيد عاصم؟

عاصم: ـ لماذا؟

سارة: ـ لأنني ببساطة لا أملك رقم هاتفه..

ابتسم بمكر متأملاً ملامحها وتابع: ـ أنا أعلم أنك مظلومة بتلك الزيجة وأن أسامة غائب أغلب الوقت ولكنه سيعود قريباً.. ربما يستقر هنا وتبدلين رأيك.

زفرت بيأس وتابعت: ـ سيد عاصم.. أرجوك أنا لا أريد سوى طلاق يتم بيسر ووظيفة تضمن لي عيشة كريمة, وأعلم أنك تستطيع بسهولة تدبر ذلك.

تابع في ثقة: ـ حسناً.. اعتبري الأمر منتهي.

تهللت أساريرها: ـ حقاً!

عاصم: ـ ولكن لا تخبري فُتنة بشيء.. دعيني أنا أتولى الأمر.

سارة بسعادة: ـ حاضر.. حاضر.

ابتسم برضى: ـ ألا ترين أن ضيفك يستحق بعض القهوة!

ضحكت ببراءة وتوجهت للمطبخ لإعداد بعض القهوة من أجل منقذها غير موقنة للخطوات التي توجهت نحو باب الشقة لإغلاقه ثم تبعتها نحو المطبخ....

لا يعلم ماذا أصابه ولكن تلك الفاتنة الصغيرة دون وعي جعلته يتخلى عن حرصه وعن خطط طويلة الأمد رتبها في عقله البائس تتمثل في اغوائها بعد ذلك..

أرادها الآن وبتلك اللحظة..

كانت تعد القهوة وتفكر في المستقبل..

يبدو طيب عاصم الرازي ليس وحشاً كما يصورونه.. سيساعدها وستعمل وستبتعد عن تلك الوجوه البائسة وتحيا من جديد وربما تتزوج بمن يُسعدها بحق..

أحلام بنكهة الزهور قطعها ملمس قبضتين فولاذيتين اعتصرتا خصرها..

فزعت وأوقعت كل شيء واستدارت بفزع لتجده خلفها ينظر نحوها برغبة عارمة..

تلعثمت بفزع: ـ ماذا هناك؟

لم يجبها بل قربها أكثر إليه.. قبلاته أفزعتها وتجمدت الدماء بعروقها..

شهقت برعب عندما استدركت ما يحدث لها بالفعل: ـ سيد عاصم..

أرجوك.. أتركني..

كانت نبرتها صارخة.. مستنجدة.. كتمها هو بقبضة يديه ثم حملها عنوة باليد الأخرى ليتوجه بها نحو غرفة نومها غير عابئ بشيء سوى رغبته.. كانت تدفعه بيأس.. دون جدوى..

شعرت أن العالم حولها يتهاوى وهوى قلبها بفزع من المصير الذي أحاط بها.. خرج لفظ نابي من بين شفتيها بغضب.. لعنته ولعنت حظها الذي أوقعها في تلك العائلة.. قيد معصمها بقبضته بعنف ثم تابع بهمس: ـ وكأنكِ لا تريدين ذلك!

تملك منها الذهول وبرقت عيناها في فزع : ـ ما.... ماذا؟!!!!....

نظر نحوها مرة أخيرة قبل أن ينهي ارتداء ملابسه ثم زفر بغضب: ـ متى ستنهين تلك المناحة؟!.. ما حدث قد حدث!

تأملته بأهداب مبتلة.. بدا مشوهاً.. أم ربما بداً حقيقياً!

تابع ببأس بعد أن رمقها بتوعد: ـ لو تفوهتِ بكلمة ستكون نهايتك..... هل تفهمين؟

همهمت بحزن: ـ نهايتي!!!..

عاصم أخرج سيجاراً نفثه في غضب وتابع: ـ لو علم أحد بالأمر لن تكفيني دماؤك...

انكمشت في فراشها وجذبت غطاءاً لتدثر ارتجافها..

اقترب منها ثم ملس على خصلاتها في رقة غير متناسبة مع ملامح وجهه ثم تابع: ـ لا تقلقي يا جميلة.. سأعمل على طلاقك من أسامة قريباً, وعندها سأوفر لكِ وظيفة عندي تحلمن بها العديدات.. صدقيني!...

تأملته بذهول غير مدركة لشيء سوى انتهاك عالمها على يديه.. حاضر يبدو

قاتماً ومستقبل يبدو مشوشاً بحروف عبارته الأخيرة....

الفصل الرابع

همهمات متقطعة ونحيب أقرب للهمس اخترقا جدران مشفى يحمل بين جوانبه جسداً كاد أن يفقد الحياة منذ سويعات قليلة.. جسد امرأة غارقة بين ذكريات مريرة توالت تباعاً داخل عقلها النائم..

عادت للحاضر مع ناقوس آخر ذكرى..

عندما ضاقت بها السبل ولم تجد سوى جلادها لتلجأ إليه.. عندما أخبرت عاصم الرازي ببذرة خطيئته التي تنمو برحمها.. عندما تفجر بوجهها شيطانه الغاضب ووحشه الثائر لتختبر بطشه كما اختبرت رغبته الهوجاء من قبل.. لينتهي بها الأمر معانقة للرياح في تجربة تحليق نحو الخلاص..

ولم تنله في النهاية.

أطرقت رأسها وبدأت بفرك جبهتها علها تتخلص من هذا الألم المسمى بالصداع.. همت لارتشاف بعض القهوة وعندها لمحت خيال امرأة فارعة الطول تقترب بخطوات منتظمة من مكتبها..

شفاة قرمزية وخصلات بلون ناري وعينان أضفت عليهما الظلال المتدرجة بريقاً مميزاً وتنورة قصيرة بشكل فاضح وقميص حريري فقد أزراره العلوية عن قصد.. تباً ألا تخجل تلك المرأة!!..

رمقتها هند باستهجان فهي تبدو متمادية بطريقة مزعجة..

ـ المهندسة هند؟ ابتسمت لها الأخرى بثقة وتابعت بصوت أنثوي رقيق:

هند: ـ نعم.. أنا.

تابعت: ـ السيد سيف يريدك بمكتبه على الفور.

هند: ـ من؟!

هي بنبرة بطيئة للتوكيد: ـ السيد.. سيف..

هند: ـ وأنتِ من تكونين؟

رمقتها المرأة بحدة ثم تابعت دون اكتراث: ـ دارين.. مديرة أعماله!

تركتها صاحبة القوام الممشوق ورحلت تتمايل بغنج عارضات الأزياء..

ابتسمت هند ساخرة وتابعت محادثة نفسها:

"ما زالت معاييرك كما هي سيف.. لم تتغير!"

ألقت نظره أخيرة على ملامح الأرق بوجهها قبل أن تتوجه لغرفة مكتبه..

حمداً لله على اختراع مساحيق التجميل لولاها لما استطاعت إخفاء علامات الأرق تحت عينيها ولكن يبدو أنها لم تجدي نفعاً مع نظراته المترصدة..

ابتسم برضى عندما دلفت للغرفة وبادرها بقوله: ـ يبدو أنكِ لم تنالي قسطاً كافياً من النوم ليلة أمس!

نظرت نحوه بضيق متابعة: ـ لماذا تقول ذلك؟

نهض من مقعده وتقدم من مقعدها ليميل في مواجهتها ويمد أنامله بثقة على جفونها متابعاً: ـ الأرق بسببي؟

رمقته بغضب ثم أزاحت يديه متابعة: ـ فقط في أحلامك!

تركها وجلس على المقعد المقابل..

رمقها بنظرة واثقة وعادت ابتسامته العابثة للظهور على زاوية ثغره ثم تابع بثقة: ـ واقعكِ أحلامي!

هند: ـ استدعيتني هنا من أجل هذا الهراء؟!

نظر نحوها بعمق وصمت للحظات ثم تابع: ـ بالطبع لا ولكن عندما رأيتك تبدل الأمر.. تبدين مجهدة.. ما بكِ؟

هند: ـ لا شيء.

سيف: ـ أعلم جيداً ملامح الأرق بوجهك.. أحفظها عن ظهر قلب!

هند: ـ لا شيء يبقى على حاله.

سيف: ـ تغيرتِ؟

هند: ـ بالطبع..

سيف: ـ لا أصدقك

ابتسمت بسخرية ورمقته بثقة متابعة: ـ واقعك أحلامي!

نظر رامز للساعة فوجدها قاربت على الحادية عشر صباحاً عندها لمحها وهي تتوجه لمكتبها بغضب..

ألقت حقيبتها بضيق وأخرجت هاتفها النقال.. كانت تزفر وهي تمسك بالهاتف وخصلاتها البنية القصيرة تتأرجح على وجهها مع كل زفرة حارة..

لا يعلم هل تشعر به وهو يراقبها.. يدرس ملامحها.. يتأمل قسماتها المتمردة.. ويغوص ببحر عينين لم تتلقيا نظراته العاشقة ولو على سبيل الخطأ...

أغلقت ريم الهاتف وهي تتمتم: ـ أخيراً.. خبر جيد!

تنحنح رامز وقال بعد تردد: ـ ريم.. ماذا تقولين؟

ريم: ـ صاحبة خبر الموسم.. عادت لوعيها أخيراً.

رامز: ـ تتحدثين عن حادثة الطبيب؟

ريم: ـ نعم.

رامز: ـ هل أنتِ ذاهبة للمشفى؟

ريم: ـ بالطبع؟

رامز: ـ تحتاجينني معكِ؟؟

ريم: ـ لاااااااا... وجود مصور قد يصيبهم بالهلع خاصة إن تواجد أحد أفراد عائلتها.

رامز: ـ معك حق

ريم: ـ تمنى لي التوفيق رامز.. فأنا منذ الصباح لم أتحصل على معلومة ذات قيمة.

رامز: ـ أين كنتِ؟

ريم: ـ تحدثت مع حارس العقار وكان مضيعة للوقت.. وعندما دلفت للعيادة كادت سكرتيرته أن تمزقني إرباً لمجرد السؤال.

رامز: ـ بالطبع.. من الحماقة أن تتصوري أنك ستحصلين على معلومة من هناك.

نظرت نحوه ريم بغضب: ـ نعم!!!

تلعثم رامز: ـ عفواً.. لا أقصد.

ريم: ـ كعادتك رامز.. تخرج الحقيقة من جوفك بعفوية رغماً عنك.

رامز: ـ وهذا شيء سئ؟

ابتسمت ريم بأسى: ـ أنت مصور فوتوغرافي....

رامز: ـ ماذا تقصدين؟

ريم: ـ الصورة لا تكذب.. ولكن الخبر!!!!

رامز: ـ قد يكذب؟

ابتسمت بعبث وتابعت وهي تستعد للرحيل: ـ أنا لا أكذب ولكني أتجمل!

قالت عبارتها بطريقة درامية بعد أن رفعت ذقنها المدبب وحركت أناملها بعبث.. أما هو فقد ظل يراقب رحيلها بابتسامة...

أوقاتًا يراها فيلسوفة قذفوا بها في مناخ خاطئ لتتخبط بين ما تريد وما يجب عليها فعله, وأوقاتاً يراها مجرد حمقاء تسعى وراء الخبر دون بصيرة..

وفي كلتا الحالتين هو عاشق لهذا الكيان المتناقض المسمى بريم الشاذلي.

انتبهت سارة للرداء الأبيض الذي يتحرك حولها في الغرفة.. بجفون ثقيلة وملامح مبهمة بدأت تتأمل الواقع المحيط بها..

ابتسمت لها المرأة وقالت بنبرة حانية: ـ حمداً لله على سلامتك.

نظرت سارة حولها في حيرة وتابعت بعد أن تحسست رأسها ووجهها: ـ أين أنا؟

الممرضة: ـ أنتِ بمشفى الأمل..

سارة: ـ مشفى!!!

عند ذلك استمتعت سارة لصوت رجولي لا تدري متى ظهر ومن أين!!..

أمسك الطبيب برسغها وظل يتابع ساعة يده بتركيز ثم تابع: ـ حسناً.. سيدتى هل تستطيعين إخباري بعدد هؤلاء؟

كان يوجه يده نحوها وقد فرد سبابته ووسطاه وضم بقية أصابعه...

ردت سارة: ـ اثنان

الطبيب: ـ جيد جداً.. والآن هل تذكرين اسمك؟

سارة: ـ اسمي سارة.. سارة عبد العزيز ريحان.

الطبيب: ـ ممتاز.. وهل تذكرين الحادث يا سارة؟..

انتفضت سارة ونظرت نحوهما في فزع ولم تنطق..

تابع الطبيب بعد أن رمقها بنظرة فاحصة: ـ لقد أنقذتك العناية الإلهية يا سارة.. فبفضل تلك السيارة التي سقطتِ فوق سقفها نجوتِ من الموت وتحاشى جسدك الكسور المضاعفة ولكن...

رددت بشرود: ـ سيارة؟!.. حادث؟!.. موت؟!!

ابتسم الطبيب باقتضاب: ـ لقد نجوتِ وهذا هو المهم.

تابعت بنفس الملامح المبهمة: ـ قلت ولكن.. ولكن ماذا؟

زفر الطبيب بضيق وتابع: ـ لقد فقدتِ الجنين.

انكمشت على الفراش..

العبارات مقتضبة.. نجت من الموت ولكن جنينها لم ينجُ..

تماماً كما أراد عاصم..

ابتسمت بأسى وهربت عبرة حارة من عينيها.. عبرة كانت شرارة البداية لسيل منهمر من العبرات لا يبغي التوقف..

كانت رؤيتها ضبابية بفعل نهر المياه المالحة بين جفونها..

لمحت نظرة حانية من المرأة ذات الرداء الأبيض التي قالت بابتسامة بعد أن غادر الطبيب: ـ اهدئي حبيبتي.. اهدئي..

غمغمت سارة: ـ ليتني رحلت أيضاً

الممرضة: ـ استغفري ربك..

أطرقت سارة رأسها في يأس... تابعت الممرضة: ـ هل تودين الاتصال بأحد؟... عائلتك ربما؟؟

أجابت سارة بسخرية: ـ لا.. لا أحد.

أومأت الممرضة لها متفهمة وهمت بالرحيل ولكن سارة استوقفتها متسائلة بتردد: ـ أين عاصم؟

نظرت نحوها الممرضة بدهشة: ـ عفواً!!

سارة: ـ كيف جئت إلى هنا؟

الممرضة: ـ آه.. حسناً لقد جئتِ مع..

طرقات الباب قطعت حديثها..

كانت امرأة شابة ممشوقة القوام تنظر نحوهما في حدة..

عندها تابعت المرأة وهي تشير لهند: ـ حسناً.. لقد جئتِ معها.

خرجت الممرضة وتركتهما وحيدتان.. جذبت هند أحد المقاعد وجلست بزهو تتفحصها دون حديث.. شعرت سارة بالارتباك من تلك النظرات النارية الموجهة نحوها ولا تفهم فحواها...

قالت بصوت خفيض: ـ عفواً.. من تكونين؟

هند بملامح يشوبها الجمود: ـ اسمي هند.....

سارة: ـ وكيف جئتِ بي إلى هنا؟

هند: ـ مباشرة بعد أن سقطتِ على سيارتي من السماء!.. عفواً.. أقصد من عيادة حسين سلطان.. طبيب الفضائح..

قالت جملتها الأخيرة بابتسامة ساخرة...

صمتت سارة ولكن انقبضت ملامحها معبرة عن ضيق وخجل وحزن يأبى الرحيل

تابعت هند بغطرسة: ـ ولكن يبدو أنكِ نلتِ ما أردتِ في النهاية وفقدتِ ما حملتيه برحمك سفاحاً.

شعرت سارة باضطراب أنفاسها وعاودت عبراتها الظهور مرة أخرى.. من تكون تلك المرأة؟.. وبأي حق تحادثها هكذا؟. كادت أن تنفجر بوجهها ولكن خفت صوتها وهرب حديثها ولم تجد سبيلاً سوى عبراتها التي لا تمتلك سواها..

تابعت هند بنبرة ساخرة: ـ تبكين!!.. كان يجب أن تفكري ألف مرة قبل أن تُسلمي جسدك كجارية وتُحضرين للعالم من يسدد ثمن أخطائك.. من حسن حظه أنه رحل قبل أن يولد لأم مثلك.

لم تستطع سارة الاحتمال خرج صوتها ضعيفاً ينشد الصراخ: ـ كفى.. كفى..

هند: ـ ألقيتِ بنفسك أم دفعكِ أحدهم؟

سارة: ـ كفى.. اتركيني.. ليتني مِت... ليتنى رحلت عن هذا العالم البائس.

انفجرت سارة في بكاء مرير فآخر ما ينقصها تلك المتابهية التي ظهرت من العدم من أجل محاسبتها.. أما هند فبعد أن رمقتها ببأس قررت المغادرة.. لا تدري لماذا جاءت ولماذا سترحل!..

فبمجرد أن دخلت للغرفة ولمحت تلك الشقراء التي استوضحت ملامحها عن البارحة قررت مهاجمتها.. رأتها أمها التي تركتها قطعة حمراء صارخة أمام أحد دور الرعاية, بل رأت فيها نفسها عندما غرقت في لذة العشق منذ سنوات وكادت أن تلاقي نفس المصير تحت ستار ورقة حمقاء تصبح بها شبه زوجة..

لا تعلم هل كانت تلومها أم تلوم نفسها خاصةً مع عودته لعالمها من جديد...

عاد ليقذف بصخور الماضي فوق سطح نهر ظنت أن ركوده سيدوم لآخر العمر..

نهر عبراتٍ لم تذرفها لسواه..

سيف الأنصاري...

رحلت هند في النهاية.. غاضبة من نفسها ومن تلك المتباكية على الفراش ومن العالم أجمع.. كانت تترنح في خطواتها..

غاضبة.. متعبة.. ناقمة..

اصطدمت رغماً عنها برجل ضخم الجثة.. تبينت ملامحه ولكنه لم يستدر لها... تهاوت هي على أقرب مقعد تنشد الراحة أما هو فتخطاها متوجهاً بإصرار وبخطوت ثابتة نحو الغرفة في آخر الرواق... غرفة خطيئته..

كان هو أمامها بشحمه ولحمه وغضبه وجبروته وقسوته التي ظنت أنها اختبرت أقصى ما فيها.

أغلق عاصم باب الغرفة ونظر نحوها نظرة تحمل كل معاني الغضب.. ارتعدت فرائصها وهرب صوتها وتمكن الشحوب من بشرتها التي غادرتها الدماء فزعاً من ملامحه..

سحب مقعداً وجلس مجاوراً للفراش وبنبرة خافتة للغاية ولكن تحمل في طياتها كل معاني البأس قال: ـ سأجعلك تتمنين الموت

نظرت نحوه بجزع ثم تابعت: ـ ألم أتمناه بالفعل!

رمقها بحدة ثم امتدت أنامله لتخلل خصلات شعرها ليجذبها بقوة أطلقت منها صرخة من الألم رغماً عنها ثم تابع: ـ ولم تجدِ سوى عيادة الطبيب النسائي لتحققي أمنيتك الثمينة يا سارة!

سارة: ـ اتركني.. إنك تؤلمني.

عاصم: ـ حقاً!

قال عبارته ثم جذبها بقوة أكبر قاصداً إيلامها بشدة ليدفعها بعدها بقوة على الفراش ثم تابع: ـ أنتِ لا تستحقين سوى الألم.. وحتى الطلاق الذي توسلتِ من أجله لن تحصلي عليه.

انتفضت سارة بفزع: ـ مم.. ماذا؟!!.. ماذا تقول؟

عاصم ببأس: ـ بعد ساعة من الآن ستستجوبك الشرطة وستخبرينهم أنكِ حاولت الإنتحار بعد أن رفض الطبيب إجراء جراحة الإجهاض.. وسأتولى

أنا حفظ التحقيق.. حسين أخبرهم باسمك المستعار ولكنهم بالمشفى وجدوا بطاقتك الشخصية داخل ملابسك لهذا ستخبرينهم باسمك الحقيقي.

سارة: ـ ثم ماذا؟

عاصم: ـ ستخرجين بعد غد وسأبعث بأحدهم لاصطحابك للبلدة وسنخبرهم أنكِ تعرضتِ لحادث سيارة.

سارة: ـ ولكنك ذكرت شيئاً عن الطلاق؟

عاصم بتحدِ: ـ أي طلاق؟!.. لن يكون هناك طلاق!

سارة: ـ ماذا تقصد؟.. أبعد كل ما مررت به لن أحصل على الطلاق؟!

عاصم: ـ أنتِ لا تستحقينه.. لا تستحقي سوى الجدران البائسة بالبلدة وجحيم فُتنة وسأحرص بنفسي على ذلك.. صدقيني.

رمقته سارة بغضب وقالت بشجاعة: ـ سأحصل على الطلاق وأنت من ستضمن لي ذلك!... لا تنسَ أنك حصلت على ثمنه... عنوة.

تطاير الشر من عينيه واقترب منها كالفهد ليحتجزها على الفراش بين قبضتيه وتابع بنبرة غاضبة استشعرت نيرانها من أنفاسه الحارة: ـ ثمن!!.. هل ظننتِ أنكِ امرأة ولها ثمن؟!.. أستطيع أخذك الآن إن أردت وكل ليلة ودون ثمن!

لم تشعر في تلك اللحظات أنها تكره شخصاً مثلما تكرهه الآن... تكره ملامحه.. أنفاسه.. صوته..

استجمعت شجاعتها ورمقته بتحدي متابعة: ـ لا تجبرني على العودة.. سأخبرهم.. سأخبرهم بكل شيء

عاصم: ـ حقاً!.. بماذا ستخبرينهم؟.. أنكِ دعوتني لمنزلك في جنح الليل أم عن إغوائك الرخيص؟!

تبدلت نظرتها المتحدية بجزع وتمكن منها الذهول فرددت بارتجاف: ـ ماذا!!.. أنت.. أنت من...

عاصم: ـ ومن سيصدقك؟!

سارة: ـ حقير!

عاصم: ـ ستدفعين ثمن وقاحتك لاحقاً.

سارة: ـ أكثر مما دفعت؟!

عاصم باستهزاء: ـ أنتِ لم تختبري غضبي بعد.

خرجت نبرتها يائسة: ـ دعني أحصل على الطلاق وسأرحل مبتعدة عنكم جميعاً.

عاصم: ـ وكيف أضمن صمتك بعد ما حدث؟

سارة: ـ هل سأفضح حالي؟!

عاصم: ـ كدتِ تفعلينها منذ ساعات.

سارة: ـ لم أكن أقصد الفضيحة.. كنت فقط أود الخلاص.

عاصم: ـ لا أثق بكِ...

تركها وهم بالرحيل أوقفته متوسلة: ـ عاصم.. أرجوك..

رمقها بازدراء: ـ سيد عاصم....

خرج وتركها باكية تلعن حظها الذي أوقعها مع تلك العائلة منذ البداية.....

بعد أن اصطدمت بالرجل الغاضب تهاوت على أحد المقاعد القريبة تفكر في كلماتها اللاذعة للمسكينة بالداخل.. لمحته يدخل غرفتها.. تفكرت في ملامحه التي رأتها منذ قليل.. تبدو مألوفة..

زفرت بضيق وظلت تراقب الغرفة بإمعان.. بتساؤل عن شخصيته..

من يكون؟.. أخيها.. زوجها.. أم هو صاحب الخطيئة؟...

تمكن منها الفضول في النهاية فاقتربت من الباب المغلق..

التقطت آذانها أهم ما في الحديث.. عبارات منها عن ما سلبه عنوة وعبارات منه عن وعيد بعقاب أبدي..

ابتعدت عن الباب مسرعة عندما لمحت مرور إحدى الممرضات وبعدها بقليل خرج....

اصطنعت الحديث بالهاتف منتظرة رحيله ثم توجهت نحو الغرفة... كانت سارة ما تزال باكية على الفراش.. متكورة كجنين ببطن أمه وخصلاتها الشقراء مبتلة بأثر فيضان عبرات ثائر لا ينوى السكون..

رمقتها هند بحزن ثم قالت دون مقدمات: ـ متى ستستجوبك الشرطة؟

رفعت سارة رأسها ونظرت نحوها في ذهول: ـ ماذا؟!

هند: ـ أقول متى ستستجوبك الشرطة؟

جففت سارة عبراتها وخرجت نبرتها متحشرجة: ـ ربما بعد ساعة.

هند بنبرة هادئة: ـ حسناً.. سأمر عليكِ في المساء ونرحل!.

تيبست ملامح سارة للحظات غير مدركة لكلام هند ومقصدها..

تابعت هند بنفس النبرة الهادئة:

ـ ترحلين معي أم ستنتظرين سجن البائس الذي زارك منذ قليل؟!

سارة: ـ هل.. هل سمعتِ؟

هند: ـ سأتحدث مع الطبيب لأرى امكانية خروجك ولو لمشفى آخر.

صمتت سارة لوهلة ثم تابعت: ـ ولكنه لن يتركني.. سيعيدني بالقوة.. أعلم ذلك.

نظرت نحوها هند بإمعان ثم تابعت بثقة: ـ القوة تنتصر فقط على الضعف لكنها قطعاً تتحطم أمام العزيمة..

ابتسمت هند بعدها باقتضاب بعد أن ربتت على قبضة سارة المرتعشة التي نظرت نحوها بأمل الغريق المتشبث بطوق النجاة.. تابعت بعدها: ـ أنا لا أعلم تفاصيل روايتك ولا أهتم بمعرفتها.. ولكنني سأساعدك على التحلل من قيد هذا الرجل على قدر استطاعتي.

نظرت نحوها سارة بعمق ثم تابعت: ـ لماذا؟

هند: ـ عفواً!

سارة: ـ لماذا ستساعدينني؟

زفرت هند ببطء وتوجهت ببصرها نحو النافذة وأخرجت لفافة تبغ نثرت دخانها في الفراغ أمامها وتابعت: ـ هل تودين تلك المساعدة أم لا؟

سارة بنبرة مرتجفة: ـ أودها.

هند: ـ حسناً.. كفاكِ طرح أسئلة.

سارة: ـ ألا تودين معرفة حقيقة ما حدث؟

هند: ـ أخبرتك.. لا أهتم!

ـ ولكن أنا أهتم

نظرت كلتاهما لمصدر الصوت ليجدا فتاة متوسطة الطول تقف بباب الغرفة

شعر قصير.. ابتسامة واسعة.. ذقن مدبب ونظرات ماكرة تجولت بين كلتيهما بإصرار

ريم الشاذلي

الفصل الخامس

غادرت الغرفة بخطوات غاضبة .. كورت قبضتها في حنق وضربت بها الحائط بعد أن ألقت حقيبتها على الأرض في مشهد درامي أثار فضول من حولها بالرواق.

اقتربت منها إحدى الممرضات تسألها بلطف: ـ يا آنسة.. هل أنتِ بخير؟

زفرت بضيق ثم أخرجت هاتفها المحمول بعد أن عقصت خصلاتها القصيرة إلى الوراء ثم تابعت بنبرة متحدية: ـ رامز.. أين أنت؟

أجابها رامز بدهشة من اتصالها المفاجئ: ـ بالمكتب

ريم: ـ حسناً أريدك أن تأتي للمشفى!

رامز: ـ أووووه.. يبدو أنكِ تبلين بلاءً حسناً

خرجت نبرتها ساخرة: ـ فوق ما تتخيل!

رامز: ـ حسناً.. أعطني العنوان.

أخبرته بالعنوان ثم توجهت بنظراتها الساخطة نحو الغرفة المغلقة حيث توجد تلك المغرورة التي رمقتها بازدراء بمجرد أن دلفت من الباب, ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل منعت مصدرها الثمين من الإدلاء بأي معلومات بعد أن نعتتها بالفضولية الباحثة عن الفضائح, محذرة الشقراء من التحدث معها أو غيرها.. وانتهى الأمر بطردها من الغرفة دون أن تحصل

على كلمة واحدة من المنكمشة على الفراش التي أشاحت بوجهها عنها وانتابها الهلع بمجرد أن علمت أنها صحفية..

هلع أثار داخلها فضول هائل عن شخصية تلك المرأة والقصة خلفها.

أطلقت زفرة حارة فعلى ما يبدو الأمر لن يكون يسيراً كما تمنت.. حسناً.. هي إذاً مهنة البحث عن المتاعب..

هكذا حدثت نفسها قبل أن تتوجه للكافيتريا لشرب بعض الشاي الساخن وانتظار رامز.

كان المكان تقريباً خاوياً, فقط رجل يبدو في عقده السادس يرتشف قهوته بيأس وآخر يتحدث بجدية لامرأة بجانبه لم تكف عن قرقعة أصابعها بتوتر ملحوظ..

أشاحت بوجهها عنهم ثم قضمت قضمة من شطائر الجبن أمامها, مضغتها بتلذذ مع رشفات متقطعة من كوب الشاي الساخن..

لقيمات متواضعة وكافيين شعبي كانت تحتاج كليهما بشدة فقد خرجت من الصباح الباكر دون أن تتناول شيئاً, كالعادة.

أنهت طعامها وتفرغت لمراقبة عامل البوفيه الهزيل وهو يتحدث بهمس إلى إحدى الممرضات التي كانت بدورها تضحك بشدة كلما قذف في أذنيها بعباراته الهامسة تزامناً مع بعض اللمسات الغير عفوية ليديها المستقرتين بإصرار فوق الطاولة أمامه ربما طلباً للمزيد!

كانت ضحكاتها رنانة أثارت انتباه العجوز فترك قهوته ليراقبهما بسخط وتوقف الرجل الآخر عن قذف العبارات الجادة بأذن زوجته ليرمق الثنائي

العاشق بازدراء وعلى الرغم من ذلك لم تكف الفتاة عن الضحك.. كانت فتاة جميلة على الرغم من حمرة الشفاه الفاقعة التي طغت على ملامحها وربما على أسنانها أيضاً وحجابها الغير مهندم الذي طوقت به رأسها الصغير ورداءها الذي على ما يبدو يسعى جاهداً مثابراً نحو اللون الأبيض.

انتهت فقرة العشق البالية بوداع مؤقت وتخطت الممرضة ريم التي كانت ما زالت ترتشف مشروبها الساخن وتراقب ساعتها في انتظار رامز..

عادت الفتاة بضع خطوات إلى الوراء وخرج صوتها رفيعاً مشبعاً بنكهة قوية تميزها أنف ريم الصحفية من بين مئات النكهات..

نكهة الفضول.

الفتاة: ـ آنسة.. هل أنتِ بخير الآن؟

ريم: ـ نعم!!

الفتاة: ـ لقد كنتِ غاضبة جداً منذ دقائق عندما خرجتِ من غرفة رقم 88

انتبهت ريم وتذكرتها.. نعم هي من مرت بجانبها هناك بالرواق وسألتها إن كانت بخير بدافع الإهتمام أم ربما الفضول..

ابتسامة رضى علت ثغرها قبل أن تجيبها بهدوء: ـ نعم أنا بخير الآن.. أشكرك.

الفتاة:

ـ حسناً جيد.

ريم: ـ اجلسي يا..

الفتاة: ـ حنان

ريم: ـ اجلسي يا حنان.. دعيني أدعوكِ لكوب من الشاي.

لم تتردد الفتاة للحظة.. جلست على الفور وظلت تتابع معشوقها بابتسامة وهو يضع أمامها الكوب بغيظ, تابعت ريم بثقة وهي ترمق خنصرها الأيمن المزين بحلقة ذهبية متواضعة: ـ خطيبك؟

أجابت حنان وما زالت نفس الابتسامة الحمقاء تعلو ثغرها: ـ نعم.

ريم: ـ ستتزوجين قريباً؟

نظرت حنان لخنصرها برضى وتابعت: ـ بعد خمسة أشهر.

تابعت ريم بمكر: ـ ربما وقتها تتركين العمل هنا بعيداً عن غضب المرضى وزوارهم.

حنان: ـ ليتني أستطيع ولكن نحن نحتاج للمال ربما.. إلى الأبد.

ريم: ـ عزيزتي الجميع يحتاج للمال أنتِ وأنا وأيضاً من تسببت بغضبي.

قالت حنان بتردد: ـ المريضة؟

لمعت عيون ريم وتابعت: ـ بل الأخرى!

صمتت حنان لوهلة وتابعت: ـ غرفة غريبة كل من يدخلها يخرج غاضباً!

ريم بتحفز: ـ هل أغضبت الغرفة أحد غيري؟

استندت على المقعد وتابعت بابتسامة ساخرة: ـ يبدو أنني فقدت تميزي!

ضحكت حنان متابعة: ـ الآنسة الأخرى التي أغضبتك خرجت قبل ذلك غاضبة بدورها ومن قبلها الرجل.

ريم وقد تمكن منها الإهتمام وشعرت بقيمة هذا اللسان الثمين المتكلم أمامها: ـ رجل!.. أي رجل؟!.. زوجها؟

حنان: ـ لا أعتقد.. فهو لم يتحدث مع أحد عنها, ولم يطلب مقابلة الطبيب.. فقط مر من أمامنا سريعاً متجنباً النظر لأحد وتوجه للغرفة.. وخرج بعدها غاضباً بدوره ولكن..

ريم: ـ لكن ماذا؟

حنان: ـ عندها تبينت ملامحه وفهمت لماذا حرص على إخفاء وجهه عند قدومه.

ابتسمت ريم بمكر: ـ هل تقصدين أنه شخص مشهور أم ربما هو حسين سلطان الطبيب؟

حنان: ـ لا.. لا.. هو ليس بطبيب هو أحد هؤلاء الذين يظهرون بنشرات الأخبار!

برقت عينا ريم باهتمام واقتربت من حنان متابعة: ـ نشرات الأخبار!.. هو رجل ذو منصب إذاً؟

حنان: ـ ربما.. الحقيقة لا أعلم اسمه.

ريم: ـ كيف يبدو؟

رمقتها حنان بمكر: ـ آنستي.. لما لا تسألين صديقتك؟

ريم: ـ صديقتي!!

حنان: ـ المريضة.

ضحكت ريم ساخرة: ـ هي ليست صديقتي بل أنتِ!

حنان بدهشة: ـ أنا؟!!

ريم: ـ نعم عزيزتي.. أنتِ الآن أصبحتِ أعز أصدقائي!.. ربما يجب علي إذاً أن أحضر لكِ هدية الزفاف!

ضحكت حنان متعجبة وتابعت: ـ زفاف!!

ريم بثقة: ـ عروس جميلة مثلك تستحق أن تنشر صورتها بقسم التهاني لدينا بالصحيفة.

تهللت أسارير الفتاة وتابعت: ـ حقاً!.. صورتي أنا وخطيبي بالصحيفة!!

ريم: ـ بالطبع.. ولكن..

حنان: ـ لكن ماذا؟

ريم: ـ كنت أتمنى أن تتذكري اسمه أو ربما.. ملامحه؟!

دون تردد خرجت اجابتها: ـ طويل وله شارب كث وملامح قاسية ويبدو أنه تعدى الأربعين من العمر.

ابتسمت ريم برضى لوهلة ثم تبدلت ملامحها وقطبت جبينها متابعة: ـ غير كافٍ.. كنت أتمنى أن أضع لكِ صورتين.. ربما الخطوبة الآن والزفاف بعد ذلك!

زفرت حنان بيأس ثم تابعت: ـ انتظري..

هرعت مسرعة نحو خطيبها ثم عادت وخيبة الأمل تعلو ملامحها: ـ خطيبي أيضاً لا يستطيع أن يخمن من وصفي ولكنني أتذكره.. لقد رأيته منذ أيام يتحدث بأحد البرامج الحوارية.

قاطعتها ريم باهتمام: ـ أي برنامج؟

حنان: ـ برنامج حديث العاصمة.

ريم: ـ هل تتذكرين بأي يوم؟

أغمضت عينيها في محاولة للتركيز ثم تابعت: ـ نعم كان يوم الإثنين أتذكر جيداً.

علت ابتسامة قوية ثغر ريم وتابعت ببهجة وهي تمسك برأس حنان الصغير: ـ أنتِ أفضل ما حدث لي اليوم!

نهضت على الفور تنهي حسابها وتستعد للرحيل

تمتمت حنان بتساؤل: ـ ماذا عن الصورة؟

ريم بابتسامة واثقة: ـ ستحضرينها لي غداً على هذا العنوان..

تركت ريم الممرضة الثرثارة تحلم بصورة زفافها المنشورة على إحدى الصحف وانطلقت هي نحو حلمها المنشود..

السبق الصحفي الذي طال انتظاره

زفرت هند بضيق بعد أن قامت بطرد ريم من الغرفة ثم تابعت بنبرة حانقة: ـ أود أن أعلم أي مشفى هذا الذي يترك غرف المرضى مشاعاً لكل عابر سبيل!

كانت سارة تراقبها بقلق ومئات الأفكار تعبث بعقلها..

صحافة!!

آه لو علم عاصم بالأمر.. سيقتلها على الفور وليته يفعل!

ألم تزهد هي الحياة منذ ساعات؟!

رغماً عنها عادت العبرات للظهور.. شلال من المياه المالحة المذاق لا ينوي النضوب

رمقتها هند بغضب ثم تابعت: ـ ألا يوجد لديكِ سوى البكاء!

نظرت سارة نحوها بحيرة..

ما بال تلك المرأة!!..

طوق نجاتها التي تشبثت به في لحظة تشدو الحياة, هو بحر متقلب بحد ذاته فبلحظة هي قاسية تقذف سُم الكلام ولحظة أخرى تبسط يدها من أجل مساعدة دون حساب!.

لم تنتظر هند إجابة سارة خرجت باستهجان منادية على أحد الممرضات ولقنتها درساً قاسياً ليس فقط عن خصوصية المريض, بل أيضاً عن إهمال هذا المشفى الأحمق الذي يسمح بزيارات عشوائية لحالة وصلت نتيجة سقوط من نافذة وحتى قبل أن تستجوبها الشرطة!

خرجت الممرضة متعثرة معتذرة حمراء غاضبة خجولة هاربة كيمامة مذعورة أمام هذا الوحش الكاسر المسمى هند..

خرج صوت سارة في النهاية ضعيفاً كعادته متسائلاً: ـ لقد لبت أوامرك كخادمة مطيعة ودون اعتراض.. كيف تفعلين هذا؟!

رمقتها هند بدهشة فتلك الشقراء تبدو ساذجة لأقصى الحدود ولا تدري لماذا ورطت نفسها معها..

زفرت متابعة: ـ إنها موهبة!

صمتت سارة بابتسامة مقتضبة.

تابعت هند بنبرة أكثر هدوئاً: ـ لأنني أتحدث بلغة المال يا سارة.

سارة: ـ عفواً!!

هند: ـ ماذا تظنين؟!.. أنا من دفع تكاليف المشفى!

قبل أن تنطق سارة تابعت هند مسرعة وهي تتجه لخارج الغرفة: ـ لا تتحدثي مع أحد وخاصة تلك الفضولية صاحبة السبق الصحفي.. سأعود في المساء.

خرجت هند مسرعة وتركتها تحدق في الفراغ وعلى وجهها ابتسامة ساخرة ..

فتلك الغريبة تساعدها دون مقابل.. ومن ابتاعها خادمة دون أجر لعائلته منذ أعوام استحلها لنفسه دون ثمن!.

استقر بسيارته بعد أن صفع بابها بغضب كاد يجذب انتباه من حوله..

أحمق!.. أهذا ما تهتم به؟!..

وجودك بالمشفى كان خطأ قاتل بحد ذاته.. ماذا إن تعرف عليك أحدهم؟

حديث نفسٍ لا ينبض سوى بالحنق وقبضةٍ ابيضت ثناياها على المقود حتى كادت أن تخلعه, وأفكاراً تحمل أطناناً من الغضب وهواجس تكاد أن تودي بعقله....

لم يتصور أن ليلة واحدة من المتعة ستقوده نحو كل هذا العبث, على قدر ما اشتهاها على قدر ما يكره تلك اللحظة الآن.. حيث تمكن منه الضعف وتوجه نحوها غير مبالياً بشيء سوى تلك الرغبة بداخله

استند بجبهته الصلبة على المقود في محاولة لتنظيم أفكاره المبعثرة بين جوانب عقله

فهناك سارة بكارثة سقوطها من النافذة, وهناك أيضاً زوجته وأبناءه, والأدهى عائلته التي يوجد منهم من ينتظر هفوة مثل تلك لاقتناص الفرصة والإزاحة به والاستحواذ على مكانته...

والأسوء من هذا مستقبله الواعد في الحزب وعضوية البرلمان وقد يفقد كليهما مع فضيحة كتلك, هذا بجانب أعماله التي ستتأثر بالطبع إذا انتشر الخبر.

لا.. لا.. لن يكون هناك خبر لينتشر من الأساس..

فسيتكفل بغلق المحضر وكأنه لم يكن, ومساعد الوزير سيؤدي تلك الخدمة على أحسن وجه..

وهي.. هي سيحتفظ بها في منزل فُتنة فترة قصيرة حتى تهدأ الأمور ثم يقذف بها خارج حياة تلك العائلة إلى الأبد.

طلاق وحفنة من الأموال مع وظيفة بمكان بعيد..

نعم ستكون تلك هي خطته فتلك المرأة كانت خطأ أحمق وكل ما عليه الآن هو إصلاحه بهدوء.

ابتسم رامز لريم عندما وجدها بانتظاره أمام المشفى.. كان يبدو عليها الضيق وهي تنظر لساعتها من لحظة لأخرى

اقترب منها معتذراً: ـ آسف تأخرت.

زفرت براحة: ـ أخيراً!..

رامز: ـ الطريق مزدحم للغاية.. ولكن ها أنا هنا تحت أمرك.

ريم بعملية دون أن تعير ابتسامته اهتماماً: ـ جيد.. رامز أريدك أن تلتقط الآن بعض الصور للمشفى, ثم تتجه لعيادة حسين سلطان وتلتقط لي صور أخرى للعيادة وللشارع.

رامز: ـ حسناً.. وماذا عن مصدرك هل توصلتِ لشيء؟

تركته محاولة إيقاف إحدى سيارات الأجرة وهي تتابع: ـ لا تُذَكِرني!

رامز: ـ سترحلين الآن؟.. دعيني ألتقط الصور ثم أدعوكِ لكوب من الشاي.

ريم: ـ لقد نلت حصتي من الشاي اليوم وقد كانت مميزة للغاية!

كانت تبتسم بمكر..

تابع: ـ تبدين سعيدة.. يبدو أنكِ توصلتِ لشيء؟

ريم وقد نجحت أخيراً في الحصول على سيارة أجرة: ـ في طريقي نحو التوصل لشيء بالغ الأهمية.. إلى اللقاء.

رامز: ـ أراكِ بالجريدة؟

ريم: ـ غداً.. أنا عائدة للمنزل الآن.

قفزت بجسدها الضئيل داخل العربة وظل هو يراقبها كعادته حتى اختفت السيارة بين زحام دائم اعتاده ربما منذ أن وُجد بالحياة كما اعتاد أن يعشقها في صمت.

منزل يحمل بين طياته امرأتين.. من يراهما لا يصدق أنهما أم وابنة!.

الابتسامة الواسعة وحمرة الشفاه القانية دائماً ما تظهر على شفتي الأم عندما تستمع للجملة التقليدية..

"تبدوان كأختين!"

وبنفس الوقت وعلى شفاه أخرى لم تعرف الألوان الإصطناعية لها طريق تتراقص ابتسامة ساخرة من كل شيء وخاصة..

أمها!

كانت الساعة قد قاربت على الثانية مساءاً وسلوى كعادتها نهضت لتوها من الفراش, تحسست بشرتها في المرآة بضيق فقد غفت متعبة ليلة أمس ونسيت

مرة أخرى وضع مستحضر التجميل الليلي على بشرتها.. لا تدري ماذا أصابها فقد تمكن منها النسيان في الآونة الأخيرة, هل للأمر علاقة بعامها الخمسين!..

زفرت بضيق..

أنفاس حارة تحمل في طياتها ذكرى سنوات من العمل والجمال والحب والزواج وابنة تكره كل ما له علاقة بذلك..

انتبهت لصوت الباب فخرجت من غرفتها لتجد ريم قد قدمت مبكرة من عملها

خرج صوتها رقيقاً ناعساً: ـ حبيبتي.. عدتِ مبكرة!

ريم دون اكتراث: ـ سأنهي بعض الأعمال من المنزل أحتاج للتركيز.

ابتسمت سلوى باقتضاب لابنتها وتابعت: ـ جيد سأعد لكِ طعام الإفطار!.

ريم: ـ لقد تناولت فطوري ولا تشغلي نفسك بإعداد الغداء سأطلب المطعم عندما أشعر بالجوع.

لم تنظر ريم لأمها لتتلقى الرد فقط دخلت غرفتها وأغلقت الباب وأكملت الجملة لنفسها بغضب:

"سأطلب المطعم عندما أشعر بالجوع.. كالعادة".

كالعادة هي وحدها حتى اعتدات فأصبحت لا تبالي,

لا تبالي بأبٍ خرج من حياتها وحياة أمها قبل أن تُبصر هي ضوء الحياة, لا تبالي بأمٍ تبدو كأخت كبرى وتتصرف كأخت صغرى؛ أكثر ما يهمها هو

ملمس بشرتها في الصباح والتحايل على خطوط الزمن البائس في المساء, لا تبالي بنساء اعتدن العبث بأجسادهن وملامحهن من أجل أن يبدون كمنحوتات من الشمع فقط لإرضاء رغبات تلك الكائنات البشرية المسماة الرجال, لا تبالي بأن أمها ليست فقط أحد تلك النسوة بل هي من تتولى بنفسها تجميلهن دون هوادة من خلال هذا الكيان الذي سلبها الأم وأهداها الأنثى..

"صالون تجميل سلوى"!!

لا تبالي بسلوى تلك الجميلة التي سلبت منذ سنوات لُب رجل أصبح بعدها أبوها الغائب عنهم العائد لأسرته الأخرى بعد زواج لم يدم سوى لأشهر, وظلت هي وحيدة مع أم ما زالت تظن أن جسد الأنثى هو الصفقة الرابحة دون منازع!!

لا تبالي ولن تبالي بأحد سوى ريم!

زفرت بضيق ثم تخلصت من حذائها وملابسها التي كانت قد اتسخت بالفعل من مقعد سيارة الأجرة المتهالك..

آه يجب أن تكتب مقالاً لاذعاً عن تلك العربات المتهالكة المنتشرة في شوارع المحروسة ويكون عنوانه "غير مصرح للإستخدام الآدمي!" ولكن هيهات فرئيس التحرير لا يهتم سوى بالأخبار المثيرة وخاصةً إذا كانت معبقة بالعطر السحري..

"البحث عن فضيحة"

على الرغم من برودة الطقس إلا أنها فضلت المكوث بملابس خفيفة واستعانت بالمدفأة..

نظرت لجسدها بمكر وتذكرت عبارات أمها ونبرتها الحانقة وهي تخبرها أنها تمتلك جسداً جميلاً مثلها ولكنها لا تجيد الإعتناء به

خرجت نبرتها ساخرة:

"أنا أعتني بما هو أهم يا مدام سلوى.."

جلست على الفراش دون اكتراث وبدأت تجري بعض الاتصالات وبعض البحث على الإنترنت..

المطلوب معلومات عن ضيف حل ببرنامج مسائي شهير منذ أيام.. سياسي على ما يبدو, لم يستغرق الأمر بضع دقائق وكانت المعلومة في متناول يدها..

ظلت تنظر لشاشة الحاسوب بعيون لامعة.. حدقتها بدت كزجاج مرآة تتراقص بداخله صورة لرجل كان مفاجأة سارة بكل ما في الكلمة من معنى

نعم..

فآخر ما توقعته أن يكون صيدها الثمين هذا الرجل..

الحصان الأسود كما أطلقوا عليه في الآونة الأخيرة

"عاصم الرازي".

الفصل السادس

الحياة..

هذا العالم المتهادي حولنا, تأرجح بين الأخذ والعطاء, الفرح والشقاء, النجاة والهلاك..

خطوات حائرة وأفكارٌ مبعثرة

أنفاس مرتعدة وبشرة شاحبة

روحٌ غائبة وجسد يصطنع الحضور

هي..

بقايا امرأة

رجفة, اجتاحت جسدها دون هوادة.. أبصرت أناملها زرقاء, تحسست بشرتها فقابلت برودة الثلج, تجاسرت وأسندت قبضتها المرتعشة فوق صدرها وعندها لاقت قطار النبضات المذعور بين ضلوعها..

فبرغم بؤس الماضي وقتامة الحاضر إلا أن نكهة المجهول تحمل رهبة خاصة, طاغية على باقي النكهات.

أخرجتها نبرة هند الحادة من شرودها: ـ سارة.. هيا بنا.

تبعتها طائعة.. وكأنها محترفة في الطاعة؛ طاعة نوال, طاعة فُتنة, طاعة عاصم, والآن طاعة هند.

فمنذ أن قدمت لها عرضها السخي وهي تخطو خلفها كدمية مذعونة, حتى أنها لم تسألها عن شيء, فقط تحركت في خضوع.

استقرت هند بالسيارة ثم رمقتها بتفحص وتابعت: ـ اركبي..

السيارة.. تلك الكتلة الحديدية التى اعترضت طريق هلاكها دون دعوة, والآن يبدو أنها ستكون وسيلتها لطريق آخر.. نحو المجهول.. ظلت متجمدة لوهلة تتجول مقلتيها بحيرة حولها, تابعت هند بنبرة أكثر حدة: ـ لن أنتظر اليوم بأكمله!

استقرت بجانبها وخرجت نبرتها مرتجفة: ـ أشكرك.

هند دون اكتراث: ـ على ماذا؟

سارة: ـ على مساعدتك وأموالك.

هند غير مبالية: ـ حسناً.

أخرجت هند لفافة من التبغ وتابعت وهي تشعلها: ـ أرجو أن لا تستائي من الدخان فأنا أعيش بداخل تلك السحابة طوال الوقت!

ابتسمت سارة باقتضاب وانكمشت بمقعدها دون حراك, لاحظت هند القلق البين على ملامحها..

ابتسمت ساخرة وتابعت: ـ لا تقلقي فأنا لا أستسيغ لحوم البشر

ظلت سارة تنظر نحوها بشرود لوهلة وكأنها غير مدركة لمزحتها ثم ابتسمت بحرص ودون أن تنبس بشفة..

ظلت هند ترمقها دون حراك, حتى الآن لا تدرك سر اهتمامها بتلك المرأة!..

كيف تراها؟.. هل تراها أمها أم ربما نفسها بطريق آخر؟

زفرت بيأس ثم تابعت بنبرة تحمل الاستهزاء: ـ أنتِ جميلة وحمقاء.. وبقدر ما يبدو هذا مغرياً اطمئني فلم يكن لدي يوماً اهتماماتٌ خاصة بالنساء.. وحالياً الرجال أيضاً!

أنهت عباراتها ولم تنظر نحوها لتتبين ردة فعلها فقط انطلقت بالسيارة مسرعة, أما سارة فقد عادت مرة أخرى لمراقبة دقات قلبها المتقافزة فما ذكرته هند لم يمر بخيالها ولو للحظة والآن أصبح أحد مخاوفها!

كانت المسافة للمنزل قريبة, وجدت سارة نفسها أمام بناية عالية ورجل سمين أتى مهرولاً في جلبابه عندما لمحهما, خاطب الحارس هند مرحباً وصرفته هي باقتضاب..

لم تنتبه سارة لنظرة الفضول التي وجهها الحارس نحوها فهي لا تعلم أنها أول من يخطو منزل هند منذ أن سكنت بالبناية, فمنزل هند لم يستقبل يوماً زوار.. سارة هي أول الزائرين, بل شرارة البداية.

دلفت للشقة في خجل لا ترقب سوى قدميها, ألقت هند بحقيبتها جانباً ثم خلعت حذاءها ذو الكعب العالي جداً وتهاوت على الأريكة الوثيرة, نظرت نحو سارة بلامبالاة ثم قالت بلهجة آمرة: ـ كفاكِ شروداً وألقي جسدك المرهق ببقعة ما.

خطت سارة بتردد وهي تتفحص المكان حولها؛ كان مدخل الشقة مزين بسجادة سميكة قرمزية اللون وعلى أحد الجوانب مرآة كبيرة ممتدة من الأسفل للأعلى ومحاطة باطار متعرج فضي الصبغة..

رأت نفسها بالمرآة؛ امرأة صغيرة.. ضعيفة.. معطف قاتم اللون يحيط بجسدها الصغير ووشاح مزركش ملفوف حول رأسها بعناية لم تمنع تناثر بعض خصلاتها الشقراء حول جبهتها, كان مظهرها يبدو شديد التواضع بجانب تلك المرأة الجميلة المضجعة على الأريكة أمامها؛ ترتدي تنورة قصيرة بلون كريمي تكشف بخبث عن ساقيها المرمريتين وقميص حريري يبدو رائع المظهر عليها, خصلاتها السوداء كانت مصففة بعناية ومنسدلة بسلاسة على كتفيها, معطفها الأنيق ملقى بجانبها على طاولة عريضة تحمل العديد من المجلات المبعثرة دون ترتيب, الأريكة بلونها الأحمر القاني كانت متناغمة ليس فقط مع هند الجميلة المسترخية عليها بل أيضاً مع الجدار القاتم اللون خلفها والذي تزين بلوحة غريبة لا تحمل سوى خلفية بيضاء وبعد الخطوط الغير منظمة المتشبعة بدرجات مختلفة من اللونان الأحمر والرمادي, في أحد الجوانب كانت توجد بعض الرفوف المتوازية واللتي تحمل العديد من الكتب باللغتين العربية والإنجليزية, وعلى الجانب الآخر زوج من الستائر الشفافة يمهدان لمدخل المطبخ, بقرب الأريكة كان هناك مقعد واحد من النوع الهزاز, استقرت سارة عليه بتردد ثم تابعت بصوت خافت: ـ أشكرك.

هند دون اكتراث بالنظر نحوها: ـ مرة أخرى!

قطبت سارة جبينها قليلاً ثم أومأت رأسها بابتسامة متحيرة, زفرت هند بضيق ثم تابعت وهي تشير لإحدى الغرف: ـ هذه ستكون غرفتك.. بإمكانك التوجه لها الآن لتنالي قسطاً من الراحة فتلك هي تعليمات الطبيب.

نهضت سارة لتتوجه نحو الغرفة بارتباك وهي تتمتم: ـ حسناً.

ما إن دلفت سارة للغرفة وأغلقت الباب بهدوء حذر حتى أسندت هند رأسها بيأس محدثة نفسها:

"يا الهي ماذا أفعل بنفسي!.. تلك الفتاة تبدو بائسة حتى النخاع"

توجهت هند لغرفتها وما لبثت دقائق حتى خرجت تحمل في يدها بعض الملابس, طرقت باب الغرفة منادية سارة وما أن دلفت حتى وجدتها تجلس بسكون على حافة الفراش تتفحص الفضاء حولها بشرود..

رمقتها هند بشفقة ثم تابعت: ـ ستحتاجين بعض الملابس للنوم..

وضعت هند الملابس بجانبها ثم تابعت بنبرة أكثر رقة: ـ هيا.. بدلي ملابسك وأنا سأطلب طعام العشاء.

سارة: ـ أشكرك لا داعي فأنا سأنام على الفور.

تابعت هند وكأنها لم تستمع إليها: ـ أتفضلين الطعام الصيني؟

حركت سارة كتفيها بحيرة ثم أردفت: ـ أنا لا أعلم ما هو الطعام الصيني!.. فأنا لم أتذوقه قبل ذلك.

هند: ـ سيعجبك.. بضع النكهات المتداخلة من الحار والحلو.. ارتدي ما يعجبك, ولا تقلقي فالتدفئة مركزية.

لم تعِ سارة فعلياً ما تقصد هند إلا عندما لمحت المنامة الرقيقة التي تركتها بجانبها على الفراش بقماشها الحريري والحمالات الرفيعة الغير متناسبة بالمرة مع الطقس المعتاد في هذا الوقت, عندها أدركت ما عنته هند بالتدفئة المركزية.. ولكن لم يكن الطقس هو مشكلة سارة الوحيدة مع الملابس, فهي لم تعتد ارتداء تلك الملابس من قبل فحياتها في الآونة الأخيرة كانت منقسمة بين منزل فُتنة حيث تخفي جسدها أغلب الوقت تحت جلباب واسع وفي منزلها حيث أهملت غلالاتها المتواضعة مع غياب زوجها الدائم, والمرة الوحيدة التي ارتدت فيها شيئاً مميزاً هي تلك الليلة عندما أجبرتها آية على الرقص لينتهي بها الأمر بعد ذلك بأحضان عاصم الرازي..

كان البديل أمامها فستاناً قطنياً قصيراً فاضطرت لارتداء المنامة الرقيقة وخرجت من الغرفة بعد أن سترت أكتافها العارية بوشاحها المزركش..

نظرت نحوها هند بدهشة قائلة: ـ تشعرين بالبرد!

سارة بخجل: ـ لا.. أنا فقط..

أردفت هند: ـ تشعرين بالخجل؟!

سارة: ـ آسفة.. لست معتادة على هذا النوع من الملابس.

هند: ـ ولكنكِ متزوجة!

ابتسمت سارة بأسى: ـ نعم.

هند: ـ للأسف ملابسي كلها على تلك الشاكلة, ولكن غداً سأبتاع لكِ بعض الملابس على ذوقك.

نظرت نحوها سارة بتأثر وقد تمكنت العبرات من بريق عينيها, تابعت هند: ـ لا تقولي أنكِ ستبادرنني بنفس السؤال!

سارة: ـ وهل أملك غيره؟!

هند بنبرة بطيئة: ـ لماذا أفعل ذلك؟!

أومأت سارة رأسها بالإيجاب, زفرت هند بيأس ثم نظرت نحو سارة بتمعن وقالت: ـ لماذا قفزتِ من النافذة؟

تيبست ملامح سارة, ارتجفت شفتاها وزاغت عيناها وكأنها انتقلت دون وعي لليلة الحادثة, بل تلك اللحظة القاتمة التي مرت على قلبها بهمس شيطان وتوجهت بخطى واثقة نحو الموت..

تابعت هند بعد أن أطلقت زفرة حارة: ـ هناك بعض التساؤلات يُفضل أن نتركها دون جواب!

رمقتها سارة بحيرة قائلة: ـ ولكن لماذا؟

هند: ـ ربما لأننا لا نعرف اجابتها بعد..

تنهدت سارة بأسي ثم أردفت بعد لحظة من التفكير: ـ ولكن هناك أمراً هاماً يجب أن أخبرك به..

هند بضيق: ـ أخبرتك.. لا أهتم.

سارة: ـ وأنا لا أستطيع المكوث هنا قبل أن أخبرك.

هند: ـ تخبرينني عن ماذا؟

سارة: ـ عن الرجل بالمشفى.. يجب أن تعلمي من يكون.

هند بلامبالاة: ـ لا يعنيني من يكون!

زفرت سارة ببطء ثم تابعت وقد تحجرت مقلتيها بيأس: ـ ربما سيعنيكِ.. الرجل هو عاصم الرازي.

عاصم الرازي

ذكر في عقده الرابع.. الطول مائة وثمانون سنتيمتر, الحالة متزوج ويعول.. تخرج من كلية التجارة عام 1991 وبعد فترة بسيطة تولى إدارة أعمال العائلة التي تمتلك آلاف الفدادين بمحافظة الشرقية, ولكن ابتسمت الحياة بحق لهذا الرجل عندما استطاع منذ سنوات المرور من البوابة السحرية نحو برلمان النظام الحاكم, وبدهاء استطاع التقرب لأكثر الرجال نفوذاً بالدولة وأنشأ مجموعة الرازي الإستثمارية التي أصبح لها صدى واسع في سنواتٍ قليلة ومؤخراً لازمه لقب الحصان الأسود بعد أن تكاثرت الأقاويل حول منصبه القادم وأين سيكون!

تمددت بيأس على مقعدها الدوار وهي تعيد قراءة الأوراق بين يديها, عاصم الرازي..

سبقها الصحفي الذي قلب عالمها بين ليلة وضحاها, فمنذ أن أنارت حروف اسمه شاشة حاسوبها غادر النوم عينيها تقريباً..

كانت تتمنى فضيحة ربما لطبيب وفتاة حمقاء تحصل منها على ما تريد من معلومات ولكن الآن الأمر اختلف..

ابتسامة ماكرة علت ثغرها.. أمنيات وأحلام اقتحمت عقلها وبريق من النجاح تمكن من عينيها, نعم فهذا الرازي يمثل الحلم الأكبر لأي صحفي فالأمر الآن تحول من مجرد سبق لفرصة لن تتكرر..

لم يُخرجها من أحلامها الواهية سوى هذا الجسد المكتنز الذي اصطدم بمقعدها محاولاً استراق النظر لأوراقها!

نظرت ريم نحوها بضيق وهي تلملم أوراقها المبعثرة قائلة: ـ بسمة!.. ماذا تفعلين؟

رمقتها بسمة بخبث: ـ ما هذا التوتر!.. يبدو أنكِ تخفين شيئاً

ريم: ـ ابحثي لفضول أنفك المدبب عن عبق آخر بعيداً عن أوراقي.

تمكن الغضب من بسمة وقالت بعد أن تحسست أنفها: ـ على أية حال أنا واثقة أنها لا تستحق المشاهدة.

صمتت لوهلة وأردفت بحنق قبل أن ترحل: ـ كصاحبتها تماماً.

زفرت ريم بضيق فآخر ما ينقصها فضول تلك الحمقاء فهي لن تُخرج هذا السبق للنور إلا مكتمل الأركان.. نعم يجب أن يكون مكتمل الأركان وإلا سيتحطم في لحظات, وإن كانت حصلت على أهم ركن فمازال أمامها الكثير فمع كل ما جمعته عن هذا الرازي لم تستطع التوصل لعلاقته مع الشقراء بالمشفى

تنهدت براحة عندما لمحت حنان مصدرها الثمين, أخيراً ظهرت بعد أن تأخرت ساعتين عن موعدها, استقرت حنان على المقعد المقابل وهي تتفحص المكان حولها بإنبهار..

اقتربت منها ريم هامسة: ـ تأخرتِ.

حنان: ـ لم أستطع التملص مبكرة من دوام العمل.

ريم: ـ هل أحضرتِ لي ما طلبته منك؟

حنان: ـ بالطبع

أخرجت من حقيبتها صورة لها ولخطيبها تقف فيها فوق سطح سفينة ويتلألأ خلفها برج إيفل!

رمقت ريم الصورة المركبة بازدراء ووضعتها جانباً بعد أن علت ثغرها ابتسامة صفراء: ـ والطلب الآخر؟

حنان بخبث: ـ آه.. تقصدين بيانات المريضة؟

ريم: ـ نعم.

حنان: ـ لقد بذلت مجهوداً خرافياً لأحصل لكِ على تلك المعلومات فالسيد صادق شخص متحفظ للغاية.

ريم: ـ من السيد صادق؟

حنان: ـ المسؤول عن ملفات المرضى.

رمقت ريم حنان بتفحص ثم قامت بوضع حفنة من الأموال أمامها وتابعت: ـ أنا أقدر مجهودك.

ابتسمت حنان حتى ظهرت أسنانها الملطعة كعادتها بأحمر الشفاه الرخيص وتابعت وهي تتفحص أموالها: ـ لقد دونت البيانات.

اختطفت ريم الورقة وتجولت ببصرها مسرعة تلتهم السطور القليلة..

سارة عبد العزيز ريحان

اثنان وعشرون عاماً

اسم الزوج: أسامة علي الدين الرازي

أسندت رأسها على المقعد متفكرة.. متزوجة من أحد آل الرازي!

أين هو؟.. وإن كانت متزوجة لماذا تخلصت من الجنين؟.. وما دور عاصم الرازي في تلك القصة؟

نعم هو سبق ولكن ما زال غير مكتمل الأركان.. فالآن لديها عاصم وسارة وأسامة وينقصها أهم ركن..

السر خلف ثلاثتهم.

مر أمام مكتبها أكثر من أربع مرات ولم تلمحه, ملعون هذا الشرود المتمكن من عينيها..

تمكن منه الغضب فعلى قدر استمتاعه بلعبة القط والفأر بينهما على قدر غضبه من هذا التجاهل, ولكنها لم تكن تتجاهله وحده فهي بالكاد تحدثت مع أحد منذ أن دلفت لمكتبها في الصباح..

استقر بمكتبه الفخم بعد أن زفر بيأس يستعرض سنوات زواجه, هذا المنزل منخفض الحرارة الذي يعج بحفلات زوجته المتباهية وبئر المناسبات الإجتماعية الذي لا ينضب..

ثلاث سنوات قضاها مع امرأة لم تتمكن للحظة من تحريك حواسه كما فعلت هند, ظن أنه نسي عالمها المخملي ومذاق شفتيها النديتين ولكن عندما لمحها منذ أشهر بمحض المصادفة تجددت لديه مشاعر استساغ نكهتها على الفور, بحث عنها وجمع كل ما إستطاع من معلومات حتى انتهى به الأمر شريكاً لرب عملها!

زفر بضيق ثم قام باستدعائها باقتضاب..

كانت هي بعالم آخر, تُفكر فيما قصته سارة عليها ليلة أمس, لم تتصور للحظة أن تكون سارة ضحية إغتصاب.. ضحية لم تجرؤ حتى على فضح مغتصبها بل لجأت إليه عندما استشعرت بوادر الحياة في رحمها!

ما هذا!!.. أهو الضعف أم اليأس أم كلاهما؟

أم ربما القهر؟..

نعم هو القهر..

تلك الفتاة اليتيمة التي استحلها الجميع دون ثمن بداية من زوجة أبيها التي عاملتها كخادمة في بيت أبيها ثم باعتها بحفنة من الأموال, زوجها الذي بعثر أنوثتها دون اكتراث واتخذها جارية له وقتما يشاء.. أم عاصم, هذا الذي قرر منفرداً اتخاذها خليلة دون اعتبار لأي شيء وإن كانت رغبتها!

أهكذا ينظرون للنساء أمثالهن!!..

يرونهن خليلات دون حساب.. جواري دون ثمن!!

ضربت قبضتها بغيظ على المكتب وعندها تلقت اتصاله, فارسها الهمام.. من أذاقها العشق ولوعته, الهوى ولهفته, الشغف ونكهته.. وأخيراً الألم ومذاقه..

دلفت للمكتب وقد غابت عنها ملامح الشرود, رمقته بتحدٍ وجلست بعد أن وضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى غير مبالية بنظراته التي التهمتهما..

إبتسم بمكر وظل يرمقها بصمت, أخرجت لفافة من التبغ وقبل أن تشعلها لمحت قبضته أمامها ممسكاً بقداحته من أجلها.. أشعلت لفافتها ثم نفثت بوجهه دخاناً متحدياً وتابعت: ـ هل طلبتني من أجل أن تُشعل لي سيجارتي!

اضجع على مقعده وقد أظهرت ابتسامته أسنانه المتناسقة وتابع: ـ متى بدأتِ بالتدخين؟.

هند: ـ لا أتذكر!

سيف: ـ ولكنكِ لم تكوني تدخنين قبل ذلك.

هند تصطنع اللامبالاة: ـ متى؟

سيف: ـ عندما كنا سوياً.

أجابته ساخرة: ـ حسناً.. لقد نضجت!

رمقها بمكر: ـ ولكنني لا أحبذ المرأة المدخنة!

هند: ـ وما شأنك أنت؟!

سيف: ـ بالطبع شأني.. كيف سأقبلك إذاً وأنفاسك ممتلئة بالنيكوتين, أنا لم أعتد هذا المذاق!

رمقته بغيظ ولكنها تبدلت بعد وهلة وتوجهت نحوة بابتسامة قاسية وهي تهمس بصوت رقيق: ـ ستعتاده!

نظر نحوها بدهشة: ـ ماذا؟!

هند: ـ لقد سمعتني جيداً.

ابتسم بثقة واقترب منها بدوره فوجدت نفسها في لحظات محاصرة بين ذراعيه, همس بمكر: ـ ومتى سأعتاده؟!

كانت ما زالت محافظة على رباطة جأشها رغم اقترابه الذي بعثر مشاعرها بين شوق وغضب, اقتربت منه بدورها حتى أنه للحظة ظن أنه على بُعد لحظات من قبلة حارة, همست أمام شفتيه بجملتها المعبقة برائحة التبغ التي لا توازي عبق الكرز والمشمش اللذان كانت تزين بهما شفتيها من أجله قبل ذلك, خرجت نبرتها واثقة, متحدية جبروت عينيه برونق مقلتيهما اللامع, وبهمس الأنثى تغنت: ـ في أحلامك يا سيف يا أنصاري

المائدة الصامتة, هكذا اعتاد المراهقان تسميتها؛ سلمى التي أصبحت على مشارف عامها الرابع عشر ومحمود الذي يصغرها فقط بعامين, ساعة الغداء التي نادراً ما يتواجد بها الأب تتحول لدقائق موحشة من السكون لا يُستمع فيها سوى لصليل الملاعق وقرقعة الأكواب والصحون, فعاصم لا يحتمل ضجيج المراهقين وخاصة على مائدة الطعام, ظل محمود يراقب الوقت في

يأس منتظراً مرور تلك الدقائق ليرحل الأب ويعود ضجيج الحياة للتراقص في أنحاء المنزل, فمع أمه اللأمر يختلف؛ ابتسامتها الملائكية, ونبرتها الحانية, حدقتاها الصغيرتان المختفيتان بخجل خلف نظارتها الطبية واللتان نادراً ما ترمقان أحد بنظرة قاسية بعكس هاتين المقلتين المتشحتين بسواد الزئبق, نظرتهما تتبدل وتتلون في لحظات.. بين حدة وقسوة ومكر وقوة تنحني أمامها سطوة الجبال, هذا الرجل الذي اعتاد الارتجاف أمام خشونة نبرته والتلعثم في مواجهة حدة عباراته.. يمقت قسوته ويتمنى أن يكون مثله.. صدقوا عندما لقبوه بالرجل الحديدي فبأقصى خيالاته جموحاً يراه كتلة حية من الحديد الصلب تلتهم الحياة دون مشاعر..

أبوه.. عاصم الرازي.

كان عاصم يمضغ طعامه بشرود, فالنكهة غائبة والمتعة احتجبت عن لسانه وعقله معاً, فلقد أرسل منذ ساعة أمين أسراره ومسؤول ملف المحظورات خاصته من أجل اخراج سارة من المشفى وايصالها للمنزل بعد ذلك..

مر يومان اهتم فيهما بكل شيء.. محضر الشرطة واصطناعه البحث عن زوجة ابن عمه الغائبة ليعود بعدها لفُتنة بخبر حادث السيارة المزعوم, لقد خطط لكل شئ بدقة واختار حبكته بإتقان.. ولكن الخبر الذي جاءه مع رنين الهاتف, العبارة التي أطاحت بهدوء عقله ولجلجت جميع حساباته وأطلقت صرخة غاضبة أثارت فزع القابعين حوله في دقائق سكونهم.. كان فوق الإحتمال...

صك عاصم أسنانه وهو يتابع بغيظ بعد أن استردك غضبه وانفرد بهاتفه بغرفة مكتبه: ـ ماذا تعني بأنها تركت المشفى؟

تلفت سعيد حوله ثم أعاد عباراته مرة أخرى بحرص: ـ كما أخبرتك سيدي.. عامل الإستقبال يقول أنها تركت المشفى ليلة أمس.

عاصم: ـ كيف!.. فهي لا تملك نقوداً وأنا لم أبعث أحداً لإنهاء المعاملات الحسابية سواك!

سعيد: ـ ولكن يبدو أن أحدهم فعل ذلك.. دفع تكاليف العلاج بأكملها وأخرجها من المشفى فقط منذ ساعات.

جحظت عينا عاصم واستشعر بخطر لا يوقن مصدره ثم تمتم بقلق: ـ من يكون؟

سعيد: ـ بل من تكون!.. هي امرأة واسمها هند عبد الكريم وهي من أخرجتها من المشفى أمس وأحضرتها له قبل ذلك.

عاصم: ـ ماذا؟

سعيد: ـ هذه هي الحقيقة سيد عاصم.

ظل صامتاً لوهلة, يتأرجح زئبق مقلتيه بين قلق وغضب.. في النهاية عادت نبرة البأس لتتملك من صوته محدثاً خادمه المطيع بإلزام: ـ أمامك ساعة.. أريد تقريراً شاملاً عن تلك المرأة وعلاقتها بالحادث.

انفرجت شفتا سعيد عن إبتسامة ماكرة, فهذا النوع من الأعمال هو ما يميزه عند رب عمله ويضعه بمرتبة يتمناها الكثيرون, ردّ بعباراته المعهودة: ـ أمرك سيد عاصم.

أغلق عاصم الخط وقد لمح هيئته الغاضبة بالمرآة, تمتم بحنق: ـ سارة.. أيتها الحمقاء!.. تتحدين الرازي وحتماً ستدفعين الثمن.

منذ دقائق وهي تراقبها, تقف أمام المرآة تطالع هيئتها بابتسامة مرتجفة, تتحسس النسيج المنسدل على جسدها بشرود, كان جلباباً هادئ اللون, مطرز برقة عند الرقبة ومنسدلاً بانسيابية حتى أخمص قدميها..

لم يكن هذا الجلباب هو الوحيد الذي ابتاعته لها بل هو واحد من مجموعة انتقتها لها بعناية, لا تعي بالضبط ماذا أصابها ولكنها منذ أن غادرت الشركة مفلتة من عبق سيف المتناثر حولها حتى توجهت نحو أحد المحال الشهيرة وابتاعت لسارة كل ما قد تحتاج إليه تقريباً, لم تخطئ في المقاس فهي تمتلك جسداً ربما ممتلئ بعض الشيء عن جسدها ولكنها كانت أقصر قامة..

جلبابان مطرزان وقمصان رقيقة من أجل النوم وبيجامات حريرية وبعض الملابس المحتشمة من أجل ارتدائها بالخارج.. كان هذا حصيلة ما ابتاعته لها.. بجانب هذا الإسدال المنمق من أجل الصلاة, كان له لون فيروزي هادئ وأكمام مطرزة برقة, للحظة كانت ستبتاع لنفسها آخر مثله ولكن.... لم تفعل!

منذ زمن وهي بعيدة عن ركن دينها الثاني, حتى أنها تلعثمت قبل أن تجيب سؤال سارة عن اتجاه القبلة, ظلت تراقبها لبرهة وهي تبسط معطفها المتهالك على الأرض وتُعدل من حجابها قبل أن تشرع في صلاتها وتغوص في حالة متفردة من الندم بين يدي خالقها..

ابتسمت بأسى وهي تتفحص الإسدال وتذكرت لحظات أخرى مر عليها أكثر من عشرين عاماً عندما كانت تقف مرتعدة بين يدي معلمتها زينب؛ جسد

سمين وعوينات ضخمة وشفاة لا تعرف الابتسامة وعصا غليظة ألهبت قدميها مراراً..

عشرون فتاة.. أعمار تتراوح بين عشرة أعوام حتى خمسة عشر عاماً, كن يصطففن يومياً أمامها كل صباح, تتفحص شعورهن.. وجوههن.. أظافرهن.. ترمقهن بإزرداء.. تُلهب سيقانهن العارية بعصاها الثقيلة وتقرص نهودهن البارزة بأناملها الغليظة متوعدة بعقاب دنيوي وأبدي لفجورهن المنتظر!

أشعلت لفافتها الدائمة وهي تراقب ملامحها بمرآة السيارة, خرجت نبرتها بائسة:

"ها أنا الآن يا زينب أمتلك من المال ما هو كاف لشراء الدار وشرائك معها ودون أن أتمايل بجسدي داخل جدران المتعة كما تنبأتِ لي دوماً"..

زفرت بغضب ونثرت رماد لفافتها كما نثرت أعوام الماضي قبل ذلك وانطلقت عائدة للمنزل حيث تحتفظ بالدمية التي سقطت عليها من السماء..

سارة

التأثر بعينيها كان جلياً فهي لم تتلق هذا الكم من الملابس دفعة واحدة من قبل, حتى عندما تزوجت بأسامة لم يبالِ أحداً بها أو بمظهرها!!..

كانت تتفحص ملامحها المنهوكة بالمرآة, تلامس النسيج الناعم مغمضة عينيها في محاولة يائسة للتآلف مع المستقبل, الغد الذي أصبح أكثر من مبهم بالنسبة إليها.. كيف ستكون خطوتها القادمة؟ هل ستظل مختبئة

بكنف هند أم ستقاتل من أجل تحررها؟.. ومع من ستكون معركتها؛ عاصم أم أسامة أم ربما فُتنة أم جميعهم؟..

طرقات متتابعة أخرجتها من شرودها الدائم.. لا تدرك ماذا حل بها ولكنها شعرت بإنقباض تمكن من قلبها بقسوة, قسوة أصبحت واقعاً متجسداً أمامها عندما لمحت خياله بالباب متخطياً هند التي ظلت متجمدة بمكانها ترمقه بغيظ..

عاصم الرازي!

الفصل السابع

منذ دقائق وهو قابعٌ بسيارته يراقب البناية, مئات الكلمات متناثرة بعقله مكونه عبارات تبدو مطمئنة ومخيفة بنفس الوقت..

عبث!!!

لم تتمكن امرأة من شغل أفكاره من قبل, وتأتي تلك النكرة لتقلب الطاولة في لحظة من الجنون.

تفحص الأوراق بيده لمرة أخيرة؛ هند عبد الكريم, ستة وعشرون عاماً.. تعمل مديرة لقسم المبيعات بأحد الشركات بمجال التكنولوجيا والتي انضمت مؤخراً لمجموعة الأنصاري..

فرك ذقنه وهو يقرأ العبارة ربما للمرة العاشرة..

مجموعة الأنصاري!.. تُرى هل له علاقة بالأمر؟..

قطب جبينه وأكمل قراءة الملف بين يديه, فالعبارات التالية تحمل تفسير منطقي لوجود تلك المرأة بالمشفى فهي صاحبة الكتلة الحديدية التي امتصت صدمة سقوط جسد سارة من البناية وهي من أقلتها للمشفى وهذا مفهوم, ولكن لماذا أخرجتها منه واستضافتها في منزلها؟!.. هل طلبت سارة منها ذلك؟..

أمر مستبعد للغاية..

زفر بحيرة ثم عاود النظر على آخر الحروف وأهمها على الإطلاق فهند امرأة وحيدة.. لا يوجد أهل ولا زوج...

عبارة تحمل في طياتها الكثير, امرأة مجهولة النسب ترعرت بدور الأيتام وليس لها أصدقاء, لا زوج, لا أبناء, لا عائلة

ربما.. لا خوف.. وربما لا تهديد..

أبصر نفسه بالمرآه بائساً, كم يكره تلك الحمقاء بالأعلى ليتها ماتت وانتهى الأمر!

همس لنفسه بقسوة:

"عدو ذكي أفضل من صديق أحمق.. هل أنا بصدد رؤية أحدهما أم كلاهما!!".

كانت ما زالت تقف بجانب الرواق تراقب سارة المرتجفة أمام المرآة, تلك الـ "سارة" تختلف عني في كل شيء؛ ملامحها هادئة وملامحي حادة.. بشرتها عاجية وبشرتي خمرية.. خصلاتها ذهبية وخصلاتي قاتمة كالليل.. ضعفها لا يوازي قوتي وخضوعها أكثر ما أمقته بالعالم!

كان حديث خاص بينها وبين نفسها, فسارة ذكرتها بأوقاتٍ ظنت أن الزمن محاها للأبد, سنوات كانت تتخبط فيها بين الاستكانة والتمرد, الخضوع والشراسة, العشق والقوة.

هل كان الفضل لزينب رغم كل شيء!

المعلمة التي أخرجت أسوأ ما فيها أم ربما الأفضل!

فلقد تحدت كل شيء من أجل أن تُصبح المرأة التي هي عليها الآن والتي بالقطع تختلف عن المرتعشة أمام المرآة..

دقات الباب عبثت بمنظومة أفكارها المتتالية, توجهت بفضول متسائلة عن الزائر فهي لم تطلب طعاماً أو دواءاً..

كانت لحظة, وجدت نفسها متجمدة دون حراك أمام ملامحه الصارمة..

عاصم الرازي.

يُطلقون عليه الثبات الإنفعالي, وهو يعني القدرة على التحكم في الإنفعالات خاصة أمام تلك المواقف التي تحمل من المفاجأة والضغوط ما يُنطق الحجر..

وهي طالما كانت قادرة على ذلك, متحكمة في انفعالتها بأقصى قدر, ثابتة كقطعة من الحجر أمام كل المؤثرات, متأنية.. قوية.. متماسكة.. شرسة عند الحاجة.

ولكن أمام هذا الرجل, كادت أن تتحطم كل مبادئها, قوانينها الصارمة التي التزمت بها لسنوات..

كانت ما زالت غارقة بصدمتها عندما تخطاها دالفاً للمنزل وكأنه أحد ممتلكاته!

بعد لحظة أيقنت الواقع المتهادي بخيلاء بغرفة معيشتها وسارة التي تصبب منها العرق حتى كاد يغرقها.. لا سبيل لها الآن سوى تحطيم فكه فهو مثال لكل ما تمقته بعالم الرجال..

ولكن لا... ليست هي تلك المرأة.

زفرت ببطء في محاولة لاستعادة الثقة التي كادت تنزلق من تحت قدميها ثم أغلقت الباب بهدوء وتوجهت نحوه بابتسامة حاذقة وقالت بنبرة تهكمية: ـ مرحباً!.. تفضل!!

كان بصره موجهاً نحو سارة.. نظرة مرعبة لا تتحملها امرأة مثلها وكان هو يعي ذلك جيداً..

ابتسم بثقة رامقاً المتذاكية بجانبه ثم تابع: ـ أشكرك آنسة هند على استضافة ابنتنا.. سارة!

كانت سارة ما زالت جاحظة الهيئة ترمق كليهما دون أن تنبس ببنت شفة, أخرج عاصم سيجاراً غليظاً وتابع بنبرة هادئة بعد أن استدار بجسده بالكامل نحو هند: ـ هل لي بمرمدة؟

هند: ـ بالطبع..

أشعل سيجاره الأنيق بعد أن استقر على الأريكة بتجبر ثم تابع دون أن يحيد نظره عن هند: ـ سارة.. تستطيعين تحضير حالك بينما أشرب سيجاري!

تجولت مقلتي سارة القلقتين بفزع بين كليهما فأشارت لها هند باقتضاب أن تعود للداخل ثم تابعت بنبرة متحدية: ـ ولكن سارة لن تعود معك سيد عاصم.

تبدلت ملامحه فبدت شيطانية وبادرها بلهجة قاسية: ـ بماذا تهذين؟!

هند في ثبات: ـ لا أهذي سيد عاصم.

فلت من هدوء أعصابه وتابع بنبرة غاضبة: ـ بل هو الهذيان بعينه.. سارة.. بدلي ملابسك الآن!

اعتدلت هند في جلستها وأخرجت لفافة من التبغ أشعلتها بثقة من سيجاره المحترق ثم تابعت وبريق الثقة يتلألأ بمقلتيها: ـ سيد عاصم.. دعنا نكشف أوراقنا الآن اختصاراً للوقت.

تهدجت أنفاسه في إشارة واضحة لاضطراب خرج عن سيطرته, تابع بانزعاج: ـ عن أي هراء تتحدثين؟!!

هند: ـ عن القافزة من غرفة الإجهاض أتحدث, سيد عاصم.

كانت تدرك وقع القنبلة التي فجرتها للتو, منذ أن علمت بقصة سارة وهي تعي أن المواجهة معه قادمة لا محالة, لم تتصور ظهوره المبكر بالصورة وأنه ربما يبعث بأحدهم من أجل أن يُقِلّ سارة لبيتها وكأن شيئاً لم يكن ولكن يبدو أن سارة عن غير قصد أفقدته توازنه..

توازن لم تدرك وجهته إلا بعد فوات الآوان حيث التقط بصرها الشارد خطواته الغاضبة نحو غرفة سارة!

قبل أن توقن فعلياً ما يحدث اخترقت صرخة المسكينة الجدران وهي تمسك بوجنتها الملتهبة نتيجة صفعته!

كان يتفوه بعبارات متوعدة: ـ أيتها العاهرة!.. هل وصل بكِ الأمر لتشويه سمعة العائلة!!..

صدمة وذهول تمكنا من ملامح المسكينة وغيظ وغضب استحوذا على هند التي وجدت نفسها تقفز دون تفكير بين كليهما ممسكة بقبضته قبل أن تهوى على وجه سارة مرة أخرى...

نظر نحوها والشرار يتطاير من عينيه: ـ ماذا تظنين نفسك فاعلة؟!

جزت هند على أسنانها فقد أيقنت أن ثباتها الإنفعالي غير مجدٍ بتلك اللحظة, خرجت نبرتها حانقة: ـ أخرج من بيتي.

عاصم: ـ هل جننتِ!.. هل تدركين مع من تتحدثين؟

من داخلها كانت أنفاسها متسارعة فالأمر تطور على غير ما خططت له بالمرة, ولكن جمود وجهها كان كافياً لزعزعة ثقة أياً كان أمامها, تابعت بصوت واثق: ـ بل أنت هو غير المدرك حضرة النائب المحترم.. أنا والمتباكية خلفي ليس لدينا شيء لنخسره ولكن أنت.. لديك!

على عكس ما توقعت عاد الهدوء ليتمكن من ملامحه, تجول ببصره بينها وبين سارة ثم صمت لوهلة لينفجر مقهقهاً وتابع: ـ هل صور لكِ عقلكِ البائس أنكِ تستطيعين ابتزازي!

هند: ـ عقلي لم يصور لي شيء, أنت من طرقت بابي سيد عاصم

عاصم: ـ ربما لأسترد ما يخصني.

هند: ـ سارة لا تخصك.

عاصم: ـ تخص زوجها, وهو من وكلني بإعادتها لمنزلها.

هند بتحدي: ـ ووكلك بمعاشرتها أيضاً!

عبارة أفضت إلى صدمة, سكون قاتل اجتاح الجميع, ظل عاصم يرمق هند بغيظ مكظوم خلف ملامحه المتصلبة وقبل أن يُفكر بعبارته القادمة تابعت هي بانتصار: ـ هل تجد الآن سيد عاصم عودة حمقاء مثلها تفضي بما لا يجب الإفصاح عنه أمراً صائباً؟!

رمقها بتحفظ وعيون متحفزة كصقر, ابتسمت متابعة: ـ أرى أننا الآن يجب نلملم أوراقنا المبعثرة لنتمكن من إحصاء الأرباح!

همهم متابعاً: ـ في لعبة الأوراق لا يوجد سوى رابح واحد!

على زاوية ثغرها ارتسمت ابتسامتها الماكرة واستأسدت بدثار مهنتها وكأنها تنهي صفقة رابحة: ـ أنا لا أهتم بالربح على قدر اهتمامي بتحاشي الخسارة.

عاصم: ـ ما مقصدك؟

هند: ـ ربما لن تخرج رابحاً من صفقتنا سيد عاصم ولكنك حتماً ستتجنب الخسارة.

مرة أخرى, قابعاً بالسيارة وأمام نفس البناية ولكن بعد مرور ساعة..

ساعة تبدلت بها أشياء كثيرة, لا يُدرك كيف انتهى به الأمر جالساً أمام تلك المدعوة هند وهي تُملي شروطها!

وعلى الرغم من ضيقه على قدر منطقية لغوها, فعودة سارة بحماقتها أصبحت تمثل خطورة, ما أدراه بما قد تتفوه به أمام فتنة أم غيرها تحت أقل ضغط, هي لا ترغب بافتعال فضيحة فلو شاءت كان الأحرى لها أن تحتفظ

بالجنين ولكنها حمقاء.. حمقاء لدرجة أنها تفوهت بما لا يجوز أمام امرأة غريبة عنها بل ومكثت بمنزلها دون أن تعرف عنها أي شيء!..

كما أن الطلاق يبدو منطقياً الآن, فاستمرار سارة زوجة لأسامة لا يفيد بشيء خاصة أن الآخر سيعود بعد شهر لإتمام الزيجة الأخرى في تجربة مماثلة لسابقتها دون اكتراث, ووجود سارة بتلك الظروف سيجعلها على شفا انهيار لا يُحمد عقباه...

زفر بضيق, فالأمور كلها تسير على عكس ما خطط وهو غير معتاد على ذلك, دبر لامتلاكها خليلة فانتهى بها الأمر معانقة للرياح أمام عينيه, ودبر لاحتجازها سجينة ولو بشكل مؤقت وها هي الآن تنعم بالحرية في ظل امرأة عنيدة لن تكل ولن تمل حتى تحصل لها على الخلاص من هذا الزوج الغائب ولو عن طريق المحكمة, وهو يستطيع بسهولة أن يتدبر أمر طلاقها ولكنه لا يستطيع أن يمنع أسامة من تطليقها إن أراد ذلك فهو في غنى عن إثارة الشبهات خاصة الآن, السبيل الوحيد أمامه هو التخلص من تلك المعضلة اليوم قبل غد, فلتذهب سارة إلى الجحيم وتحصل على الطلاق كما تمنت وتبتعد عن طريقه نهائياً..

الصفقة كما تلتها هند: ـ حصولها على الطلاق مقابل خروجها من عالمك للأبد وكأنها لم تكن, وكأن شيئاً لم يحدث.

وختم هو على العقد بقول شفهي مكون من خمسة أحرف: ـ موافق.

وعقب بملحوظة كانت سبيله الوحيد, عبارات تلاها متوعداً بوجه الشقراء المرتجفة:

ـ تفوهك بالأمر ليس اختياراً أو قراراً, بل سيكون شهادة وفاتك دون رجعة.

كانت ملتصقة بمقعدها تتفحص بعض الأوراق أمامها وتفترس شريحة من الهامبرجر دون رحمة, صحيفة مطوية أُلقيت أمامها بعبث مما أثار انتباهها فنظرت نحو بسمة باستهجان قائلة: ـ ما هذا؟!

ابتسامة حاقدة خرجت من ثغر بسمة المتباهي وهي تقول: ـ خبر قد يهمك!

نفضت ريم يدها من بقايا طعامها والتقطت الصحيفة دون اكتراث تتجول بحثاً عن المراد, ابتسامة واثقة علت ثغرها عندما لمحت الخبر "سقوط امرأة من عيادة حسين سلطان طبيب المشاهير والشرطة تحقق بالأمر"

طوت ريم الصحيفة بهدوء ثم عادت مرة أخرى لإلتهام شطيرتها بتلذذ, رمقت بسمة بنظرة ساخرة وتابعت: ـ هل تودين البعض؟.. لا أعلم كيف يعدون هذا ولكنه شهيٌ للغاية!

تأوهت وهي تمضغ طعامها بتأنٍ وتابعت: ـ عفواً حبيبتي.. نسيت أنك بصدد اتباع حمية.. هل تودين بعض السلطة الخضراء؟!!

زفرة حارة خرجت من أنف بسمة الغاضب وبعبارات مغتاظة تفوهت: ـ في الحقيقة أنا لا أفهم كيف تلتهمين كل هذا الطعام دون أن نلمس أثاره!

ريم مقهقهة: ـ عادة قد تكون مجهولة بالنسبة إليكِ تسمى... الرياضة!

ابتسمت بسمة بحنق واتخذت وضعاً قريباً من ريم لتتابع بانتصار: ـ ليتك تهتمين بعملك مثلما تهتمين بمضغ السعرات وحرقها بالرياضة.. فالخبر الذي تلهثين وراءه منذ أيام نشرته أكثر من صحيفة بالفعل.

ابتسمت ريم بمكر انهزامي متابعة: ـ حقاً!.. أنا أشعر بالأسى فقد تأخرت كالعادة.. أشكرك على التنبيه زميلتي العزيزة!

بسمة وقد رمقتها في تحفز: ـ العفو.

ريم: ـ والآن ألا تودين تناول بعض السلطة فجسدك لا يحتمل مزيداً من الجبن الذائب!

زفرة غاضبة كانت هي الإجابة ورحيل تمددت ريم بعده براحة على مقعدها, ابتسامة واثقة علت ملامحها وهي تسترجع العنوان.. مجرد خبر مقتضب عن الحادث.. لا تفاصي .. لا أسماء.. مجرد سرد تاريخي لما يتردد عن حسين سلطان وزبائنه..

آه من تلك الصحف الفاشلة لقد قاموا للتو بتقديم المقبلات وستهاجم هي بعدها بالطبق الرئيسي, فقط تكتمل الخيوط.. فهي منذ أيام تلتقط أوراق مبعثرة عن عاصم وعائلته ومنصبه, بل استطاعت بعد عناء الوصول لمعلومة قيمة من حارس عقار أحد البنايات الذي لمح دخول عاصم الرازي لعيادة الطبيب بليلة الحادث ومعه امرأة!!..

مؤكد هي سارة ولكن ماذا عن زوجها الذي لم يظهر بالمشفى ولا بعيادة الطبيب؟!!.. معلومة كادت أن تقلب الطاولة عندما علمت بها أمس وهي بانتظار تأكيد, إذا صح واتضح أن أسامة خارج الوطن منذ أكثر من عام فهذا يعني أن الشقراء حملت سفاحاً ولهذا آثرت التخلص من الجنين, ولكن....

قطبت جبينها وغابت عن الضوضاء حولها وهي تفكر..

ما الداعي للحضور للقاهرة والذهاب لطبيب مثل حسين سلطان من أجل هذا؟!.. بل ما داعي الانتحار إن كانت عابثة بغياب زوجها؟!. تهدجت أنفاسها وهي تسحب آخر ورقة من خيال الافكار حولها, عاصم الرازي...

ما سر ظهوره بالصورة؟.. بل ما سر المخاطرة بالذهاب لعيادة سلطان مع سارة؟.. كيف يتورط رجل مثله بمثل هذا الأمر؟

إلا.. إلا إذا كان متورطاً بالفعل من البداية..

ابتسامة عابثة علت ثغرها فالعبارة تتراقص أمام عينيها في إغواء, إغواء نحو سبق أصبح مكتمل الأركان ولا ينقصه سوى مونيكا لوينسكي خاصتها!..

أرجعت رأسها للخلف وهي تصفر بانتصار..

فهي على وشك إحراز هدف البطولة....

هل حقاً تمر الأيام أم هي من فقدت الإحساس بالوقت..

منذ أن ظهر بتبجح والألم مستمر.. متواصل.. متكرر كمهانتها على يديه, أم ربما هو عقاب من هذا الرحم الخاوي من الحياة بداخله؟.

من المذنب؟

هي بلحظة يأس؟.. أم هو بلحظة تجبر؟

عبرتها الحارة لم تضل طريقها بين انحناءات ملامحها الرقيقة تلك المرة فقد حفظت وجهتها جيداً واعتادتها مع مرور الأيام..

بأنامل مرتجفة جففت وجهها المبتل, المرور على وجنتها ذكرها بقبضته الآثمة التي اغتالتها بصفعة منذ أيام, وكأنها مستباحة لكل شيء, لكل غرض..

خطوات هند أيقظتها من شرودها المعتاد أمام النافذة كل ليلة, تتجول ببصرها على البناية التي دلفت لها منذ بضعة أيام تحت سطوته وغادرتها شبه جثة..

آاااااااااه من تلك الصفعات التي بادرتها بها الحياة..

آاااااااااااه من هذا الألم.. الظلم...

هل من مزيد؟!

ـ مساء الخير..

قالتها هند بابتسامة

سارة وهي تداري بكاءها: ـ مساء الخير.

تقدمت منها هند لتناولها ورقة: ـ تفضلي.

سارة : ـ ما هذا؟

هند: ـ وثيقة العتق؟

سارة: ـ عتق!

هند: ـ الطلاق.

سحبت سارة الورقة بسرعة لتتجول على سطورها, حالة متناقضة من السعادة واليأس اجتاحتها, ما هذا الزوج الذي ربطت نفسها به منذ سنوات!!.. يتزوجها دون اكتراث ويتركها دون اهتمام!

تابعت هند: ـ لقد وعدتك أنني سأحلك من قيد هذا الرجل ووفيت بوعدي.

سارة ببأس: ـ أيهما؟

هند ساخرة: ـ بالطبع ليس زوجك.

تنهدت سارة بأسى: ـ أشكرك.

هند: ـ لا أراكِ سعيدة!

سارة: ـ أنا حائرة أم ربما تائهة!

هند: ـ يائسة؟

سارة: ـ لا أصدق أنه استسلم بهذه السهولة ونفذ لي مرادي!

هند: ـ هو لم يستسلم.. هو فقط عجل بالأمر, لم يكن ليبقيكِ زوجة لأسامة.

سارة: ـ معكِ حق.. فقد أديت الغرض.

هند: ـ تجاوزي ما حدث يا سارة , وابدئي من جديد, كفاكِ بكاءاً ونحيباً أمام النافذة.

سارة: ـ ماذا كان سوف يحدث لو لم تظهري بعالمي؟!

هند: ـ ربما كنتِ الآن بمنزلك طائعة لزوج على الأغلب لا يتذكر ملامحك ومتاحة لعاصم وقتما شاء.

شهقة خرجت منها رغماً عنها, تابعت بصوتٍ باكٍ: ـ هل هذا هو ظنك بي؟

تابعت هند بملامح يشوبها الجمود: ـ لستِ بعاهرة.. ولكنكِ لقمة مستساغة.. هشة لدرجة الخضوع.. أنتِ هي الضحية الحمقاء التي تتجول بغابة السبع دون وعي.

تهاوت سارة بحزن على المقعد خلفها تحدق في الفراغ, هند محقة فهي ضعيفة حتى النخاع, إذعان لا حدود له.. حتى عندما فاجئها عاصم بهجومه الباغِ لم تستطع الدفاع عن نفسها ولو بصرخة قوية, بل خرجت صرختها متحشرجة.. مشوهة.. مشجعة على المزيد..

تابعت هند: ـ أستمع لأنينك كل ليلة.. تفرشين الأرض بعبراتك وتطلبين العفو في صلاتك.

سارة وهي ما زالت على حالها محدقة في الفراغ بعبرات متحجرة: ـ أنا عاصية.. كدتُ ألاقي ربي وأنا على الكفر.

هند: ـ ولن تمضي بقية عمرك تبكين على الأطلال.. تجاوزي ما حدث فالحياة لن تتوقف عند هذا الأمر.

لم تنتظر هند إجابة سارة ولم تسألها عن شيء بعدها, فقط تركتها جالسة وصك حريتها بين يديها تتأمله دون تصديق, ما زالت مشاعرها متناقضة حيالها؛ تمقت ضعفها وخضوعها البائس ولكن تتعاطف معها وتشعر نحوها

بالمسؤولية, شعور غريب لم تختبره من قبل, اهتمام لم يعهده أحد منها ولم تعهده هي من أحد.. ليتها ترحل وتبحث عن عمل بأي مكان فتلك المشاعر المفعمة بالقلق والإهتمام وربما الصداقة فوق احتمالها.. لم تختبرها من قبل ولا تود..

ارتشف القليل من قهوته الصباحية وعيناه ما زالت تمر بحدة صقر على السطور المطبوعة..

"طبيب الفضائح والهاوية من عيادة الظلام"

مجرد سطور واهية قرأ مثلها في الأيام السابقة, لا شيء سوى بعض الأقاويل عن حسين والتطرق لبعض الروايات القديمة؛ تارة عن النجمة الحسناء التي شوهدت مترددة على العيادة, وتارة عن عشيقة الوزير السابق.. لا شيء عن سارة.. لا شيء عنه..

كم يعشق هذا النوع من الصحافة, محررون يلتصقون بإشاعة واهية ولا يكلفون أنفسهم العناء بالبحث ورائها, فقط بعض المعلومات المتاحة من هذا وذاك دون جهد يُذكر.

زفر براحة ثم تطلع إلى ساعته, فبعد ساعتين لديه موعد مهم في الحزب..

انتهى وقت هذا الهراء الذي استحوذ على عقله بالأيام الفائتة, فلديه الآن معركة حقيقية.. ليست مجرد معركة إنتخابات وهمية احترف صناعتها منذ سنوات بل معركة صعود نحو القمة, فحكماء الحزب الذي تفانى في خدمته لسنوات عدة اتخذوا قرارهم أخيراً بانتشاله من طبقة الأعضاء العاملة وترقيته

للصفوة.. إنها البرجوازية بلعنتها, تخترق كل الصفوف سواء الكادحين أم الأمراء.

عادت لمعة الزئبق لتتمكن من مقلتيه وهو يتفكر ساخراً..

"عفواً ماركس, فأفكارك بالية وليس لها مكان بعالم الغاب الذي نعيشه الآن فالبقاء حتماً لرأس المال!"..

خصلات بنية غير مرتبة, بشرة حنطية, ذقن مدبب, وعينان تشعان ببريق بني اللون.

ابتسمت ريم بثقة عندما لمحت دهشة هند وتابعت وهي تتوجه ببصرها داخل الشقة قبل أن تسمح لها الأخرى بالدخول: ـ هل أنتِ بخيلة أم ماذا!

رمقتها هند بغضب وتابعت دون أن تتحرك من موضعها: ـ كيف تجرؤين على المجئ هنا؟!

ريم: ـ أرى أنه من الأفضل أن نستكمل حوارنا بالداخل!

هند بتحدي: ـ لا يوجد حوار لنستكمله.

ريم بتحدي: ـ حسناً.. لنبدأه.. هل تودين أن يحضر بعض الجيران الفضوليين المناقشة أم نحتويها بين جدران منزلك؟

صمتت هند لوهلة ثم تنحت لتسمح لها بالدخول كاظمة غيظها.. خطت ريم بتبختر وهي ترمق هند بابتسامة انتصار ثم تابعت وهي تتوجه لغرفة المعيشة دون دعوة: ـ منزل جميل.. لكِ ذوق خلاب.

هند بملل: ـ كلي آذانٌ صاغية.. ابدئي حوارك.

ريم: ـ لا أمانع ببعض القهوة وربما القليل من.. سارة!

تبدلت ملامح هند خاصة مع خروج سارة من الغرفة متوجه نحو ريم بملامحها الحائرة..

ابتسمت ريم واستقرت بالأريكة الوثيرة ثم أردفت: ـ مرحباً سارة..

سارة بملامح مبهمة: ـ من أنتِ؟.. وكيف تعلمين باسمي؟
ريم: ـ لا تتذكريني!!

هند مستهزئة: ـ يطلقون عليها أنف الفضول!

رمقت ريم هند بغضب وتابعت: ـ ريم الشاذلي

رمقتها سارة بتحفظ, تذكرتها.. تذكرت يوم قدومها للمشفى وتحذير هند بشأنها, ظلت مترددة للحظات أمام يدها المبسوطة أمامها وفي النهاية صافحتها بارتجاف..

قبل أن تسحب سارة أناملها من قبضة ريم المصافحة بقوة نظرت ريم بخبث ليدها الأخرى وتابعت: ـ خاتم زواجك؟!

نظرت سارة لخنصرها الأيسر وتذكرت أنها حتى الآن لم تخلع خاتم الزواج بعد, ابتعدت خطوتين إلى الوراء عن ريم التي تابعت بمكر وهي ترمقها بتحدي: ـ خاتم أسامة الرازي على ما أعتقد!

سارة: ـ وما شأنك أنتِ؟!

ريم: ـ والطفل هل كان لأسامة الرازي أيضاً أم... لرازي آخر؟

شهقة فزع خرجت من صدر المسكينة فيبدو أن تلك الفتاة تعرف الكثير, تراجعت للخلف تنظر نحوها في رهبة وظلت هند صامتة لوهلة ترمق تلك الزائرة المتطفلة بحذر

تابعت ريم بثقة عندما أيقنت سكون الجميع: ـ امرأة في أوائل العشرينيات شوهدت مع عضو برلمان شهير فقط بدقائق قبل أن تسقط من نافذة طبيب نسائي يُشتبه في تورطه بعمليات إجهاض.. إنه حقاً عنوان مثير للجدل!

انزوت سارة بأحد الأركان متهدجة الأنفاس وهند كانت ثابتة كالحجر تنتظر ما هو قادم

تابعت ريم بصيغة إلقاء وكأنها تسرد مقال صحفي: ـ نجت المرأة ولكنها فقدت الجنين.. جنين كاد أن يكمل شهره الأول, جنين كاد أن يودي بمستقبل أبيه السياسي ولهذا كان يجب التخلص منه, فالعضو الشهير لم يكن مجرد خطيئة عابرة بحياة المرأة بل هو أيضاً.. رازي كزوجها.

عاصم الرازي..

ألقت ريم بقنبلتها وهي تدرس ملامح سارة المرتجفة والعرق المتصبب من جبينها.. كانت تلقي بطعمها وهي واثقة بشدة من النتيجة فوجه سارة هو أقوى تأكيد على صدق حدسها..

مرت لحظات كانت فيها هند ما زالت ثابتة بملامح يشوبها الجمود دون تعبير يُذكر وعلى النقيض كانت سارة على حافة الإنهيار.. خلعت ريم وجه التحدي الذي التبسته منذ دقائق وتزينت ملامحها بمشاعر أخرى تحمل الشفقة!

تقدمت نحو سارة بنبرة حانية متابعة: ـ سارة.. لا تخافي مني.. أنا معكِ ولست ضدكِ أنا أود مساعدتكِ

رمقتها سارة بجزع دون أن تنبس بكلمة فتابعت ريم لتكمل ما دبرته: ـ يجب أن تساعديني يا سارة.. لن أستطيع مساعدتك وحدي.. يجب أن تتكلمي.. دافعي عن نفسك حتى يُحاسب المخطئ.

ابتعدت سارة عنها تحرك رأسها بالنفي ولكن ريم اقتربت منها حتى أمسكت بذراعها برفق وتابعت: ـ هل حاولتِ الإنتحار حقاً؟.. أم هو من دفعك من النافذة؟.. ماذا حدث بالعيادة؟.. سارة.. يجب أن تتحدثي.. يجب أن..

قبل أن تكمل عبارتها فوجئت بهند تقف بينها وبين سارة حائلاً لتهمس بهدوء غريب: ـ أخرجي..

ريم: ـ ماذا؟!

بنبرة أكثر حدة وبلهجة آمرة أعادت قولها: ـ أخرجي من بيتي.

ريم: ـ لا تتدخلي بيني وبين مصدري!

هند: ـ نعم.. أنتِ لا ترين فيها سوى مصدر لسبقك المنشود.

ريم متجاهلة لهند: ـ سارة.. الفرصة بيدك.. مَن مثل عاصم يتوحشون بلا رادع.. يمتصون دماءنا دون ارتواء.. الحل بيدكِ

هند بصرامة: ـ كفى.. أخرجي.

ريم: ـ ليس بقرارك!

هند: ـ أخرجي من منزلي.

ريم بمثابرة: ـ سارة.. تغلبي على خوفك وتحدثي.. فلن تحميكِ سوى الحقيقة.

هند: ـ دعيها وشأنها.

ريم: ـ سارة؟؟

لحظة من الصمت سادت الجميع, ودون مقدمات خرجت نبرتها ضعيفة ولكن عازمة: ـ ابتعدي عن طريقي فأنا لا أعلم ما تتحدثين عنه.

رمقتها ريم بتحدي ثم انسحبت دون أن تعلق..

حالة عامة من الارتجاف اجتاحت جسدها.. ألقت بنفسها دون دعوة بين ذراعي هند ولكنها حقاً كانت تتوق للاختباء.. الاحتجاب.. الحماية.

انقبضت هند وظلت متصلبة دون حراك تبصر سارة المنتحبة بين ذراعيها..

آه من تلك المشاعر!.. هذا التعاطف الأحمق الذي يجتاحها كلما أبصرت هذا الكيان الهش, إنها تبكي كطفلة!.. كم هي ضعيفة تلك المرأة حتى بعد تدثرت للحظة برداء القوة تهاوت بهلاك..

كم تكره هذا الوهن, الخضوع, البحث عن جدار آمان دائماً وأبداً. أغمضت عينيها في محاولة يائسة للابتعاد عن تلك العاطفة المفعمة بالشفقة.. ولكن هذا لم يمنعها من أن تملس على خصلاتها بحنان أخت كبرى..

وبعد يوم واحد فقط, وبغرفة رئيس التحرير التي طالما تم توبيخها بين جدرانها كانت تقف بزهو وهو يتفحص الأوراق أمامه بصدمة.. رمقها بتفحص ثم عاد لأوراقه مرة أخرى قبل أن يرفع هاتفه متحدثاً بصوت واثق:

ـ مجدي.. هناك تعديل في العدد القادم.. افرد مساحة لمقال ريم الشاذلي متبوعاً باسمها وصورتها وتنويه عن المقال بالصفحة الأولى.. سيكون العنوان...

"زواج المتعة!"

الفصل الثامن

"نعم أيها السادة.. يُطلقون عليه زواج المتعة.. وأنا هنا لا أتحدث عن تلك الزيجات الشائكة التي تنشد الجسد بصك ملكية مشكوك بصحته, لا بل أتحدث عن آفة القبح المتجسدة بوطن أصبح للبيع بمحتوياته!

أحدثكم عن رجال استحلوا الأرض والعرض دون رادع, أحدثكم عن ميثاق فاسد بين جنونهم والسلطة ينشد الخلود ولكن بيدنا نحن سنجعله مجرد عقد للمتعة آن آوان تمزيقه"..

اتكأت بثقة على مقعدها بعد أن قرأت مقدمة المقال خاصتها وظلت تراقب الوجوه حولها وهي تلتهم بقية السطور, على الرغم من أن السبق لم يتضمن الأسماء حتى الآن إلا أن ما خطته كان كافي لحبس الأنفاس..

فهي سردت بمهارة رواية عن شقراء وقعت تحت براثن من لا يرحم.. مَن استحل امرأة من هو بمنزلة أخيه, مَن استقوى بسلطانه مَن أجل أهوائه, مَن نضع مصائرنا بين أيديهم كأمانة وهم أبعد ما يكون عن الأمانة.

ختمت حديثها بقوله عليه الصلاة والسلام

"ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته"

فكيف بمن أخل بمسؤولية أسرته أن يؤتمن على ما هو أكبر من ذلك!...

وضعت هند الصحيفة أمام سارة التي أصاب الجمود مقلتيها بمجرد أن أبصرت ما نضحت به السطور, تهاوت بيأس على المقعد خلفها..

ما بال تلك الحياة تأبى عليها الإطمئنان!

نظرت نحو هند في هلع فالخبر يحمل من التفاصيل ما سيثير جنون عاصم, بل يحمل وعد بما هو أكثر في الأعداد القادمة!..

زفرت هند بضيق ثم تابعت بعد أن أخذت الصحيفة مرة أخرى من بين أنامل سارة المرتجفة: ـ الآن فقط فهمت سبب زيارتها!

سارة: ـ ماذا!.. ماذا تقصدين؟

هند: ـ لقد جاءت إلى هنا لتتأكد مما استنتجته ليس أكثر.. رهبة ملامحك أكدت لها هواجسها.

سارة: ـ ولكنني أنكرت.. أنكرت كل شيء ولم أوافق على ما طلبت مني.

هند: ـ وهي الآن تحاول اجبارك على الحديث أم ربما... إغرائك.

سارة: ـ إغرائي؟!!

هند: ـ نعم.. فهي قدمتك كضحية سقطت دون رحمة تحت سطوة نفوذ لا يُقهر.. هل تعلمين كم البرامج والفضائيات التي ستلهث خلفك إذا ما ذُكر اسم عاصم الرازي؟!!

سارة: ـ وأتسبب بفضيحة لحالي!

هند باستهزاء: ـ هناك الكثيرات اللاتي لا يأبهن بمثل تلك الصغائر فقط ينشدن الظهور.. المال.. الشهرة.

سارة: ـ ولكن أنا.. أنا لا أريد هذا الهراء...

لم تستطع سارة أن تكمل عبارتها وانهمرت عبراتها رغماً عنها في يأس, تابعت هند بنبرة أكثر حناناً: ـ أنا أعلم أنكِ لستِ كذلك ولكن تلك الحمقاء لا تعلم هي تبحث عن نجاح مهني بشتى السبل.

جففت سارة عبراتها وتابعت: ـ والآن ماذا أفعل؟

هند: ـ لا شيء!

سارة: ـ كيف؟!

هند: ـ أنتِ لم تخبريها شيئاً ولن تخبريها شيئاً.. دعيها مع لغوها المبعثر على أرصفة الطرق.

سارة: ـ ولكن... عاصم..

قطبت هند جبينها وتابعت: ـ هي مشكلته مع من تظنه صيدها الثمين فليتصرف معها بأسلوبه وإذا جاء متوعداً سنكون له بالمرصاد.

سارة متمتمة: ـ سيعيدني بالقوة.. لن يغامر بحديثي, أنا على ثقة من ذلك.

هند بغضب: ـ كفاكِ استكانة.. هو الخاسر وليس أنتِ ولو فكر بالاقتراب منكِ ستكون فضيحته أمراً واقعاً وليست مجرد تخمين.

سارة: ـ حقاً أنا لا أود سوى الهروب من كل هذا العبث..

هند: ـ حسناً.. دعينا نلقي تلك الصحيفة بسلة المهملات وكأنها لم تكن.. سنستبدلها بهذه الأوراق.

سارة: ـ ما هذا؟

هند: ـ أنتِ طلبتِ مني أن أبحث لك عن عمل.

سارة: ـ نعم.

هند: ـ حسناً.. التهمي تلك الأوراق وطبقي ما تحتويه على هذا الحاسوب.

سارة: ـ وحدي؟!

هند: ـ ألم تخبريني أنكِ تستطيعين التعامل مع الحاسوب؟

سارة: ـ نعم ولكن بشكل مبسط للغاية.

هند: ـ والآن حان الوقت لكي تطوري من حالك.. أمامكِ عشرة أيام!

سارة: ـ عشرة أيام؟!

هند: ـ نعم.. فأنا سأحتاج مساعدة خاصة بعد عشرة أيام.. هيا الوقت يمر.

سارة: ـ وعاصم؟.. والمقال؟!

هند: ـ دعينا نراقب من بعيد وكأننا لا نعلم شيئاً.. ربما يتصرف هو مع المتطفلة بطريقته الخاصة!.

سارة: ـ هل تظنين أنه سيوقف النشر؟

هند: ـ لا أدرك قوة نفوذه.. ولكن ربما.

سارة: ـ وإن لم يستطع؟

تنهدت هند وتابعت بنبرة أكثر بأساً: ـ عندها سيعود للظهور بعالمك من جديد.. وبشراسة.

رمقت الحسناء على المكتب زائرها بضيق ثم تابعت دون أن تحيد بصرها عن الأوراق أمامها: ـ السيد عاصم يبحث عنك منذ ساعتين.. وهو غاضب بشدة.

ابتسم سعيد بمكر وهو يتفحصها ببطء متجولاً دون رادع على ملامح جسدها ثم تابع: ـ ما نوع العطر الذي تستخدمينه؟.. إنه رائع!!

رمقته الموظفة بغضب ثم تابعت: ـ هذا ليس من شأنك.

تبدلت ابتسامته لنظرة قاسية.. ربما متجانسة أكثر مع هيئته القبيحة, هو يعلم أنه ليس بالرجل الملائم لمثلها من النساء, فهو أعزب قارب على الأربعين.. أكثر ما يميزه تلك الشعيرات المتنافرة فوق رأسه الأصلع وجسده الذي شابته السمنة رغماً عنه منذ الصغر وجبهته المتعرقة دائماً وأبدًا.

هو كنز ثمين لهؤلاء من يبغين المال ولا شيء سواه, ولكن تلك المتحدثة بأربع لغات لا يفقه منهن شيئاً لا ينال منها سوى نظرات التقزز ولا يود منها سوى الخضوع وحتماً سيناله.

ابتسم بثقة عندما دلف لغرفة المكتب وأبصر مخدومه ثائراً كالبركان, قبل أن ينطق انفجر عاصم بغضب صارخاً: ـ أين كنت أيها الأحمق؟!

سعيد: ـ سيدي.. اهدأ أرجوك.

عاصم مزمجراً: ـ مر يومان على تلك اللعنة بالصحيفة وأنت تبتسم بكل برود.. هل فعلت ما أمرتك به؟

سعيد: ـ نعم.. وتوصلت لمعلومات ثمينة أيضاً.

عاصم: ـ أي معلومات؟

سعيد: ـ لقد أحضرت لك مسودة المقال القادم!

عاصم وهو يختطف الأوراق بنهم من قبضة سعيد الممدودة نحوه: ـ ماذا؟!

سعيد: ـ الفتاة أعدت موضوعاً كبيراً وفضل رئيس التحرير تقسيمه على عددين... للتشويق.

مر عاصم ببصره على السطور في هوس ثم تابع: ـ حتى الآن لم تذكر أسماء.

سعيد: ـ نعم.. ما زالت تتلاعب بالألفاظ ولكن...

عاصم: ـ لكن ماذا؟

سعيد: ـ لقد علمت أنها وعدت رئيس التحرير بسبق حواري مع صاحبة الخبر.

عاصم: ـ ماذا تقول؟!

سعيد: ـ هذا ما علمته سيد عاصم.

ضرب بقبضته في غضب على مكتبه, آخر ما ينقصه الآن تلك الباحثة عن الفضائح, تسرد ما يمتع العين ويثير الأفكار ويفتح أبواب البأس على مصراعيها.. ولكن كيف توصلت لتلك المعلومات؟..

هل تحدثت الغبية مع أحدٍ سوى هند أم أنها هي هند؟..

فرك جبهته بيأس وهو يلتهم السطور مرة أخرى, المتذاكية تتسلل لعقل القارئ بخبث فهي تتحدث تلك المرة عن عضو برلمان يخطو بثقة نحو مجتمع الصفوة ويشدو ما هو أكثر من عضوية حزب حاكم, تتحدث عن نفوذ المال والأعمال وعن ثقافة الاستقواء المتفشية بين أمثالهم..

الوصف ينطبق عليه وعلى بضعة أفراد مثله, إنها تُغلق الدائرة رويداً رويداً وتدثرها بغطاء ماكر من التشويق وسيجد نفسه في النهاية نجم الموسم بلا منازع.

تنحنح سعيد متابعاً: ـ حتى الآن لا يوجد لديها شيء.

عاصم مستهزئاً: ـ حقاً!!

سعيد: ـ هي تستند بشكل أساسي على المصدر.

عاصم: ـ نعم ويبدو أن المصدر قد نضح بما يملك!

سعيد: ـ ربما.. ولكن حتى الآن هي مجرد تكهنات ويجب أن نقضي عليها قبل أن تتحول لحقائق.

عاصم: ـ يطلقون عليها حرية الصحافة.. أصغر محرر الآن لو اقتربت منه سيحولونه لبطل.. والمركب متعثر بالفعل وسيلقون بك عند أول هفوة.

ابتسم سعيد بخبث: ـ سيد عاصم.. أنا لم أكن أتحدث عن الصحفية!

رمقه عاصم باهتمام: ـ ماذا تقصد؟!

ببريق الذئب عندما يبصر فريسته تابع سعيد بثقة: ـ ببساطة.. تخلص من المصدر!.

انتفض عاصم متعجباً وهو يوبخ مساعده بنبرة خافتة: ـ ماذا تقول أيها الأحمق؟!.. هل تريد أن تخلصني من فضيحة لأتورط بجريمة!!

سعيد: ـ عن أي جريمة تتحدث سيدي!.. امرأة تشدو الإنتحار فشلت في محاولتها الأولى وحتماً ستنجح بالثانية!!

صمت عاصم لوهلة متفكراً في عبارة خادمه الماكر ثم أردف باهتمام: ـ أكمل..

سعيد: ـ هذه المرأة تمثل خطورة دائمة.. اليوم تحدثت مع محررة بصحيفة صفراء ويعلم الله غداً مع من ستتحدث.. يجب أن تصمت.. وللأبد!

عاصم: ـ ولكن قتلها سيثير أنف الصحافة؟

سعيد: ـ سيتخبطون دون أرض صلبة للوقوف عليها, ولدينا بدلاً من الرجل خمسة سيقولون أنهم كانوا على علاقة بها وسيجزم كل منهم أنه والد الجنين, بل سنثبت حضور أحدهم معها ليلة الحادث بعيادة حسين سلطان!

ابتسم عاصم بخبث: ـ وهي لن تكون موجودة لتكذب ذلك..

سعيد مكملاً: ـ آه من تلك الصحافة الرخيصة يخوضون بسمعة العائلات العريقة فقط من أجل محاربة الرجال الشرفاء!

أردف عاصم: ـ هل لديك من هو أهل لتلك المهمة؟

سعيد: ـ بكل سلاسة.. ستحصل على لقب المنتحرة بعد عدة أيام!

عاصم: ـ سعيد.. لا يوجد مجال للخطأ لو وجدت أدنى شبهه بالقتل سأكون أنا الوجبة الرئيسية لصحف العاصمة.

سعيد: ـ لا تقلق سيد عاصم.. هي مجرد أيام وستتخلص من هذا الهراء إلى الأبد.

أسند عاصم رأسه على المقعد متفكراً في الخلاص من تلك المعضلة, نعم لا سبيل للخلاص سوى بالتخلص منها وكأنها... لم تكن.

ابتسم لها راغب بسكون وهو يتجول ببصره في أنحاء المكان متابعاً: ـ توقعت أن يقام الحفل بأحد الفنادق!

ارتشفت القليل من عصير البرتقال بيدها وتابعت: ـ وأنا أيضاً, الفندق حيث يقطن الوفد كان سيكون أكثر من مناسب.

صمتت بعدها.. شردت..

هي الآن بمنزله.. بل قصره.. لا ليس بمنزل ليس بقصر.. بل غابة وهو ملكها يستأسد بسطوته.. أمواله.. عبثه المتمثل في احتفال لا تدرك حتى الآن الغرض منه!

لمست الضيق على وجه راغب فهو غير معتاد على هذا النوع الصخب.. لقد وقعوا عقود وشراكات مع عدد من الشركات الدولية من قبل ولم يتطرقوا لاحتفالات من هذا النوع بموسيقاها الطاغية وحضورها المختلف الأجناس والألوان, هو لم يكن مجرد احتفال بتوقيع شراكة مع أحد الشركات الفرنسية الكبرى بل هو تقديم لنفوذ مجموعة الأنصاري التي تشعبت بأكثر من عشر دول حتى الآن.. أصبحت تشعر أن الشركة التي ترقت بها سلم النجاح حتى أصبحت أصغر مديرة للمبيعات ربما بمجالها هي كمركب صغير تولى راغب دفته وغاص بهم ببحر متلاطم الأمواج ينشدون النجاح حتى التصقوا رغماً عنهم بأسطول الأنصاري واضطروا لمواكبة الركب دون إرادة منهم.

ابتسمت بتساؤل عندما لمحت جبين راغب المقتضب وهو يعبث بهاتفه الجوال, قالت بنبرة هادئة: ـ ماذا هناك؟

راغب: ـ لا شيء.. فقط اطمئن على نانا.

هند: ـ ابنتك؟.

راغب: ـ العطلة الأسبوعية هي وقتها الحصري دون منازع.. تخلفت اليوم رغماً عني.

هند: ـ لا تقلق بمجرد أن نوقع العقد سنرحل من هنا سريعاً.

راغب بدهشة ممزوجة بسعادة: ـ نرحل!

هند: ـ نعم.. فأنا لا أحبذ هذا الصخب بدوري.

خرجت عباراتها عفوية, تبعتها بابتسامة متحفظة عندما لمحت بريق عينيه, لم تكن تقصد رحيلها معه أو من أجله بتاتاً.. كانت تفكر بسارة, فمنذ ما حدث وهي منكبة على أوراقها تدرس من أجل الوظيفة حتى لا تدع لعقلها مجالاً للتفكير.. تلك الـ "ريم" لم تتوقف عن الاتصال مراراً وتكراراً في محاولات لسحب سارة بشخصها لعرضها الهزلي على صفحات الفضائح, صراخ حاد أمطرت به أذنيها منذ يومين وتهديد صارم باللجوء للنيابة إذا ذكرت اسم سارة من قريب أو من بعيد.

زفرت بضيق فمنذ أيام أفردت الجريدة عدد آخر وكان به تلميح أقرب لشخص عاصم الرازي, لقد أخفت العدد عن سارة وأخبرتها أن المتطفلة توقفت عن النشر ولكن القلق مستبد بها حتى النخاع فعاصم لم يظهر ولا تعرف ردة فعله على ما حدث ويحدث..

قطع سيل أفكارها صوت راغب الأجش وهو يحادثها: ـ هند.. هند؟.

هند: ـ ماذا!..

راغب: ـ لقد شردتِ.. هل مللتِ الحفل أم صحبتي؟

هند: ـ بالتأكيد لم أمل صحبتك.

ابتسم راغب بحبور وأمطرها دون قصد بنظرة هيام تحاشتها هي الفور منشغلة بمراقبة صخب الجموع حولهما.

كان يقف مستنداً على أحد الجدران يراقبها بمكر.. منذ أن قرر إقامة هذا الإحتفال وهو ينتظر طلتها, يعلم أنها امرأة مميزة وستخطف الأبصار دون منازع, كانت ترتدي ملك الألوان؛ الأسود.. لون الغموض.. السحر.. التمرد.. الوحدة ..

نعم هو حقاً يليق بكِ يا هند, يبرز بخبث نقاء بشرتك الوضاءة, تبدين مهلكة بهذا النسيج المنسدل على تفاصيل جسدك مبرزاً أنثى خارج إطار المنافسة..

تنهد بعمق وعلت ثغره ابتسامة عابثة عندما لمح نظرات راغب نحوها..

آه من هذا النوع البائس من الرجال يتلون بمظهر الطيبة ويتدثر بهيئة الوقار وجنون عقله لا يفكر سوى بشفتيها!

أغمض عينيه براحة مستمتعاً بعطرها المتناثر حوله, عبق مختلط بمزيج سحري يحمل بين طياته جنون الياسمين ونكهة الفانيلا الحالمة وكلاهما مطعم بدفء خشب الصندل!

أهو عطر امرأة واثقة أم ربما جريئة أم هي خليط مهلك جامع بين الرقة والقوة والجمال!

ابتسم بعبث وحيا ضيوفه بفرنسية بليغة وهو يسحبها من ذراعها برقة بعيداً عن الجمع, ابتسامة كاذبة رسمتها على شفتيها حتى لا تثير الأقاويل ولكن بمجرد ابتعادهما عن الوفد تخلصت من سطوته ورمقته بنظرة حادة متابعة: ـ لا تفعل ذلك مرة أخرى.

ابتسم برضا خاصة عندما لمح نظرة الغضب على وجه غريمه الأربعيني وتابع:

ـ أفعل ماذا؟

هند: ـ لست دميتك لتقوم بسحبي هكذا أمام الجميع.

سيف: ـ بالتأكيد لستِ دمية!

شعرت بنظرة شديدة الغرابة من عينيه, مخيفة..

تراجعت خطوتين مبتعدة عنه فيبدو أن لعبة التحدي تلك ستقود كليهما نحو الجنون, قبل أن تستدير لتركه عائدة مرة أخرى نحو الوفد جذبها نحوه بقوة أكثر تلك المرة حتى شعرت بتملك قبضته حول خصرها.. تسارعت أنفاسها معبرة عن قلق وغضب ومشاعر متضاربة متصارعة بداخلها

همس بمكر: ـ عطر امرأة!

تملكت منها الدهشة: ـ ماذا؟!

سيف بهدوء: ـ أنا أعشق تلك المقطوعة.. يطلقون عليها عطر امرأة.

للحظة هربت منها الكلمات وظلت مكانها في حالة من الجمود لم يقطعها سوى خطواته الراقصة وهي بين ذراعيه!..

تخلصت من تملكه بغضب وتابعت: ـ ماذا تظن نفسك فاعلاً؟!

سيف: ـ أفتتح الرقص مع مديرة مبيعات أحدث شركاتي!

هند: ـ جد لنفسك عرضاً آخر.

تبدلت ملامحه لتصبح أكثر صرامة, صرامة أفزعتها للحظة فالمظهر العابث الذي اعتادته منه تبخر في دقائق, تابع وهو يحيط خصرها بتملك أقوى تلك المرة:

ـ لقد أخبرت الوفد لتوي أننا سنفتتح الرقص بمناسبة توقيع العقد.. وهم يراقبوننا فلا تجعلينا مثاراً للأقاويل.

زفرت بضيق.. الآن عرفت معنى لغوه الفرنسي قبل رحيلهما, واكبت خطواته الراقصة بجمود وملامح غاضبة أثارت بنفسه الانتصار فتابع بشراسة: ـ لم أكن أعلم أنني ما زلت أمتلك كل هذا التأثير!

هند: ـ ماذا!.. ماذا تقصد؟

سيف: ـ ارتجافك بين ذراعي.. رهبتك.. صخيب نبضاتك أم ربما هذا التوهج الغامض بوجنتيك!

أغمضت عينيها لوهلة.. غضب وندم وسخط من هذا الضعف المخزي الذي اجتاحها أمامه..

ابتلعت ريقها ثم رفعت رأسها نحوه في شموخ ترمقه ببريق قاسي أتبعته بنبرة مشاكسة: ـ ما زلت قابع بعالم الأحلام.

ابتسامة مشاغبة علت ثغره وهو يتحرك مع خطواتها القاسية في محاولة لمواكبة معركة الخطوات التي بدأت منذ وهلة تابع بخشونة: ـ الأحلام هي من سمة النساء فقط!

ابتسمت بمكر: ـ وهذا يجعل منك...

شراسة وبأس اعتليتا نبرته: ـ كفاكِ تحدي يا هند فقد أسحقك بقبلة الآن أمام الجميع لتتذوقي نكهة رجولتي التي تهزئين منها!

تابعت بجسارة: ـ لن تجرؤ.

رمقها ببأس: ـ مغرورة!

همست: ـ بل غرورك أنت هو الذي سيمنعك من افتعال فضيحة كتلك أمام حشدك الراقي.

ثقة وعبث وجنون هو ما يظهر على ملامحه الآن وهو يقترب منها غير عابئ..

انتفضت بفزع: ـ ماذا تظن نفسك فاعلاً؟!.

بهزل أردف: ـ تجولي ببصرك حولك لدقائق.. قد تلمحين الحشد المزعوم!

تمتمت: ـ ماذا؟!

أيقنت عندها أن كليهما بمنأى عن الحفل.. لا تدرك كيف سحبها بمكر بعيداً عن كل شيء وهي بحماقة غارقة بسجال كان هو به غريمها الأوحد..

وقبل أن تدرك أي شيء كان قد استأثر بقبلته كما وعدها!

تباً لهذا الشعور الذي غاب عنها لسنوات؛ الوهن.. السكون.. أم ربما الخضوع!

لا...

كافحت للتخلص من سطوته دون جدوى..

لا تعي ما به!.. أهي نزعة شوق أم رغبة خبيثة في كسر أنفها؟ تصفيق حاد كان هو الخلاص من التلك المعركة الغير متكافئة بالمرة!

بشرة ضاربة إلى السمرة وخصلات متوهجة ببريق شمس راحلة وشفاة ممتلئة مصبوغة بعناية وابتسامة مصطنعة غير ملائمة للموقف على الإطلاق..

ـ آسفة.. لم أكن أقصد أن أقتحم لحظاتكما الخاصة... جداً!

نبرة ماكرة وصوت رفيع من امرأة مجهولة بالنسبة إليها..

ابتعد عنها سيف لخطوات وهو يعبث بخصلاته بغضب, لتقترب صاحبة الحضور الباغت وتتأبط ذراعه بثقة..

شعرت هند أنها بدوامة.. على غير عادتها تقف مترنحة بين هجوم سابق وربما آخر قادم.. كان أقوى مما توقعت.. تلك اليد المبسوطة لمصافحتها بنقمة والنبرة الطاغية المقتحمة لأذنيها: ـ سيف كالعادة ينسى... أعرفك بنفسي كاريمان شوقي.. زوجته!.

استيقظت سارة بفزع على أنغام مقطوعة غاضبة أم ربما صاخبة, ضجيج.. تحدي.. حنق.. فزع.. ركض.. هروب..

وكأنها معركة مع النفس..

لم تكن تعلم أن تلك النغمات هي مقطوعة بيتهوفن الخامسة

"سيمفونية القدر".

نعم يطلقون عليها معزوفة ضربات القدر, دقات تقتحم عالمك دون هوادة, تدق أبوابك المغلقة باصرار..

وستصل إليك حتماً مهما اتخذت من سبل الحماية وعندها لن تجد لنفسك سبيلاً سوى المواجهة!

انتبهت للوقت فوجدتها السادسة صباحاً.. بقلق انتفضت من على فراشها وتوجهت لمصدر الصوت..

هناك بغرفة هند...

لمحتها في معركة غاضبة بينها وبين نفسها على أنغام مقطوعتها الصارخة, تركض دون هوادة متحدية السير الكهربائي تحت قدميها.. تزيد من سرعته لتواكبه عدواً.. تنتصر عليه دون اكتفاء فتضغط بهوس على مفاتيحه ليهرع بجنون تحت أقدامها.. كانت متعرقة من أخمص رأسها حتى قدميها, تعدو مغمضة العينين.. باكية!..

تلك هي المرة الأولى التي ترى بها دموعها..

بحماقة ندمت عليها بعد ذلك خرجت نبرتها القلقة: ـ هند!

لم تجبها.. هي لا تستمع سوى لموسيقاها ولا ترى سوى الغضب المتجسد أمام عينيها المغمضة!

اقتربت سارة منها بتردد وبنبرة أقوى نادتها: ـ هند.. هل أنتِ بخير؟

بعد ذلك لم تدرك فعلياً ماذا حدث وكيف حدث!..

بداية من انتباه هند لتلك المقتحمة لعزلتها حتى استدارتها المفزعة نحوها إلى تعثرها المؤلم من فوق جهاز عدوها الكهربائي..

تراجعت خطوتين للخلف عندما لمحت شرارة الغضب المتقدة بعينيها..

همهمت بارتجاف: ـ آسفة.. لم أكن أقصد.

جزت هند على أسنانها وهي ترمقها بغيظ ثم تابعت: ـ ماذا تفعلين هنا؟...

سارة: ـ لقد استيقظت على صوت الموسيقى وشعرت بالقلق و...

قاطعتها هند باستهزاء: ـ ماذا!.. شعرتِ بماذا؟!

سارة بتردد: ـ القلق.

هند: ـ القلق!!

سارة: ـ نعم.. قلقت بشأنك و...

هند مقاطعة: ـ وقررتِ اقتحام غرفتي بدافع القلق؟!

أومأت سارة رأسها بحيرة: ـ آسفة.

زفرت هند بضيق ثم نهضت لتقف بمواجهة سارة المرتبكة كالعادة ورمقتها بازدراء متابعة: ـ اسمعي.. أنتِ هنا مجرد زميلة مؤقتة في السكن ليس أكثر.. تلك المشاعر الحمقاء المفعمة بالاهتمام والقلق والصداقة لا أريدها بمنزلي!

ظلت سارة صامتة متأملة للأرض تحت قدميها دون جواب, تابعت هند بنبرة أكثر حدة: ـ هذه هي حياتي وأنا أعشقها كما هي.. وأنتِ... أُحصلي لنفسك على واحدة.. تحركي.. لا تنظري للخلف ولا تتوقفي, لأنكِ لو توقفتِ ولو للحظة.. لو استسلمتِ لهذا المصطلح الأحمق المسمى بالمشاعر ستتعثرين.. كالحمقاء ستتعثرين ولن تنالي شيئاً سوى المهانة.

كانت نبرتها غاضبة.. متحشرجة تشدو البكاء..

نظرت نحوها سارة برأفة وابتسمت مومئة برأسها دون جواب.. شعرت لحظتها أن دثار هند القاسي هش للغاية وقد يتحطم تحت أقل ضغط, كانت توقن أن هند لا تحادثها هي تلك المرة بل تحادث نفسها.

وبالفعل ببعض الأوقات قد يكون الصمت أبلغ من كل الكلمات, وصمتت سارة وانسحبت بهدوء بل انزوت بغرفتها حتى سمعت صفعة الباب مُنبئة عن رحيل غاضب وثورة لم تخمد بعد..

ربما تكون قليلة الخبرة.. حسنة النية لحد الحماقة.. تفتقر لدهاء الأنثى.. ولكن قطعاً هي الآن تعلم أن مُصاب هند خلفه... رج .

عندما تتفنن في مراقبة شخص ما, رصده, التقاط انفعالاته فإنك تحفظ عن ظهر قلب تفاصيله, تُدرك ما يغفل عنه الجميع من اختلاجات وجهه, تعابيره ..

وهذا هو حاله معها.. صاحبة الخصلات المتانثرة دون تنسيق, هي لوحته الفطرية الخاصة دون صبغات.. دون رتوش..

يعشقها كما هي.. يعشقها على الرغم من غطرستها.. طموحها الجامح.. ثقتها الزائدة بنفسها..

فهو فقط يرى الحقيقة التي تسعى جاهدة لإخفائها عن الجميع...

هي أنثى في غاية الضعف!

رمقها بتفحص وهي تجلس بشرود على مقعدها, أسبوعان أصبحت هي بهما تميمة حظ الجريدة, عبارات التهنئة ونظرات الحسد نالت من كليهما ما يزيد عن الحاجة والجميع بانتظار العدد القادم..

القنبلة كما نوهت عنها الصحيفة.

ابتسمت باقتضاب عندما لاحظت تجسس عينيه, تابع بحماسة مصطنعة:

ـ الجميع بانتظار القنبلة!

ريم: ـ ماذا؟..

رامز: ـ العدد القادم.. باقي الحكاية.

ريم: ـ ليس بهذا العدد.. الأسبوع التالي.

رامز: ـ لماذا؟

ريم: ـ لم يجهز بعد.

رامز: ـ هل حقاً سننفرد بحوار صحفي مع الفتاة؟.. وافقت على الظهور؟!

قامت متأففة: ـ لم أقرر بعد يا رامز.

تابع بخبث: ـ هو قرارك إذاً؟..

رمقته بحدة: ـ بالطبع.

تلفت حوله وعندما لاحظ انشغال الجميع بأمورهم اقترب منها هامساً: ـ ريم.. هل واقفت الفتاة على النشر؟

ريم: ـ وافقت أم لم توافق ما شأنك أنت!

رامز: ـ ريم!!

ريم: ـ الأسبوع القادم هيئ نفسك لقنبلة, إن لم تأتِ وتلقها هي.. سأفجرها أنا!

هز رامز رأسه بيأس متابعاً: ـ يا الهي.. ريم ماذا فعلتِ؟!

بإصرار أردفت: ـ قمتُ بتأدية عملي!

بدا أكثر حدة وتخلى عن نظرة الهيام التي طالما أمطرها بها متابعاً: ـ أي عمل هذا؟!.. أنتِ تفضحين الفتاة رغماً عنها!

ريم: ـ ما هذا الهراء!.. لقد تعثرت بخبر الموسم ولن أتركه.

رامز: ـ والفتاة؟

ريم: ـ أنا أساعدها.. هي ضحية وليست بجاني..

ردة فعله كانت مفاجئة لها, لا بل هي حمقاء لأنها لم تتوقعها.. من بين كل تلك العبارات اختارت لفظ المساعدة لتقذفه بوجه رامز! قهقهة وضحك هستيري انتابه حتى كادت تدمع عيناه..

جذبته بعيداً عن الجميع , تابعت بجدية: ـ الصحفي الفاشل هو من يعتمد فقط على المصدر المباشر.. وأيضاً أنا لا أساعدها هي فقط بل أساعد مثلها

الكثير من النساء اللواتي يخضعن دون إرادة لبطش السلطة والمال.. يتوارين كخطيئة وهن في الأصل صاحبات حق.. هو ليس مجرد مقال رامز هو صفعة على وجه مجتمع يستعرض قوته فقط على ما يظن أنه ضلعه الأعوج.

على نقيض ما تمنت لم تؤثر كلماتها به, بل قابلها باستخفاف ضارباً كفيه ببعضهما في حالة ساخرة من التشجيع الحار!

ابتسم بقسوة وهو يتابع: ـ كم أعشق المساعدة المشروطة!

ريم: ـ مشروطة؟!

تراجعت للخلف برهبة تختبرها للمرة الأولى معه..

عيناه تمكن منهما الاحمرار ونبرته شابتها الحدة, نبرته خافتة ولكنها قوية.. مخيفة: ـ هل نسيتِ نغمتك الخاصة.. أنا لا أكذب ولكني أتجمل.. لو كنتِ تودين مساعدتها عن حق لما تاجرتِ بجسدها على صفحات الجرائد!

رمقته بغضب واقتربت منه محذرة: ـ رامز.. أنا لا أسمح لك.

قاطعها مكملاً: ـ استمتعي بنصرك يا ريم.. بسبقك الصحفي.. هذا هو المهم.

صمتت لوهلة ثم أوقفته بجملة صارمة قبل أن يتركها: ـ اسمها سارة.

رامز: ـ لا أهتم!

ريم: ـ اسمها سارة وليس أسماء!!

تصلبت ملامحه وابيضت قبضته من شدة ضغطه عليها, تابعت دون تراجع: ـ هل سمعت؟.. هي سارة وليست أسماء.

استدار نحوها وقد نجحت في اخراج مارد مختبئ بداخله منذ سنوات, تابع ببأس شديد: ـ يالـ الأسف.. كنت أظنك مختلفة ولكنكِ ببساطة أنا... نعم أنا منذ ثلاث سنوات!.

تركها دون أن ينظر خلفه, رآها مجرد رهان خاسر بينه وبين نفسه, راهن على قلب الأنثى بداخلها ولكن الآن أدرك أنه مجرد أحمق.. أحمق كما كان منذ سنوات عندما دهس طموحه أنثى أخرى دون اكتراث.. أسماء.

ابتسم للحارس باقتضاب ثم عاد لتصفح الجريدة بيده دون انتباه لباقي ثرثرته الواهية.. فمنذ أن استأجر المكان والرجل لا يكف عن الحديث..

كان يبدو كغنيمة مسلية في البداية يتحدث عن هذا وذاك فمنه علم أن صاحب العقار رجل طاعن في السن ولم يعد يظهر إلا نادراً, وأن أسرة رجل الدين بالطابق الثالث يبخلون عليه بينما يغدقون بخيراتهم على تبرعات المساجد, وعن المحامي الشهير وزوجته الثانية بالطابق الأرضي.. هو بئر معلومات لا ينضب عن سكان العقار..

لم يثير انتباهه سوى حديثه عن المرأتين بالشقة المجاورة, إحداهما خشنة الطباع وهي صاحبة الشقة ولا تتحدث مع أحد بالمبنى والأخرى ظهرت فقط منذ حوالي ثلاثة أسابيع ولم تغادر المنزل من وقتها.. جميلة هادئة كما وصفها الحارس وكما رآها هو منذ أيام من خلال شرفته.. هي لا تخرج للشرفة سوى لحظات قليلة جداً تقوم بري بعض النباتات وتعود أدراجها على الفور بارتجاف!

لم يتبين من ملامحها الكثير فرأسها مغطى بوشاح رقيق فيروزي اللون ونظراتها لم تتجول للحظة حولها فقط تتم مهمتها وتهرع للداخل..

تنحنح الحارس السمين وهو يبتسم بحبور منتظراً عطيته بعد أن أحضر ما طلبه منه من بعض المأكولات والفواكه وبالطبع السجائر..

رمقه أدهم بمكر ثم ألقى بين كفيه حفنة من الأموال وعاد مرة أخرى لتصفح جريدته..

بصوت مجلجل تابع الحارس وهو يحصي نقوده: ـ هل تحتاج شيء آخر سيدي؟

أدهم: ـ لا.. اذهب أنت الآن.

كانت الساعة قد تعدت العاشرة صباحاً بوقت قليل, زفر بضيق فهو غير معتاد على الاستيقاظ بهذا الوقت المبكر, ارتشف القليل من قهوته ثم نثر دخان لفافته في الفراغ حوله في محاولة للاسترخاء قبل أن يحين موعده الهام..

دقائق وانتفض بعدها على صوت صراخ.. ظل جامداً مكانه لوهلة.. الصراخ مستمر.. صاحبته في ذعر.. لا بل محاولة يائسة للهروب, توجه مسرعاً للشرفة فالصراخ الحاد من الشقة المجاورة, منها هي صاحبة الوشاح بلون الفيروز!..

الفصل التاسع

مر من الوقت ساعة.. لا بل أقل.. لا.. لا بل أكثر من ساعة..

ما بها؟.. ماذا يحدث؟!

هي بسيارتها قابعة دون حراك, لم تستطع الاقتراب من المبنى..

تريد ولكن ببساطة لا تستطيع!..

أطرقت رأسها وعادت مرة أخرى لذكرى ما حدث, صبت جام غضبها على سارة المسكينة وهرعت مسرعة هاربة من منزلها!

كانت تود الانفراد بنفسها ليس أكثر ولا أقل ولكنها في النهاية انفردت بدواسة البنزين منطلقة دون هوادة حتى انتهى بها الأمر متجمدة أمام محل عملها تخشى الدخول.. أم ربما المواجهة.. مواجهة رجل "كان" ولكنه يصر على كلمة واحدة "سيظل"..

بحركة لا إرادية تحسست شفتيها.. حمقاء, غبية, خاضعة لمتباهي بقوته في لحظته الخاصة من الرجولة..

ألقت نظرة أخيرة على المبنى ثم غادرت فليس بها قوة اليوم لمواجهة جسارته.. أدارت محرك سيارتها وقررت العودة..

نعم هي فقط تود العودة للمنزل.

كعادتها كل صباح بعد رحيل هند تتناول إفطارها ثم تقوم بري النباتات بالشرفة وتنشغل بأوراقها ودراستها من أجل الوظيفة..

ولكن اليوم تشعر بشيء مختلف, قلبها منقبض.. ربما هي قلقة على هند التي غادرت تحمل أطناناً من الضيق, أم ربما هي قلقة من عاصم الذي لم يظهر ولم يتصل منذ ما حدث.

أفكار وهواجس تتجول دون رادع برأسها الصغير وهي تراقب هذا البخار الساخن المتصاعد من غلاية المياه, كانت تعد شراب الياسمين الساخن؛ كوب من هذا المشروب السحري كفيل بإعادة الهدوء لهذا العقل المرتجف ولو بشكلٍ مؤقت.

ارتشفت القليل وهي ما زالت واقفة بمكانها وقبل أن تستدير عائدة أدراجها شعرت بذراع فولاذية تطوق رقبتها وتسحبها للخارج..

صرخة مكتومة خرجت منها وتناثرت قطع الكوب بمحتواه الساخن فوق قدميها مما أطلق العنان لصرخة أخرى أقوى فقد كانت ممزوجة بالألم.

يقال أن أسوأ كوابيسك على الإطلاق تلك التي تتكرر, ولكن في حالتها لم يكن كابوس متكرر, بل واقع.. وكأنها بمطبخها تعد القهوة من أجله, وتلك الذراع الفولاذية تعتصر خصرها مرة أخرى وكالعادة خرجت صرختها مكبوتة.

مشهد مهين يمر داخل عقلها بتفاصيله..

انتفضت.. صرخت بقوة رغم بطش القبضة التي كتمت أنفاسها, ركلته بساقيها في محاولة يائسة للخلاص.. ولكن دون جدوى..

كان يسحبها بعنف وهي غير مدركة ماذا يحدث, ولكنها بعد وهلة أيقنت أن الهجوم الحالي يختلف بالقطع عن السابق خاصة بعد أن حملها مهاجمها على كتفه ليتوجه بها نحو الشرفة!

كاد أن ينتهي كل شيء لولا حركة المفتاح وانفراج الباب عن

زائر!

المشهد عبثي بتفاصيله؛ مزهرية طائرة وجسد متهاوي وآخر مترنح, دماء, صراخ, عراك.. هند التي عادت في غير موعدها لتجد سارة محمولة على ذراع غريب في رحلة دون عودة نحو شرفة منزلها!.. وسارة التي أطلقت صرخة مدوية عندما تبدلت الأدوار وبدأ المعتدي في مهاجمة هند..
والمعتدي التي فاجأته هند بضربة قوية على رأسه بمزهريتها الثقيلة فترنح جسده رغماً عنه ملقياً بسارة من على كتفيه ومنشغلاً بدمائه أولاً وبالتخلص من مهاجمته الشرسة ثانياً..

كان يود الهروب ولكن هند لم تعطه فرصة هاجمته مرة أخرى بغية في تعطيله فجثا بجسده الثقيل فوقها وقد تمكنت قبضتاه من رقبتها.. بدأ الشحوب يتمكن منها وخارت قواها وشعر هو بسطوته فلم يبالِ بشيء ولا حتى بمحاولة سارة اليائسة لدفعه وصراخها الذي اخترق الجدران..

كاد ينطفئ كل شيء في لحظات وسارة تثابر بدموع ألقت فوق بصرها بسحابة من اليأس الذي تبدد فور ظهور آخر من العدم!. شاب يقترب منهم مسرعاً..

غريب آخر!

غريب أنقذ للتو كلتيهما.

الصراخ الحاد من الشقة المجاورة.. من المرتجفة صاحبة الوشاح الأزرق..

استطاع بوهلة المرور بين الشرفتين, فالمسافة قريبة للغاية, بل قريبة أكثر مما ينبغي.

لم يكد يخطو داخل المنزل حتى لمح ما هاله على الفور.. فتاتين؛ احداهما صارخة بفزع والأخرى في صراع غير متاكفئ مع صاحب الجسد الأقوى في المعركة..

لم يأخذ وقتاً طويلاً في التفكير فطالما كانت تلك هي ميزته..

تقدم نحوهم بخطى ثابتة وفي لحظة فاجئ الرجل بلكمة على وجهه, لكمة كانت البداية لدخوله كطرف بتلك المعركة..

لكمة قوية باغت بها وجه المعتدي ليزيحه بعيداً عن هند, كان رجلاً ضخم الجثة فطوله يتراوح بين مائة وثمانون سنتيمتراً ومائة وتسعون والوزن يبدو أنه تعدى المائة كيلو جرام, ولكنه هو أيضاً ليس برجل ضعيف فقبضته حطمت أنف الضخم وأسالت منها الدماء..

زمجر الرجل غاضباً ليداهمه بضربة أقوى كادت أن تكسر أحد أضلعه, وهكذا ظلا كلاهما يكيلان لبعضهما الضربات حتى استطاع الأخير الفرار بعد أن جرحه بسلاحه الأبيض.

عاد أدراجه لهما بعد ثوانٍ من محاولته اللحاق بالجاني, كانت هند ما زالت ممددة على الأرض ممسكة برقبتها وبعناء تسعى للتنفس مرة أخرى وسارة رغم ألم قدميها كانت بجانبها تربت على ظهرها وتطمئن عليها..

صوته الأجش لفت انتباههما, بنبرة جادة أردف: ـ هل أنتما بخير؟

سارة بارتجاف: ـ نعم.

تركهما على الفور وتوجه للمطبخ ليعود بعد دقيقة ومعه كوب من الماء من أجل هند وبعض الثلج من أجل قدمي سارة اللاتي بدا عليهما الاحمرار مما أصابهما من حروق..

ابتلعت هند بعد الماء وما لبثت أن استجمعت قواها مرة أخرى لتنتفض متسائلة:

ـ هرب؟

كان هو يساعد سارة في وضع بعض أكياس الثلج عندما استشعر ألمها الشديد, تابع مجيباً لهند: ـ نعم.. حاولت اللحاق به ولكنه كان قد اختفى.

ضربت قبضتها بغضب على الأرض متمتمة: ـ اللعنة!

تابع أدهم: ـ يبدو أنه لص.. هل سرق شيء ثمين؟

توجهت هند بنظرة حانية للتتابع: ـ كاد.. كاد أن يسرق شيئاً ثميناً.

صمتت لوهلة ثم رمقت أدهم بحدة: ـ من أنت؟.. وكيف دخلت إلى هنا؟!

ابتسم بثقة متابعاً: ـ اسمي أدهم شاهين وأنا جاركما بالشقة المجاورة, سمعت صراخاً حاداً واستطعت المرور بين الشرفتين.

أومأت هند رأسها: ـ فهمت.

استدار أدهم لسارة التي تفاجأت بتلك المقلتين ببريق العقيق تطيلان النظر نحوها قبل أن يتابع: ـ هل أنتِ بخير الآن؟

أومأت رأسها بالإيجاب دون أن تنطق, تابع بعدها: ـ حسناً.. أنا بالخدمة إذا احتاجتما لأي شيء.. ربما إفادة بالشرطة.

كانت هند واجمة محدقة في الفراغ , أردفت وكأنها تحدث نفسها: ـ كيف دخل؟!.. ماذا حدث؟

توجهت بنظراتها نحو سارة علها تحصل على جواب, زفرت سارة بارتعاش منتقلة ببصرها بينهما لتتابع: ـ لا أعلم.. لقد كنت بالمطبخ أُعد مشروب ساخن عندما فاجأني بهجومه.

هند: ـ جاء من أجلك؟

سارة ببأس: ـ نعم.

كان أدهم يراقبهما بتحفظ, تابعت هند بعد أن تمكن منها الغضب بقوة تلك المرة:

ـ لن يمر الأمر.. لن يمر!

سارة بجزع: ـ ماذا سنفعل؟

هند: ـ أولاً: يجب أن ألقن تلك المتسلقة درساً.

سارة: ـ ريم؟

هند: ـ وهل يوجد غيرها!

سارة: ـ ماذا ستفعلين؟

فركت هند جبهتها بيأس, بتلك اللحظة لم تكن تفكر بـــريم.. بل عاصم, تابعت:

ـ لا أعلم.. ربما علينا أن نقدم بلاغاً عن الاقتحام.. ربما علينا أن نتهمه!

تراجعت سارة للخلف منكمشة, أغمضت عينيها في قنوط وتهدجت أنفاسها في فزع عندما تذكرت ما حدث وما كاد يحدث...

تابعت هند باصرار: ـ يجب أن أزور تلك الـ "ريم" أولاً.. هل تستطيعين المجئ؟.. لا يجب أن تظلي وحدك.

سارة: ـ حسناً.

حاولت هند النهوض من على الأرض ولكن ما إن اتكأت على ذراعها تأوهت بألم...

سارة: ـ ما بكِ؟

أدهم: ـ هل ذراعك بخير؟

رمقت هند أدهم بدهشة: ـ أنت!.. ما زلت هنا؟

أجاب ببديهية: ـ نعم.

تابع متوجهاً نحوها: ـ ذراعك قد يكون مكسوراً.

هند: ـ لا.. لا.. ليس بكسر ربما إلتواء بسيط.

أدهم: ـ ولكن كيف ستخرجين بحالتك تلك؟!

هند: ـ أشكرك على اهتمامك, سيد أدهم.. ولكن صدقني أنا أستطيع جيداً الاعتناء بنفسي.

أدهم: ـ أنتِ تحتاجين للذهاب للمشفى وهي أيضاً فقدميها تؤلمانها.

قاطعته سارة: ـ لا.. أنا بخير الآن.

هند مشيرة لقدميها: ـ كيف حدث هذا؟

سارة: ـ لقد أوقعت مشروب الياسمين عندما تفاجأت بهجومه وتناثر السائل الحار فوق قدميّ.

أجابتها هند ساخرة: ـ ليتك قذفته بوجهه!

صمتت سارة..

هند محقة ليتها استطاعت الدفاع عن نفسها, ولكنها ليست سريعة البديهة مثل هند التي في لحظات قذفت رأس الرجل بمزهرية ثقيلة أفقدته توازنه وربما استطاعت الانتصار عليه ولكنها كانت تواجهه وحدها, فهي كالعادة لم تمتلك سوى النحيب والصراخ..

قطع أفكارها صوت أدهم محدثاً هند: ـ حسناً.. سأوصلكما حيث تريدان.

هند: ـ أشكرك سيد أدهم.. ولكن نحن نستطيع تدبر حالنا.

أدهم: ـ وأنا لا أستطيع ترك سيدتان مثلكما بتلك الظروف.. سأنتظركما بالأسفل في سيارتي.

هند: ـ ولكن...

قاطعها: ـ عفواً سأعود أدراجي من حيث جئت.. أراكما بعد دقائق.

رمقهما بابتسامة غامضة ثم عاد أدارجه للشرفة ومنها إلى شقته!.. زفرت هند فلم يكن بعقلها مساحة لتفسير تصرفات هذا الجار الذي ظهر من العدم..

فالأفكار لا تحمل سوى شخصين..

عاصم وريم.

وجدتاه بالفعل منتظراً أمام البناية, لم يكن أمامهما بديل سواه..

فــهند حقاً لن تتمكن من القيادة بهذا الذراع التالف وتحاملها عليه, استقرت هند بجانبه وسارة بالمقعد الخلفي...

كانت قد بدلت ملابسها ولكنها إحتفظت بوشاحها الأزرق الذي أصبح يميزها..

الآن تبين ملامحها بوضوح أكثر؛ برودة الجو والرهبة المتمثلة في نبضات قلبها المتسارعة أيقظت بوجهها الدماء فبدت حُمرة وجنتيها فاتنة, شفتيها برغم ارتجافهما إلا أنهما تبدوان كفاكهة كرز حان وقت اقتطافها, خصلات ذهبية اللون هربت بمكر من تحت وشاحها مُنبئة عن شعاع شمس متناثر على كتفيها تفردت به تلك المرأة عن سواها.

أخرجه صوت هند وهي تمليه العنوان عن متابعة أيقونة أفروديت المحتجزة بين أبواب سيارته..

ابتسامة ساخرة علت ثغره ليتوجه بعدها مباشرة نحو جريدة الخبر.

استدارت نحوها هند ثم قالت بحُنُوّ: ـ سارة.. انتظريني هنا.. سأصعد وحدي.

سارة: ـ ولكن..!..

هند مقاطعة: ـ أنتِ بطلة عرضها الخاص.. ظهورك لا يجوز..

على الأقل الآن..

أذعنت سارة لرغبة هند وانكمشت في مقعدها بعقل شارد, تابع أدهم بعد أن رمق كلتيهما بحيرة: ـ سننتظرك هنا.

شكرته هند وتوجهت متحاملة على ألم ذراعها نحو المبنى..

بعد صعود طابقين وجدتها؛ مكان متواضع لجريدة فضائح ليس أكثر وهي كانت أمام مكتبها المكدس بفوضى من الأوراق المبعثرة.. قبل أن توقن ريم ماهية الجسد المقترب منها أصابتها لكمة قوية مباشرة بوجهها!..

لكمة لا تليق بفتاة مثلها وحتماً لا تليق بصارخة الأنوثة التي جذبتها بعد ذلك من قميصها حتى كادت تمزق أزراره مانحة للحشد حولهما عرض صباحي لا يُفَوَّت!.

انتفضت ريم بغضب متحاشية جنون تلك النمرة الشرسة وهي تصرخ: ـ ما بكِ أيتها المعتوهة؟!

تابعت هند وحمرة الغضب متمكنة من عينيها: ـ معتوهة!.. صدقيني أنتِ لم تختبري جنوني بعد!

استشعرت ريم كارثة من نبرتها تابعت بحذر: ـ ماذا حدث؟

هند: ـ أردتِ سبق صحفي؟!.. استمتعي إذاً بنكهته المطعمة بالدماء!

قبل أن تجيبها شعرت بالفعل بطعم الدماء بفمها فقبضة هند تلك المرة كانت تحمل من الغل ما يفوق قوتها..

لم يكتفِ الحشد بعد هذا بمجرد المشاهدة انقضوا عليهما في محاولة لتخليصها من تلك الجميلة الشرسة التي كادت تفتك بها, كانت أنفاس بسمة قريبة منها لحد غير محتمل؛ تجفف دمائها باهتمام والسعادة الممتزجة بالفضول تشع من عينيها..

ابتعدت عنها بل وأزاحتها عن طريقها متوجهة نحو هند التي كانت تمطر أحد زملائها بوابل من الشتائم!..

ابتسامة ساخرة اقتحمت شفتيها المدمتين فالأحمق استغل الفوضى ليلتصق بالجميلة والذريعة الدفاع عنها!.. مجرد كائن شهواني ليس أكثر ويستحق ما ناله من إهانة, والجميلة أيضاً استحقت لمساته الغير عفوية فهي مثل كثيرات تستعرض مفاتنها من أجل أنواعه من الطفيليات..

توجهت نحوهما بجدية غير عابئة بجروحها لتسحب هند بعيداً عن الجمع المتحير, رمقتها بحدة ثم كررت سؤالها: ـ أسألك.. ماذا حدث؟

زفرت هند بضيق ثم تابعت: ـ كادت أن تكون دماء سارة.

ريم بتحفز: ـ ماذا؟!

ركزت هند بصرها عليها ثم تابعت بنبرة لائمة: ـ سبقك أيتها الباحثة عن الفضائح..

عادت خطوتين إلى الوراء حتى التصقت بالحائط وبعكس ما توقعت هند بدا الضيق والذهول على ملامحها لتتمتم بعدها: ـ يا الهي!

تابعت هند ساخرة: ـ أهنئك فأنتِ لم تحصلي فقط على خبر الموسم ربما جريمة الموسم أيضاً!

انتفضت ريم: ـ هي بخير؟.. أليس كذلك؟؟

هند مستهزئة: ـ قلقة من أجلها!

بدت نبرة ريم حادة: ـ أين هي؟

هند متحدية بدورها: ـ هذا ليس من شأنك.

ريم: ـ أصبح شأني الآن.

هند: ـ سأحميها.. منكِ ومنه ومن هذا العالم القاسي.. سأحميها.

دلت هند بدلوها وهمت تغادر ولكن ريم استوقفتها متابعة: ـ لا سبيل لحمايتها منه الآن سوى المواجهة!

حركت هند رأسها بيأس: ـ أنتِ غير محتملة!.. ما زلتِ تبحثين عن نجاحك.

ريم: ـ تحدثي لصحفي آخر, بل جريدة أخرى.. لا أهتم.. ولكن يجب أن تتحدث فهذا هو السبيل الوحيد لحمايتها.

هند: ـ أنتِ تبدين ذكية بالمقارنة بمظهرك ولكنكِ تفتقدين لمهارة القراءة!

ريم: ـ ماذا؟!

هند: ـ اقرئي عدوك... قد يحمل لغوك بعض المنطق مع رجل رزين ولكن مع هذا الرجل يجب أن تضعي نصب عينيك جميع الاحتمالات.

تنهدت هند ثم تابعت: ـ احتفظي بنصائحك لنفسك.. فقط ابتعدي عن طريقها.

ريم بنبرة عالية بعد أن ابتعدت هند خطوات بالفعل من أجل الرحيل: ـ حسناً.. سأبتعد.. ولكن سأقول لكِ عبارة أخيرة.. رزين أم غير رزين, أبلغي الشرطة عندها فقط لن يستطيع الاقتراب منها.

استدارت هند نحوها وقد أثارت الكلمات انتباهها, تابعت باهتمام: ـ تقصدين شكوى؟

ريم: ـ نعم.

هند: ـ صحافة وشكوي.. أنتِ مصممة على اقحامها بفضيحة.

ريم: ـ الآن لا يوجد خيار.. الموت أو الفضيحة.

لم تكد ريم تكمل عبارتها حتى لمحت سارة تراقبهما بعيون دامعة, تمتمت ريم بحنان: ـ سارة!..

وقبل أن تُكمل وقبل أن تستدير هند نحو صديقتها,

أطلقت سارة ساقيها للريح متحاملة على ألمها دون وِجهة..

الرجل.. هذا الكائن خشن الصوت قوي البنية صارم الملامح..

لم يكن له حضور فعلي بعالمها, فمنذ فقدت والدها وهي حبيسة سجن نوال؛ تخرج بموعد وتعود بموعد, ليس لها من الصديقات سوى واحدة أو اثنتين, لم تختبر يوماً حب أول ولا نظرات عشق من جار بربيع عمره.. فقط قدمتها نوال كعروس حلوى من أجل أسامة.. أغمضت عينيها ساخرة فهي ربما تحفظ ملامحه ولكنها لا تتذكر تفاصيله.. بل لا تعلم تفاصيله.. اختلاجاته.. تعابيره.. ابتسامته.. عبوسه..

هو رجل ظهر بعالمها أيام معدودة من أجل غرض واحد ليس أكثر مثله مثل عاصم الذي دمر عالمها من أجل ذات الغرض.

كانت غارقة بغيمتها الخاصة من الذكريات, تكافح بشدة في حبس عبراتها خاصة أمام هذا الرجل الغريب عنها المترصد لملامحها من المرآة.. كلما رفعت بصرها اصطدمت بنظراته الغير منقطعة, انقبضت.. شعرت بالقلق.. الخطر..

ودون سابق إنذار قررت الترجل من السيارة.

اعترض طريقها قبل أن تبتعد أمتار قليلة: ـ أين ستذهبين؟

تراجعت خطوتين إلى الوراء مبتعدة عنه وتابعت باضطراب: ـ سأصعد.. لهند.

أدهم: ـ ولكنها طلبت منكِ انتظارها هنا.

بعفوية كادت أن تبرر تصرفها ولكنها استدركت نفسها مبتعدة عنه ومردفة باقتضاب: ـ أعلم ذلك.

تركته مسرعة لوجهتها, بداخلها هي مبعثرة.. تتحرك دون هدف. وجدت نفسها تسأل عن ريم وتستقل المصعد بتردد, بل أنها عادت بالمصعد نزولاً بعد أن وصلت ثم صعدت مرة أخرى..

نبرة هند الغاضبة هي من قادتها نحوهما, عبارة ريم الأخيرة كانت بالفعل هي القشة التي قصمت ظهر البعير..

وجدت نفسها تبتعد عنهما غير مبالية بندائهما, بل غير مبالية بملاحقتهما لها.

متعثرة بقدمين باليتين سعت دون وعي للهروب.. استقلالها للمصعد حال دون وصولهما إليها, اقتحمت هند الدرج مسرعة وريم خلفها حتى خرجتا من المبنى ولكن لا أثر وكأنها تبخرت!

توجهت هند نحو أدهم الذي كان مستنداً على سيارته غائماً وسط دخانه الأزرق ومولياً ظهره للمبنى, صرخت هند بغضب: ـ أين سارة؟

استدار أدهم في دهشة: ـ ما... ماذا؟!.. لقد صعدت خلفك.

هند: ـ خرجت لتوها.. لم تلمحها؟

أدهم بغضب: ـ لا.

سألتها ريم بضيق: ـ أين تظنينها ستذهب؟!

كانت هند تتلفت حولها تحاول البحث عنها, أجابت بغضب: ـ الجحيم!.

بحدة صقر كان هو يتجول بنظره بحثاً عنها, دائرة قطرها مائة وخمسون متر رسمتها عيناه, بقدميها الضعيفتين لن تبتعد أكثر من ذلك, وبالفعل في

غضون لحظات أبصر وشاحها الأزرق يتخبط بين المارة؛ كانت تركض مترنحة.. تصطدم تارة بامرأة عجوز فتربت بحنان على كتفيها, وتارة أخرى بشاب عابث يفتح ذراعيه من أجل التقاطها.. وهي.. هي خائفة من كل هؤلاء.. هاربة منهم جميعاً ومن نفسها, بل من ذرات الهواء التي تأبى اقتحام أنفاسها كالعادة. خطواتها تضعف كلما ابتعدت والعالم أمسى ظلاماً والوجوه متكررة, فهي مرة أخرى تصطدم بالعجوز, وبعدها عادت بين ذراعي الشاب.. تنتفض لتجد نفسها بين ذراعيه.. أنفاسه الكريهة تتذكرها عن ظهر قلب.. عاد عاصم ليحيطها بغضب.. تلك المرة سيقتلها بنفسه.. سيهديها الموت الذي تمنته من قبل..

هي تسعى للهروب دون جدوى.. كم مؤلمٌ أنت أيها الهذيان..

وقبل ثوانٍ من الانهيار كان قد وصل إليها لتتهاوى بعدها بين ذراعيه!..

حملها أدهم ليخرج بها من وسط الزحام وسط ذهول كلا من ريم وهند, صمت لوهلة ثم تابع بهدوء: ـ منزل أم مشفى؟

تابعت هند ببأس: ـ المنزل وليس سواه.

هو رجل يعي قدراته جيداً, منذ أن خطا بقدميه مجموعة الرازي جعل عاصم الرازي نُصب عينيه.. كان يعلم أنه لن يستطيع الوصول لهذا الرجل بمهارته في العمل ولا بمظهره المنمق, لم يكن يملك سوى ورقة واحدة هي تذكرته للوصول.. تلك الورقة التي لا يوجد لها مكان سوى أسفل الطاولة..

فهو ببساطة رجل المهام القذرة!.

ولم يفشل قط بمهامة تلك, فالرازي يعتمد عليه في الصغيرة قبل الكبيرة ويأتمنه على أدق أسراره, وكانت تلك الأنثى هي أهم أسرار الرازي في الفترة الأخيرة..

تلك المحظوظة!

ضرب عاصم قبضته بقوة على المكتب خاصته حتى كاد يشطره نصفين عندما تلقى الخبر من سعيد, زعق بغضب: ـ ماذا؟!.. نجت!!.. كيف حدث هذا أيها الأحمق؟

تابع سعيد بتلعثم: ـ صدقني سيد عاصم.. أنا حتى الآن ما زلت مصدوماً!

عاصم بحنق: ـ لقد أكدت لي قدرتك على انهاء هذا الأمر.

سعيد: ـ بالفعل.. واخترت للمهمة من هو أهلٌ لها.. ولكن..

عاصم: ـ لكن ماذا؟

سعيد: ـ إنه القدر سيد عاصم, فالمرأة الأخرى فاجأتهما وعادت بغير موعدها وعندها اضطر إلى إلغاء المهمة.

عاصم: ـ هل تعلم معنى إلغاء المهمة أيها الأحمق؟

سعيد: ـ لقد شددت عليه أن يبدو الأمر انتحاراً.. وعفواً.. الإنتحار يجوز مع امرأة واحدة وليس اثنتان!

زفر عاصم بغيظ ثم رمق سعيد متابعاً: ـ وما الحل الآن أيها العبقري؟

سعيد: ـ فقط ننتظر أن تهدأ الأمور ثم...

قاطعه عاصم على الفور: ـ أي أمور أيها الأحمق؟!.. هل تدرك عواقب ما حدث؟.. هل تعي كيف ستتصرف الحمقاء وحاميتها الآن؟

سعيد: ـ لقد جعل الأمر يبدو وكأنه مجرد حادث اقتحام.

عاصم مستهزئاً: ـ ومن نخدع بهذا؟! هما أم الشرطة؟

سعيد بخنوع: ـ الشرطة سيد عاصم

رمقه عاصم بتحفظ: ـ هل أبلغت الشرطة؟

سعيد: ـ ليس بعد..

استقر عاصم على مقعده متفكراً لدقائق ثم تابع بصوت أجش: ـ ابقي رجلك على وضع استعداد!

سعيد: ـ ماذا؟

عاصم: ـ كما سمعت.. ابقه قريباً ومستعداً.

سعيد: ـ أمرك سيد عاصم.. وأعدك تلك المرة...

قاطعه عاصم مرة أخرى باصرار: ـ تلك المرة سيتم الأمر بنهج عاصم الرازي!.

سكون.. هدوء لا يتخلله سوى دقات متقطعة من صنبور مياه غير محكم الإغلاق, القطرات تتهاوى واحدة تلو الأخرى فوق بُحَيرته الخاصة في المغطس..

مياهه نقية فلا وجود للصابون أو أي شكل من أشكال الرغوة الكاذبة!..
هكذا يجب أن يكون الاستحمام معزوفة خاصة جدًا من المياة الدافئة دون لون أو طعم أو رائحة ربما... كعالمه..

عالم أدهم شاهين..

أسند رأسه إلى الوراء بعد أن نفث دخان لفافته الأزرق أمام عينيه, يتأمل مع كل نفث ينفثه تلك الجزيئات المتناهية الصغر تتبعثر وتتناثر في الهواء حتى تختفي تماماً.. وكأنها لا شيء..

لا يعلم لماذا تظهر صورتها أمامه وكأنها تبتسم له!.. البريق الباكي في عينيها, وبشرتها الملساء التي بللتها عبراتها وهي مستسلمة بين ذراعيه, ارتجافها, خوفها, اختبائها بين ذراعي هند وكأنها تحتمي بها من العالم.. لون مختلف من النساء, تحمل من النكهة والعبق ما يثير النفس ويشغل العقل..

أغمض عينيه في ضيق وضم قبضته قبل أن يغوص بكامل جسده في المياه حيث عالمه الحقيقي دون لون أو طعم أو رائحة.

أنهى حمامه ليعد لنفسه فنجاناً آخر من القهوة, تذكر فنجان الصباح عندما استمع لصراخها.. كان ما رآه صدمة غير سارة على الإطلاق, فعودة هند المفاجئة أفسدت العملية بأكملها واضطر لإلغاء كل شيء, ضربات واهية بوجه صديقه ليفر بعدها وعبث سريع بباب المطبخ الخلفي من أجل تبرير الهجوم..

فالعميل شدد على أن يبدو الأمر كانتحار ولا شيء غير ذلك.

زفر بضيق.. فلم يفشل بمهمة قط من قبل.. لقد خطط ودبر كل شيء بدقة, راقب البناية لعدة أيام وبدت الشقة المجاورة فرصة لا تعوض خاصة مع سهولة المرور بين الشرفتين مما ينفي أي محاولة للاقتحام..

راقب الفتاة, فهي تبدأ يومها في الصباح الباكر مع رحيل الأخرى, تقضي ثوانٍ معدودة بالشرفة وتهرع للداخل ولكن دون أن تغلقها..

الخطة بسيطة, يمر ويدخل الشقة وينهي المهمة ثم يعود أدراجه. الفرق أنه لن ينفذها بنفسه.. فتلك هي عادته يخطط فقط دون أن يلوث يديه..

يعلم جيداً متى يلقى بورقة الفتاة.. ومتى يغامر بالعجو..

هي أوراق لعبته الغامضة ينثرها كيفما شاء, ووقت اللزوم يظهر بنفسه..

يقلب الطاولة رأساً على عقب فهو..

الآس!.

الفصل العاشر

تثاءبت بابتسامة قبل أن تغادر فراشها, كانت تعلم أنها ستواجه صباحاً مميز فزوجها حتماً سيكون بانتظارها؛ غاضباً.. ناقماً.. ثائراً.

لقد تجرأت وقاطعت لحظة خاصة جداً بينه وبين عشيقته, تطلعت لملامحها في المرآة بثقة ثم رسمت ابتسامة عابثة على شفتيها من أجله فبهجتها تزداد كلما استفحل غضبه!.

كان بغرفة مكتبه يحرق لفافة تبغ تلو أخرى, لقد ألقت البائسة بقنبلتها بلحظة خاطئة تماماً وكأنها تقصد ذلك..

زفر بضيق متذكراً قبلتها, لقد اشتاق إليها حقاً.. وتلك القبلة لم تساعد على اخماد شوقه بل فجرته نحوها من جديد..

"آه يا هند لم تكوني مجرد لحظة عابثة أم شهوة ماجنة من زوج أحمق يعشق الخيانة.. فالخيانة هي المتهادية بين جدران قصري حيث يجب أن تكوني أنتِ يا هند".

قطع أفكاره صوتها الرنان وهي تتوجه نحوه بغنج: ـ أخبروني أنك بانتظاري.

كانت ترتدي غلالة سوداء اللون وقد تناثرت خصلات شعرها عن قصد, وتهاوى روبها القصير عن عمد..

لم يتحدث.. رمقها بحدة ثم توجه نحوها ليتخطاها مغلقاً الباب بالمفتاح ليحتجزها معه لبعض الوقت.. كانت مدركة لغضبه ولكنها كاريمان شوقي لن ترهب أبداً رجلاً ضعيفاً مثل سيف!

ابتسامة ماكرة زينت بها شفتيها ونظرت نحوه بتهكم متابعة: ـ زوجي العزيز.. هل اشتقت إليَّ وهنا بالمكتب؟.. يالك من شقي!

كانت قد اقتربت منه ولفت ذراعيها حول رقبته, أنزل ذراعيها ببرود متابعاً: ـ زوجتي العزيزة.. لا داعي لتكملة المسرحية السخيفة, فهند ليست هنا الآن!

ابتسمت بغيظ: ـ اسمها هند إذاً؟

سيف باستهزاء: ـ ألم تكوني تعلمين؟! لم يخبرك جواسيسك بعد؟

كاريمان: ـ بفضل هؤلاء الجواسيس علمت جيدًا أي رجل تزوجت.

سيف: ـ بل علمتِ قبل الزواج, لا تخدعي نفسك.. تعلمين بمن تزوجتِ وتعلمين أنه كان مجرد زواج من أجل السلطة والمال ليس أكثر.

كاريمان: ـ وهل زواج العقل آفة؟

سيف: ـ بل زواج المنفعة, المنفعة.. وليس العقل.

كاريمان: ـ هي متبادلة.

سيف: ـ نعم أموال عائلتي وسلطة والدك, وأعتقد زوجتي المصون أنكِ أخذتِ أكثر من حصتك بتلك الصفقة!

كاريمان: ـ حقي.. فأنا لم أنل الزوج الذي تمنيت!

سيف: ـ وأنا أيضاً لم أنل الزوجة التي تمنيت.

ضحكت بعبث متابعة: ـ ولكنك تدبرت حالك جيداً, فبئر خليلاتك لا ينضب.

سيف: ـ وأنتِ لم تطلبي الطلاق رغم كل هذا!

همست بخبث: ـ لا تريد كاري, طلقها.. الأمر بسيط.

رمقها بغيظ قابضاً أنامله حتى غادرتها الدماء..

قهقهت متابعة: ـ لا يجوز الآن.. فأنت أجبن من اتخاذ تلك الخطوة دون موافقتي, أنت لا ولن ترقَ لمواجهة شوقي حافظ.

تركته وهي تتمتم: ـ برغبتي أنا فقط يا سيف.. وليس أنت.

زفر بضيق متهاوياً بمقعده..

تلك الداهية التي ابتلاه بها والده بعد قراره العنتري برغبته في الزواج في هند, انتفضت العائلة واتخذ الوالد قرارت صارمة وهرب هو بحماقة نحو هند بعرضه الأحمق ظناً منه أن هذا هو السبيل الوحيد, ورفضت عرضه وتركته وغضب منها ومن نفسه ومن العالم وتزوج في النهاية باختيار أبيه..

كاريمان...

سليلة النسب والحسب, ابنة لأخطبوط تمتد أذرعه بكل وجهة ووقت وحين, توصد أبواب وتفتح أبواب.. وبسنوات ازدهرت أعمال العائلة وأصبحت مجموعة الأنصاري هي الأفضل دون منازع, لم يكن يعلم أن تلك الأذرع قد تكون طوقاً قاسياً حول رقبته لا يستطيع الخلاص منه.. الصفقة التي لم يخرج منها خاسراً سواه, امرأة قاسية.. متبلدة المشاعر لا تهتم سوى برصيدها

البنكي ومظهرها الاجتماعي الذي اكتمل بزواجها من الأنصاري الصغير وكأنه لوحة فنية اكتمل بها ديكور عالمها ولا تنوي التخلص منها!

العميل..

هذا الكائن الغامض الذي لا يعرف عنه سوى شيئين..

الثمن والهدف..

وتلك المهمة كان الثمن مجزياً؛ مجزياً بالنسبة لهدف مثلها.. تلك المرتجفة الضعيفة, بل تلك القسمات الهادئة والنبرة الحانية والبراءة المنبعثة من عينيها..

كيف تمثل امرأة مثلها خطورة على رجل مثله!!.. إنها هدف مختلف عن كل ما سبقها, بل هي مهمة فريدة من نوعها..

نعم مهمة اختلفت قطعاً عن سابقيها ليس فقط لأنها فشلت, بل لأنه تلك المرة أصبح يعرف العميل وعلى بُعد دقائق من مقابلته!..

عندما هاتفه سعيد محدداً موعداً مع مخدومه, استنكر الأمر في البداية فهو منذ خطا بقدميه داخل هذا العالم السري حيث اعتاد الكبار التخلص من أخطائهم أو ربما بعضهم بيد أمثاله من الرجال كان دائماً شخص العميل رمز مجهول مبهم غائب عن الصفقة مستمتعاً بغنيمتها في الخفاء, وهو لم يهتم أبداً بمعرفة كليهما سواء كان العميل أم الهدف..

ولكن تلك المرة اختلف كل شيء فالهدف كان مرتجفاً غائماً بين ذراعيه, شعر بأنفاسها.. كانت لها رائحة مميزة تشبه الياسمين.. لولا وجود الآخرتين لتأكد بنفسه!

ابتسم ساخراً تمكنت منه تلك المرأة واقتحمت عقله دون هواده, لقد قضى اليومين السابقين في بحث مستمر عن أصل الحكاية..

تلك الصحفية كانت خيط بدايته, جريدتها ومقالها عن أحد الكبار وامرأة وطفل سفاح!..

هي خليلة إذاً.. عشيقة أم مجرد خاضعة لسطوة رجل نشد جسدها في الخفاء؟..

زفر بضيق فالسطور تدينها كما تدينه ويبدو أن البراءة مجرد دثار واهي اعتادت أن تخدع به أمثاله من الرجال.. هي تستحق ما حدث لها وربما ما سيحدث وهو لا يهتم..

هو الآس الورقة الرابحة دائماً بكل لعبة ولا يبالي سوى بهذا..

ابتسم بثقة عندما لمح ابتسامة سعيد مرحباً ودعوته للدخول..

فقد حان موعده مع الرازي.

ـ سيجار؟..

بتلك الكلمة بدأ عاصم حديثه مقدماً سيجاره الأنيق من أجل رجل المرحلة الحالية كما أطلق عليه..

ابتسم أدهم باقتضاب ثم تابع بعد أن تذوق نكهة التبغ الكوبي: ـ نكهة مميزة!.

ابتسم عاصم بثقة: ـ الأفضل على الإطلاق.

تنحنح سعيد مبتسما بثقة: ـ السيد عاصم لا يستخدم سوى الأفضل.

تابع عاصم في متابعة لمعزوفة خادمه: ـ ولكن ليس بكل الأوقات!

رمقهما أدهم بثقة وقد فهم ما يرميان إليه, زفر دخانه باستمتاع مستنداً بعبث على مقعده ثم تابع بهمس: ـ وهذا يعني؟

ضحك عاصم بمكر: ـ أنت رجل ذكي ويؤسفني أن تخيب أملي مثلما حدث!

أدهم: ـ كما طلب رجلك, كان يجب أن يبدو الحادث كانتحار وعودة صديقتها المفاجئة كانت هي الفيصل, قتلهما سوياً أو إلغاء المهمة.. ماذا كنت تفضل سيد عاصم؟

رمقه عاصم بغيظ: ـ بالطبع ما فعلت.

أدهم: ـ والآن هل لي أن أعرف سبب رغبتك في مقابلتي؟

عاصم: ـ أود انهاء المهمة!

صمت أدهم لوهلة وقد انتفضت الأفكار بداخله للحظات ثم تابع: ـ كما تريد.

عاصم: ـ ولكن سنعيد صياغة النهاية من جديد!

أدهم: ـ ماذا تقصد؟

عاصم: ـ كما علمت من سعيد أنك أمامهما الآن المنقذ.

أدهم: ـ نعم.

عاصم: ـ والشقة.. استأجرتها لمدة؟

أدهم: ـ ستة أشهر, حتى لا أثير الشبهات.

عاصم: ـ جيد.. هذا ما أحتاجه!

أدهم: ـ لا أفهم؟!

عاصم: ـ أريدك أن تظل قريباً.. منقذاً.. صديقاً.

أدهم: ـ صديق!

عاصم: ـ نعم صديق.. فأنا أحتاج لـ عين قريبة على هؤلاء النسوة.. عين تخبرني بما تنوين فعله ربما قبل أن تفعلنه.

أدهم: ـ ولكن أنا لم أقم بهذا النوع من الأعمال من قبل.

عاصم بنبرة هازئة: ـ فلتقم إذاً.. ربما سيحسن هذا من سيرتك الذاتية!

ابتسم أدهم بشراسة ثم تابع: ـ شكراً على النصيحة!

تابع عاصم بجدية: ـ لقد أخبرت سعيد أن سارة وهند توجهتا للجريدة مباشرة بعد ما حدث وأن سارة حاولت الهروب وأنت من أعدتها.

أدهم: ـ هدف مرئي أفضل مائة مرة من هدف هارب.

عاصم: ـ أنت رجلٌ ذكي, أدهم.. ولديك سرعة بديهة يفتقدها الآخرون.

أدهم بغرور: ـ أعلم.

تابع عاصم بحدة: ـ ولكن تلك المرة المهمة غير قابلة للفشل.

أدهم: ـ لن يسعفها الحظ مرتين.

عاصم: ـ صدقني مع تلك المرأة أنت خارج اطار التوقعات.

أدهم: ـ لقد أبلغت الشرطة.

عاصم: ـ نعم.. هند من فعلت ذلك, أبلغت عن حادث اقتحام.

أدهم: ـ رأيت الشرطي وهو يعاين المكان.

عاصم: ـ تصرفك السريع بتخريب قفل باب المطبخ كان ذكياً وماهراً.

أدهم: ـ هي حرفتي.

عاصم: ـ الثالثة ستظهر من جديد.

أدهم: ـ الصحفية؟

عاصم: ـ ريم الشاذلي.. لا تخبرني أنك لم تقرأ لغوها بعد!

أدهم: ـ بل قرأته.

عاصم: ـ العاهرة ستسحبني لمعركة على صفحات الجرائد ويجب أن أكون مستعداً.

أدهم: ـ أنت تستطيع تكذيبها بكل يُسر فهي لا تملك سوى مجرد كلمات.

عاصم: ـ "العيار الذي لا يصيب يدوش".. ورجل بمنصبي سينال نصيبه من الضرر مع عبث كهذا.

أدهم: ـ إذاً تريدني أن أكون قريباً فقط؟

عاصم بثقة: ـ نعم.. قريباً ومستعداً لما هو قادم.. البائسة تسعى لتكون هي الفعل وحتماً سأكون أنا رد الفعل!.

ابتسم أدهم بتردد ثم أجابه: ـ موافق.. ولكن تلك المهمة لها ثمن جديد.

ضحك عاصم مستهزئاً: ـ أنا على ثقة من ذلك.

أدهم: ـ لك ما تريد إذاً.

عاصم: ـ ممتاز.. وكما أخبرتك, أنت رجل المرحلة الحالية وربما القادمة أيضاً.

ابتسم أدهم بدهاء, ما زالت الشقراء مقتحمة لأفكاره وها هو يقبل بمهمة من نوع آخر مبهم يتطلب اتصالاً مباشراً مع الهدف, هو دائماً ما يكره ذلك..

ولكن معها أصبح يوده!

أطنان من الثقل ثابتة بصرامة فوق رأسها, فتحت عينيها بصعوبة لتجد هند واقفة بباب غرفتها.. مبتسمة.. متعرقة.. ترتدي سروالاً رياضياً رمادي اللون وبلوزة زهرية بحمالات رفيعة وخصلاتها معقوصة إلى الوراء بعبث أدى إلى تناثر بعضها فوق جبهتها..

ابتسمت هند بمكر ثم تابعت: ـ يا الهى!.. أخيراً.. كنت قد أوشكت على احضار الإسعاف فأنا حقاً لا أعلم كم حبة من المهدئ دسست بشرابك!

فركت سارة جبهتها في محاولة يائسة للتغلب على الألم وقالت بوهن: ـ ماذا حدث؟!

هند بمكر: ـ لا شيء.. فقط عاصم حاول قتلك وأنتِ قررتِ الهروب!

أسندت سارة رأسها بيأس فوق ركبتيها وظلت صامتة دون حراك, اقتربت منها هند بحنان متابعة: ـ كيف حالك الآن؟

زفرت ببطء ثم تابعت بشرود: ـ الحمد لله.

تابعت هند بنبرة يشوبها بعض المرح في محاولها لحثها على الحديث: ـ حسناً.. أنا أقف بالمطبخ منذ الصباح, هيا لا كسل فهناك وجبة ساخنة بانتظارك.

سارة بدهشة: ـ وجبة ساخنة! هل قمتِ باعداد الطعام؟!

هند: ـ ماذا تظنين؟.. أنني فاشلة ولا أستطيع اعداد بعض الحساء!

ابتسمت سارة: ـ بالطبع لا.

هند: ـ بالطبع نعم!.. أنا لا أستطيع أن أطعمك هذا الشيء الغريب بالمطبخ, فحتى القطط رفضت تناوله!.. هيا لقد طلبت الطعام كالعادة, المطعم المجاور يُعد حساء رائع.

بسطت هند يديها من أجل سارة التي استندت عليها بدورها حتى تستطيع النهوض, كانت تتحرك بوهن فهي بالفراش منذ يومٍ تقريباً؛ شاردة.. هائمة بفعل العقاقير المهدئة التي أعطتها لها هند رغبةً فيٍ السيطرة على حالة البكاء الغير منقطع التي أصابتها بعد عودتهما للمنزل..

استيقظت بعد حالة متأرجحة بين الوعي واللاوعي, أبصرت شريط حياتها يمر ببطء أمام عينيها.. كل شيء السعادة والشقاء.. الخوف والأمل.. الزواج والهروب.

يبدو الأمر مختلفاً الآن, يُقال أن لحظات الموت تُغير حياة المرء.. تقلبها رأساً على عقب وهي مرت بتلك اللحظات مرتين؛ الأولى كانت بإرادتها ولكن بعقل غائب, والثانية كانت رغماً عنها ولكن بعقل حاضر.. واعي.. موقن لما كان سيحدث ومرتجفاً رعباً منه!

ارتشفت القليل من الحساء الساخن ثم تابعت بنبرة بائسة: ـ أنه حساء لذيذ حقاً.

هند: ـ جيد أنه أعجبكِ.

سارة: ـ إنها مفعمة بنكهة الحياة, لم أظن يوماً أنني قد أشتاق لتلك النكهة!

كانت ملامحها غريبة؛ عبراتها متحجرة, وأناملها مرتجفة, وصوتها مرتعد ينشد البكاء..

أمسكت هند بيديها وتابعت بحنو: ـ سارة!

ابتسمت سارة بحزن لتتابع: ـ أنا لم أمتلك أي نوع من المشاعر لرجل بحياتي من قبل, فالأب رحل مبكراً عن عالمي ربما قبل موته.. أحضر زوجة من أجلي فأصبح هو من أجلها!.. والزوج كان هذا هو الغريب الذي يأتي في جنح الليل مقتحماً عزلتك دون مقدمات وراحلاً دون اهتمام.. لفترة ظننت أنني أكرهه ولكنني اكتشفت أنني لا أكن له أي نوع من المشاعر.. لكن الثالث.. قدري.. حتماً أنا أكن لهذا الكثير من المشاعر!

هند: ـ ماذا؟

سارة وقد خشنت نبرتها بعد الشيء وبدت ملامحها أكثر حدة: ـ أنا أكرهه يا هند.. أكرهه كما لم أكره شخصاً من قبل بحياتي, هل تعرفين هذا الإحساس عندما تشعرين أنكِ رخيصة.. مستباحة.. متاحة لكل شيء وأي شيء؟

كانت عبراتها قد بدأت بالانهمار ولكن ملامحها ظلت حادة.. صارمة دون تغيير, تنهدت بألم ثم تابعت باصرار: ـ فاض الكيل.. أنا لم أعد خائفة منه, أنا لست خائفة بعد الآن.. سوف أواجهه.. هذا الرازي سوف أواجهه.

هند بتأثر: ـ سارة..

سارة: ـ إنها معركتي.. ويجب أن أُقاتِل حتى لا أُقتَل.. حادثيها.. هاتفي المتطفلة.. فقد حان دوري.

ثلاث نساء يشبهن إلى حد كبير أوراق اللعب؛

فإحداهن شقراء.. عطوفة.. هي رمز الحب.. الورود.. الجما .. هي فينوس الرومان وسميراميس بابل.. هي ورقة الكبة.

والأخرى هي تلك المرأة العطوفة بشعرها الداكن وملامحها الفاتنة.. هي الصداقة دون غاية.. وهي الشراسة والنار والوقود والقوة.. هي ورقة السباتي.

والأخيرة يرمزون إليها بألهة الحرب, ملكة الصراع وعاشقة المعارك, حذاري فهي تبدو صغيرة.. تافهة, ولكنها تمتلك عقلاً يعشق التخطيط والانتصار.. هي ورقة الديناري.

قطبت ريم جبينها وهي تبسط ورقة بيضاء أمامهن جميعاً, تسطر بدقة وتتابع بثقة:

ـ حسناً, سارة.. لقد بدأت لعبتنا للتو!

سارة: ـ لعبة؟

ريم: ـ حسناً.. مسمى لعبة أفضل مائة مرة من مسمى معركة!.. لنفترض أنها لعبة أوراق؛ فريق سارة.. وفريق عاصم.

ابتسمت سارة ساخرة: ـ تجعليننى أبدو وكأنني نداً له!

تابعت ريم بابتسامة ماكرة: ـ الأمر لا يتعلق بماهية سارة ولكن بما تؤمن به سارة.

سارة: ـ أقف أمام المرآة وأصرخ أنا قوية!

ريم: ـ لا تقفي أبداً أمام المرآة فتلك ستكون بداية النهاية..

سارة: ـ إذاً هي لعبة أوراق؟

ريم: ـ لدينا أنتِ.. أكثر الأوراق أهمية ولكن...

سارة: ـ لكن ماذا؟

ريم: ـ القاعدة الفقهية تقول البينة على من ادعى.

سارة: ـ بمعنى؟

ريم: ـ أنتِ المدعية.. لهذا أنتِ من يجب عليكِ إثبات ادعائك.

رمقت هند ريم بحدة وتابعت: ـ ولكنكِ أنتِ من ورطتيها بهذا الأمر.

ريم: ـ أعلم ذلك, ولكن أنا صاحبة سبق صحفي ليس أكثر.. تعلقت بمعلومة صغيرة وسعيت من أجل خبر الموسم.. ممرضة ثرثارة بالمشفى ألقت بوجهى

بقنبلة عاصم الرازي.. سعيت وعلمت أنه بالفعل توجه معك نحو عيادة حسين سلطان وبعد بحث مضني توصلت لصلة القرابة بينكما وغياب زوجك.. بينجو!.. حصلت على تكهن وأنتِ بفزع ملامحك كنتِ أكبر تأكيد.

تنهدت سارة بيأس فتابعت ريم: ـ أنا كنت أبحث عن قنبلة صحفية.. أنا آسفة أنا لم أكن أهتم بك بقدر اهتمامي بـ ريم.

سارة: ـ والآن؟.

ريم: ـ الآن الأمر اختلف, لقد صفعني صديق بكلماته وهوت بعدها على رأسي محاولة عاصم لقتلك.. الأمر ليس بشأن ريم الآن بل سارة.

هند: ـ وبرأيك ما الخطوة التالية؟

ريم: ـ دعوى.. يجب أن ترفعي دعوى فقد حاول البائس قتلكِ ولن يمنعه عنكِ سوى الشرطة.

سارة: ـ ولكن أنا...

قاطعتها ريم: ـ سارة يجب أن تتحدثي عن كل شيء.. السر في التفاصيل, لا تهمليها فهي مهمة للغاية.

سارة: ـ ما قصدك؟

ريم بحماس: ـ كيف توصل عاصم إليكِ؟.. ومن يعلم بالأمر؟.. هل كان يتردد عليكِ بمنزلك؟.. هل لديكِ بعضاً من أشيائه الخاصة؟.. وزوجك أهو مخدوع أم ليس برجل؟.. سارة.. يجب أن تخبريني بكل شيء حتى أستطيع مساعدتك.

سارة وقد تمكنت الصدمة من ملامحها: ـ انتظري.. أنتِ لا تفهمين..

ريم: ـ بل أفهم.. عزيزتي.. أعلم أن الأمر لم يكن بيدكِ إنه القهر.. القمع.

سارة: ـ لا.. أنتِ لا تعلمين.. لم يكن اختياراً!

ريم: ـ ماذا؟!

سارة: ـ لقد اغتصبني.. لم يكن اختيار.. كان رغماً عني.. رغماً عني.

لم تستطع سارة الصمود بكت بحرقة بعدها وظلت ريم تنظر نحوها في صدمة فالأمر كان أقسى مما توقعت.

كان قد أنهى لتوه تناول طعام الغذاء ثم أغرق جسده تحت شلال المياه الباردة فطعام والدته الساخن قد أيقظ الحرارة بجسده ولا سبيل لديه سوى الاستحمام والتنشط أو الاستسلام للنوم..

كان يجفف شعره ولم يرتدِ بقية ملابسه بعد عندما سمع طرقات الباب.. جاءه صوت والدته من غرفتها: ـ رامز.. افتح الباب فيبدو أن أخاك نسي مفاتيحه كعادته.

توجه رامز بابتسامة ظناً منه أن الطارق أخوه الذي ينسى دائماً ودوماً مفاتيح المنزل, ولكنه تصلب مكانه لوهله عندما وجدها أمامه...

ريم.....

ارتبكت هي بدورها عندما وجدته أمامها نصف عارٍ لا يرتدي سوى سروالاً رياضياً أسود اللون!..

قطرات المياه ما زالت منسابة من شعره القصير على صدره الذي كان يعلو ويهبط من مفاجآتها له, فهي لم تأتِ لهذا المنزل سوى مرة واحدة منذ عامين عندما تعرض لحادث الاعتداء, ولم تكن وحدها بل كانت زيارة جماعية من الجريدة.

ابتسمت بارتباك ثم قالت: ـ أنت وحدك؟

رامز بعد لحظات من الشرود: ـ لا.. لا.. بالطبع لا.. أمي بالداخل تفضلي.

ريم: ـ آسفة لقد قدمت دون موعد ولكن...

رامز: ـ ما هذا الهراء!.. تفضلي بالدخول... إلا إذا كنتِ لا تودين ذلك.

ريم: ـ رامز.. إذا كان هناك رجل بهذا العالم يستحق ثقتي فسيكون أنت لا محالة, كما أن أمك بالداخل أليس كذلك؟

رامز ضاحكاً: ـ بالطبع.. لا تقلقي.

ريم بمكر: ـ لست قلقة, فأنت لن تحاول اغوائي ووالدتك بالغرفة المجاورة!

تابع بعد أن ألجمته الدهشة لدقائق من حديثها المباشر ثم تابع بنبرة ماكرة بدوره: ـ أنها تعاني ضعف السمع.. قد أحاول!

ضربته ضربة خفيفة على صدره بعفوية وهي تهم بالدخول: ـ حسناً.. أيها المتباهي..

ولكنها قالت عبارتها وتخطته مسرعة حتى لا يلحظ احمرار وجنتيها فقد كانت على سجيتها غير مدركة أنه لا يرتدي قميصه!

كانت بغرفة الصالون تتفحص بعض الصور المعلقة على الحائط, مصفوفة منسقة وكأنها تُمثل تاريخ تلك العائلة.. فتلك صورة زفاف والديه, وأخرى لأخته الكبرى وزوجها, وهذا رامز وهو طفل بجانب أخيه الأصغر, وصورة أخرى رسمية لوالده المتوفي..

تنهدت بأسى فالمكان دافئ واللقطات المصورة تبدو حميمية.. حياة لعائلة طبيعية..

تذكرت زيارتها السابقة ورؤيتها له راقداً بجسد مملوء بالكدمات في فراشه, كانت ما زالت في بداية حياتها العملية.. دخلت الجريدة وهي تستمع لتلك القصص عن رامز وسبقه الذي أصبح على كل صحف العاصمة بعدها.. في ذلك الوقت كانت قد انتشرت بشدة حوادث التحرش وخاصة تلك التي كانت تلي المباريات وصباح عطلة العيد, آفة وتفشت بمجتمع أصبح يخطو بثقة نحو الإنحدار.. وتعثر رامز بأيقونة نجاحه.. كان الحشد مخيفاً والشماريخ منطلقة في سماء الوطن احتفالاً بفوز المنتخب الوطني كالعادة, لفت نظره هذا الجمع الغفير المتحرك بريبه واقترب وبُهت وذُهل وتصلبت الدماء بعروقه من هول ما رأى, فهم كلاب تنهش ضحيتها دون رادع..

فتاة شبه عارية بين أشباه بشر, حاول الوصول إليها دون جدوى والصراخ بدا حلاً ساذجاً بوسط كل تلك الضوضاء, وعندها لم يفكر فسلاحه الوحيد كان آلة التصوير خاصته.. التقط كل شيء.. الوجوه.. الإنتهاك.. الألم..
وللأسف العُري.. العري الذي تاجرت به جريدته وغيرها من الصحف.. ومع كل سطور عن بشاعة التحرش كانت هناك سطور أخرى تتحدث عن الفتاة وما ترتديه وما تخلعه!

نجح رامز ودفعت أسماء ضريبة نجاحه ومن وقتها تبدل رامز وندم حيث لا ينفع الندم, وانتهى به الأمر بعد أشهر محطم الأضلع غارقاً في دمائه بعد محاولة فاشلة لإنقاذ أخرى من نفس المصير ولكن تلك المرة دون آلة التصوير.

قطع أفكارها صوت رامز وهو يحمل زجاجة باردة من المياه الغازية ويتابع: ـ أمي مصرة على أن تتناولي الغداء.

ريم: ـ أشكرك رامز.. ولكني حقاً ليس بي رغبة لتناول الطعام.

رامز: ـ واثقة؟.. فلدينا اليوم ملوخية ومحشي ورق العنب.

ريم: ـ يا الهي كيف سأقاوم هذا!

رامز: ـ أخبرتك.

ضحكت ريم وتابعت: ـ حقاً يبدو هذا شهي, ولكنني أميل في تلك اللحظة للنصح وليس للطعام.

بدت ملامح رامز جدية وهو يسألها: ـ ريم.. ماذا هناك؟

ريم بضيق: ـ لقد أخطأت.. أخطأت بشدة يا رامز.

رامز: ـ ماذا حدث؟

ريم: ـ هي ضحية ولكن ليس كما تصورت.

رامز: ـ بمعنى؟

ريم: ـ لقد اغتصبها يا رامز.. سارة ليست مجرد ضحية قهر أو ضعف بل اغتصاب.. اغتصاب لم تستطع حتى الإبلاغ بشأنه.

رامز: ـ يا إلهي!!

ريم: ـ هذا الحقير يجب أن يدفع الثمن.

رامز: ـ ولكن كيف؟.. أنتِ تعلمين إثبات حالة الإغتصاب بعد مرور كل هذا الوقت هو درب من دروب المستحيل.

زفرت ريم بيأس: ـ أعلم رامز.. أعلم.

رامز: ـ كل ما لديكِ الآن شهادة سارة وهذا ليس كافٍ, ربما كافي فقط لإثارة بعض الأقاويل حول عاصم وتعميم القضية.. مجرد سبق صحفي يا ريم كما أردتِ من قبل.

ريم: ـ ولكنني الآن لا أريد هذا السبق, أنا فقط أود معاقبته وحمايتها.

رامز: ـ تحتاجين لقرائن قوية.

ريم: ـ مثل ماذا؟

رامز: ـ شهود.

ريم: ـ هند صديقتها شاهدة على تهديده لسارة واعترافه بما حدث.

رامز: ـ ليس كافياً.

ريم: ـ ربما ليس كافٍ لإثبات واقعة الاغتصاب, ولكن كافي لإدانته بمحاولة قتلها.

رامز: ـ ريم.. الأمر ليس بتلك السهولة.

ريم: ـ أعلم.. أنها معركة شرسة ولكن يجب عليها أن تخوضها.

رامز: ـ لماذا؟

ريم: ـ حتى لا يتكرر الأمر رامز.. فلو نفذ عاصم بخطيئته سيكررها ويكررها غيره.

رامز: ـ ريم.. أغلبنا يضع الغاية نُصب عينيه ولكن الأهم الوسيلة.

ريم: ـ تقصد أن سارة من ستدفع الثمن؟

رامز: ـ محاولته لقتلها هي مجرد بداية يا ريم.

ريم: ـ لقد فات الآوان.. هو لن يتركها فمن مثله لن يترك أمراً للظروف.

رامز: ـ إذاً ما القادم.

ريم: ـ سنلقي بأوراقنا بوجهه.. سترفع دعوى ضده.

رامز: ـ وستتهمه بـــ....

ريم: ـ الشروع في قتلها.

تهاوت هند على فراشها في إعياء, فاليومين السابقين كانا مجهدان بحق.. زفرت بيأس لقد تعاملت مع الأمر بشجاعة في حينها ولكنها الآن أصبحت تشعر بالخوف, بل أنها توصد الباب جيداً قبل النوم ولا تستقبل زائراً دون أن تتأكد من شخصه..

سارة حقاً في خطر ولن ينقذها منه سوى الشكوى ضد عاصم, ولكنه سلاح ذو حدين فهو رجل أحمق وحتماً سيسعى للانتقام.

دقات متتالية بالباب تمكنت منها وأصابها الفزع لوهلة, فهي لا تنتظر زائراً الآن..

زفرت بغيظ ماذا أصابها!.. أبعد كل هذه السنوات من العيش وحيدة سيصيبها القلق..

توجهت بثقة نحو الباب فأياً كان خلفه لن يواجه سوى شراستها وسيندم بشدة على هذا, أحكمت قبضتها على السكين خلف ظهرها وفتحت الباب دون أن تكترث حتى بالمرور ببصرها على العين السحرية..

لحظاتها الخاصة من العند المفتقر إلى الحكمة, حكمة غابت عن عالمها عندما وجدته أمامها....

سيف الأنصاري.

الفصل الحادي عشر

دقائق قاتلة من الصمت, حديث غير منقطع بين الأعين ونبضات قلوب غير قادرة على العصيان.

أغمضت عينيها ومرت ذكرى ما حدث أمامها من جديد وبعدها لم يقطع هذا السكون المهلك سوى دوي صفعتها على وجهه!.

تحسس وجهه بهدوء كاظماً غيظه ثم تابع: ـ هل تشعرين بالراحة الآن؟!

رمقته بتحدي: ـ أنا لم أكن أشعر بالإنزعاج لأنشد في صفعتك راحتي!

ابتسم ساخراً: ـ إذاً ما كان هذا؟

تابعت بنبرة أكثر سخرية: ـ ردّ الهدية سيد سيف.

سيف: ـ إذاً كلّما قبلتك سأحصل على صفعة!

استدركت غضبها وأناملها التي كانت ما زالت قابضة على السكين بيدها الأخرى ثم تابعت: ـ صدق أو لا تصدق سأوجه لك نصيحة.

سيف: ـ كلي آذان صاغية.

هند: ـ اهتم بحياتك سيف.. منزلك.. عملك.. زوجتك.. وتخلى عن غرورك الذكوري فهو لن ينفعك.

تخطاها متباهياً حتى أصبح داخل المنزل ثم تابع: ـ لن نكمل حديثنا على الدرج.

هند: ـ لا يوجد لدينا حديث لنكمله.

لم يبالِ وتوجه للداخل متهاوياً على أريكتها ثم تابع: ـ هيا يا هند.. لا تخبريني أنكِ خائفة مني!

ابتسمت ساخرة من عبارته.. فقد ذكرتها بمعركتها منذ يومين مع مهاجم سارة وردة فعلها التي كانت أبعد ما يكون عن الخوف..

أغلقت الباب بثقة ثم وضعت السكين جانباً وتوجهت نحوه مستمتعة بملامح الصدمة على وجهه عندما لمح السكين, تابعت بهدوء: ـ والآن ماذا تريد أن تقول؟

رمقها بحيرة وتابع: ـ سكين!.. لماذا تحملين سكيناً يا هند؟!

هند: ـ لا تخف.. فهو لم يكن من أجلك.

سيف: ـ لست خائفاً بل مندهشاً.

هند: ـ أنت لم تأتِ هنا لتندهش.. قل ما لديك فليس لدي وقت لهذا الهراء.

صمت لوهلة متأملاً ملامحها.. الأرق المتمكن من عينيها, خصلاتها المعقوصة إلى الوراء والمبعثرة دون اهتمام وبشرتها التي يبدو عليها الشحوب.. ولكن برغم كل هذا ما زالت فاتنته.. ساحرته التي يتوق لامتلاكها اليوم قبل غداً..

اقترب منها محتوياً أناملها بين قبضتيه باصرار وتابع: ـ ليس بهراء.

سحبت يديها بغضب وقالت بنبرة صارمة: ـ أخرج من بيتي.

تابع وكأنه لم يسمعها: ـ وليست بزوجة.. إننا منفصلان منذ أكثر من عام.. زواجنا مجرد عبث على أوراق ليس أكثر.

تابعت دون أن تنظر نحوه: ـ لا أهتم!

سيف: ـ الحفل لم تكن حتى مدعوة إليه.. لقد ظهرت من أجلكِ يا هند.

هند ببرود: ـ حسناً.. أنهيت ما أردت قوله؟

سيف: ـ لا هناك أمراً آخر.

زفرت بضيق: ـ وما هو؟

سيف: ـ عودي للعمل.

ضحكت هازئة: ـ هل ظننت حقاً أن تغيبي عن العمل بسببك؟!

نظر نحوها بعمق: ـ إذاً ما السبب؟

أجابته متحدية: ـ ببساطة ليس من شأنك!

عاد الغرور ليتمكن من ملامحه بعد أن اجتاحه الضعف لبعض الوقت أمامها ثم تابع:

ـ إذاَ مِن شأن مَن؟.. راغب!

هند: ـ ماذا؟!

سيف بصرامة: ـ لا تتحاذقي فنظرته نحوك تفضحه.

هند: ـ السيد راغب رجلٌ رزين وليس كالبعض.

ابتسم بشراسة: ـ لن يخطف قبلة من شفتيك كما فعلت!

رمقته بحدة ثم تابعت ببأس: ـ يبدو أن الصفعة غير كافية!

اقترب منها حتى احتجزها على مقعدها بين ذراعيه ثم تابع: ـ لا شيء كافٍ يا هند... لا شيء سواكِ.

رمقته بحدة ثم قالت بغضب: ـ ابتعد عني.

همس بشغف: ـ ليتني أستطيع.

دفعته بقوة متخلصة من احتجازه ثم توجهت نحو الباب لتفتحه على مصراعيه ودون أن تنطق أشارت له بيديها ليخرج..

ابتسم بمكر ثم تخطاها وقبل أن يرحل همس متابعاً: ـ لقد عدت ولا أنوي الرحيل.

أغلقت الباب خلفه بعنف لتتهاوى جالسة على الأرض, عبرة حارة هربت من عينيها, عبرة ندم على مشاعر عادت للتجول بحرية داخل قلبها من جديد ورغماً عنها.

رمق البائع زبونته النزقة بغضب ثم تابع: ـ حسناً.. أربع شطائر من الفول وأربع شطائر من الفلافل وثلاث شطائر من الجبن.

تابعت وهي تعبث بجوالها: ـ ولا تنس المُخَلَّلات.

البائع: ـ الحساب أحد عشر جنيهاً.

ناولته النقود وتركته على مضض, هو بائع محتال والصمت على أمثاله يروي ظمأ طمعهم ليس أكثر ولكنها لا تملك له وقت الآن..

تركته وتوجهت نحو شقة هند فلديها مع الفتاتين جلسة مطولة وخاصة سارة

ابتسمت هند بدهشة بعد أن استقبلتها: ـ جئتِ مبكرة!

ريم: ـ ومعي الإفطار أيضاً.. فقط أعدي لنا بعض الشاي.

هند: ـ رغم أنني اعتدت القهوة في بداية يومي ولكن حسناً.

ريم: ـ هل استيقظت سارة؟

هند: ـ مبكراً.. هي بالشرفة منذ حوالي نصف الساعة.

ريم: ـ ماذا؟!.. تركتها وحدها بالشرفة!

أوقفتها هند قبل أن تتوجه نحو سارة وتابعت: ـ انتظري.. هي تحتاج لبعض الوقت.

ريم ساخرة: ـ في الشرفة على ارتفاع عشرة أدوار حيث كانت ستهوي منذ يومين!

هند: ـ نعم.. تحتاج لمواجهة أسوأ مخاوفها فالقادم صعب.. صعب للغاية وأنتِ تعلمين ذلك.

زفرت ريم بضيق ثم تابعت: ـ حسناً ولكن فقرة التأمل تلك تنتهي بعد عشر دقائق فلدينا وليمة من الإفطار الشعبي لنلتهمها!

رمقت هند الأوراق المدهنة ببقايا الزيت والشطائر المتخمة بالطعام وتابعت: ـ ما هذا؟!

ريم: ـ الإفطار.

هند: ـ شكراً.. ولكن أنا لا آكل هذا!

ريم ساخرة: ـ ولماذا أيتها الكونتيسة؟!

هند: ـ لا شيء.. فقط اختياراتي مختلفة.

ريم: ـ أستطيع أن أرى ذلك!

هند: ـ ما قصدك؟

ريم: ـ جسد رشيق, وملابس من النوع الفاخر, ومنزل فخم بحي راقي, أين أخفيتِ ملعقتك الذهبية!

رمقتها هند بسخرية موازية وتابعت: ـ تظنين أنني من هؤلاء اللاتي ولدن وبفمهن ملعقة ذهبية!

ريم: ـ وهل أنا مخطئة؟

هند: ـ ألم تكوني مخطئة بشأن سارة وبشأن ردة فعل عاصم؟

تبدلت ملامح ريم وبدا عليها الضيق ثم تابعت: ـ حسناً.. أنا آسفة.

هند: ـ وأنا سأعد الشاي.

تركتها هند وتوجهت للمطبخ, تنهدت بأسى وتذكرت أيام كانت تقضي نهارها بوجبة طعام واحدة متواضعة للغاية.. لم يكن حرمان بقدر ما كان عقاباً قاسياً, فتمردها على زينب معلمتها كان متواصلاً والعقاب أيضاً.

وعلى بعد أمتار كانت هناك امرأة أخرى تقف بمواجهة سور الشرفة التي كادت أن تلقى حتفها من خلالها منذ يومين, مغمضة العينين.. تائهة بين أمواج الماضي والحاضر, فتحت ذراعيها وكأنها تسعى لامتلاك نسمات

الهواء التي طالما غابت عنها في أحلك اللحظات, عبير الحياة ببرودته وقوته واجتياحه لرئتيها وضلوعها..

ابتسمت.. ثم بكت ثم استدركت نفسها وآثرت الصمت.. فالأفكار مشتتة بين جوانب عقلها, والقلب مرتجف كعادته والخوف عاد ليتمكن منها من جديد.. ولكن لا.. لا مجال للخوف الآن..

عادت الابتسامة لثغرها مرة أخرى وهي تتمتم آيات الذكر الحكيم

"قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"

تنهدت براحة فتلك هي المرة الأولى التي تقضي فيها بالشرفة وقت أطول من عدة دقائق كانت تسابق فيها الزمن من أجل ري النباتات والهروب ولكن الآن انتهى زمن الهروب.

ابتسمت سارة بحبور عندما لمحت ريم جالسة على الأريكة ملتهمة طعامها دون رحمة, وهند ترمقها باستهجان..

تابعت وهي تقترب منهما: ـ صباح الخير.

ريم: ـ صباح الخير.. أخيراً غادرت الشرفة, كنت سأبدأ لتوي في تناول حصتك.

سارة: ـ رائحة الإفطار تبدو شهية, أنا لم أتناول هذا منذ زمن.

ريم: ـ تفضلي شاركيني, فالكونتيسة تأبى طعامي الملوث!

هند بغيظ: ـ أنا لست بكونتيسة ولم أقل أن طعامك ملوث.

ريم: ـ عيناكِ قالت هذا!.

هند: ـ والآن أصبحتِ بارعة في لغة العيون!!

ريم بابتسامة: ـ عيناك ليالٍ صيفية ورؤى وقصائد وردية!

هند: ـ إذاً أنتِ منتشية من طعامك... جيد.

ضحكت ريم بشدة ثم تابعت: ـ سيتحسن مزاجك إذا تركتِ القهوة.

كانت سارة تراقبهما بابتسامة وهي تمضغ طعامها ببطء, تابعت هند: ـ احترسي سارة فإن لم يقتلك عاصم ستقتلك هي بإفطارها الشعبي!

ريم: ـ الكونتيسة تلقي بعبارت المزاح الآن!.. بدأتِ تتغلبين على تأثير القهوة واللفافة المحترقة بيديكِ!

رمقتها هند بغضب دون أن تنطق فتابعت ريم: ـ حسناً كفاني حديثاً.. فأنفي لا يود مقابلة قبضتك مرة أخرى.

هند بشراسة: ـ فتاة ذكية.

ريم وهي تنفض يديها بعد أن أنهت طعامها: ـ حسناً.. امتلأت المعدة واستيقظ العقل وحان وقت العمل.

سارة: ـ ماذا سنفعل؟

ريم: ـ تحدثي.

سارة: ـ عن ماذا؟

ريم: ـ كل شيء.. من البداية.. وعفواً سارة أنا أريد التفاصيل.

سارة: ـ التفاصيل!

ريم: ـ أين تمت واقعة الإغتصاب وكيف؟

تراجعت سارة منكمشة وقد تبدلت ملامحها وتمكنت منها الرهبة..

لم تتأثر ريم تابعت باصرار: ـ أبعاد علاقتك بعاصم كيف كانت قبل وبعد الحادثة؟ هل حاول إغوائك.. هل علم أحد بالأمر؟

كانت سارة ما زالت صامتة..

تابعت ريم بلهجة آمرة: ـ سارة.. أجيبيني.

ظلت سارة صامته لوهلة ثم تابعت بنبرة بائسة: ـ حسناً.. سأخبرك كل شيء منذ البداية.. تلك الليلة وعلى مقطوعة موسيقية كانت المفضلة لدي بدأت الحكاية...

ارتباك سارة وخجلها لم يمنع ريم من السؤال عن كل تفصيلة صغيرةً كانت أم كبيرة فالمحقق لن يتهاون وسيمطرها بأسئلته دون هوادة ويجب أن تكون مستعدة.

صمتت ريم لوهلة بعد أن أنهت سارة قصتها بتفاصيلها ثم تابعت بانتصار: ـ إذاً هناك مكالمة هاتفية تمت في ليلة الإغتصاب وفيها أخبرك أنه سيزورك؟

سارة: ـ نعم.. ومكالمة أخرى بعد أن علمت بأمر الجنين.

ريم: ـ كيف اكتشفتِ الحمل؟

سارة: ـ تأخرت عادتي الشهرية ثم ذهبت للطبيبة.

ريم: ـ طبيبة!.. وهل سوت لكِ تحليل؟

سارة: ـ لا.. أنا لم أكن أفكر بالحمل, تصورت الأمر قلق أو ما شابه ذلك ولكنها قامت بالفحص بجهاز السونار وعندها أخبرتني أنني حامل.

ريم باهتمام: ـ سارة.. فحص السونار يوضح عمر الجنين وبالتالي يعطيكِ وقت تقريبي لحدوث الحمل.

سارة: ـ أعرف.

ريم: ـ هل طبعت الطبيبة الفحص؟.. هل لديكِ صورة؟

سارة: ـ طبعتها ولكنها احتفظت بها في ملف خاص بي.

ريم بانتصار: ـ أنتِ امرأة محظوظة للغاية.

سارة: ـ ماذا؟ محظوظة!

استدارت ريم نحو هند ثم أردفت: ـ أنا لدي مشوار مهم يجب أن أقوم به وأنتما ستذهبان لتلك الطبيبة لإحضار الملف.

رمقتها هند باهتمام: ـ أفهم ما ترمين إليه من نسخة الآشعة.. ولكن المكالمة؟

ريم: ـ المكالمة هي الهفوة عزيزتي!.. هي هفوة الرازي والتي حتماً سأقتنصها دون هوادة.

رمقتها السكرتيرة بنظرة استعلاء ثم تابعت: ـ السيد جمال مشغول وليس لديه وقت للصحافة.

ابتسمت ريم بثقة ثم تابعت وهي تتجول بنظرها على ملابس الحسناء خلف المكتب وكأنها ترد لها صاع استهانتها بمظهرها صاعين ثم تابعت: ـ أنا أعلم أن السيد جمال شخص عصبي للغاية ولا أظنك قادرة على تحمل غضبه عندما يعلم أنكِ أنتِ من عطلتِ مقابلة حتماً ستتم!

نظرت نحوها الفتاة بغضب ثم أردفت: ـ وسيغضب أيضاً عندما أسمح لأي نكرة بإزعاجه!!

ريم: ـ صدقيني أنا إزعاج يرغب به سيدك وبشدة!.. فقط أخبريه أنني هنا من أجل.. الرازي.. عاصم الرازي.

خيل الحكومة؛ تلك الحيوانات البائسة التي كان يتم التخلص منها رمياً بالرصاص بمجرد أن تفقد رونقها ومع مرور الزمن اختلفت الخيل وبالقطع اختلفت الرصاصة واختلف هو.. جمال زيدان..

فبعد أن كان فرساً جامحاً يعدو ويغدو دون حواجز بين أروقة وطن أصبح مرتعاً لأمثاله أصبح الآن مجرد حرس قديم كان يجب التخلص منه واستبداله!.. ورحل زيدان وجاء حصان آخر.. حصان أسود أكثر جموحاً وعنفواناً ورغبةً في امتلاك سلطته وسطوته دون هوادة.. عدوه اللدود.. عاصم الرازي.

عدّل من عويناته السميكة ثم رمق سكرتيرته مرة أخرى متابعاً بصوت أجش: ـ ماذا قلتِ؟

السكرتيرة: ـ صحفية سخيفة ومصرة على مقابلتك وتقول أنها جاءت بشأن عاصم الرازي وهذا المقال.

أخذ الجريدة من يد موظفته ليتجول بصره سريعاً على السطور..

ابتسامة خبيثة علت ثغره ليتابع بعدها: ـ أدخليها.

منذ صغرها وهي تستمع لأخبار وقصص عن جمال زيدان ونفوذه وسلطته ولكن في غضون سنوات تغير فيها كل شيء بسرعة البرق غاب زيدان عن عالم السياسة وتم تسريحه من أجل وجوه أخرى حان وقتها وكان منها الرازي فخرج زيدان من سباق الإنتخابات ونفوذ السلطة وعاد مرة أخرى لمقاعد المشاهدين يتابع في صمت, ولكن من ينظر بحكمة لحال الوطن يعلم جيداً أن زيدان ما زال يمتلك شوكة قوية ونفوذ ممتد داخل أنفاق مظلمة لا يحفظها سوى أمثاله وأن عودته ستظل هدفاً سيسعى خلفه دون كلل أو ملل.

ابتسمت باضطراب عند رؤيته فرغم مرور سنوات على اختفائه عن عالم الكبار إلا أنه ما زال يبدو مخيفاً؛ عويناته السميكة وشعيراته القليلة البيضاء المتناثرة فوق رأسه الأصلع, نظرته الثاقبة وأنفه المدبب وبشرته السمراء التي حفرت السنوات علاماتها عليها دون هوادة..

اعتدل في مقعده ثم قال بنبرة جادة: ـ تفضلي يا آنسة ريم.. ريم الشاذلي أليس كذلك؟

ريم: ـ نعم.

جمال: ـ والآن هل لي أن أعرف سبب اصرارك على مقابلتي؟

ابتلعت غصتها في محاولة لإظهار نبرتها الواثقة التي كادت أن تهرب منها عند رؤيته ثم تابعت: ـ السطور بين يديك سيد جمال.. تلك الكلمات هي سبب مقابلتي لك.

جمال: ـ وما شأني أنا بهذا الهراء؟!

ريم: ـ هو شأن عاصم الرازي.. الرازي هو بطل تلك الفضيحة ولكنني لم أقم بنشر هذا بعد.

تابع دون اكتراث: ـ مرة أخرى وما شأني بذلك!

تابعت: ـ المرأة بطلة القصة أنثى ضعيفة لن تستطيع محاربة رجل مثله وحدها خاصةً أنه حاول قتلها منذ أيام.

جذبت انتباهه فرمقها بتفحص ثم تابع: ـ أكملي..

ريم: ـ الفتاة ستقوم بتقديم بلاغ في غضون ساعات.. إتهام بالتحريض على القتل.

فرك ذقنه مردفاً: ـ وهل تظنين أن فتاتك ستضر رجلاً مثل الرازي بهذا البلاغ الواهي!

ريم بتحدي: ـ فتاتي لديها شهود على محاولة القتل والتهديد وكانت نزيلة بالمشفى منذ شهر بعد حادث سقوط آخر من نافذة طبيب نسائي شهير بعد أن أجبرها عاصم على إجهاض الجنين وقد شوهد عاصم يومها بالعيادة وبعدها بالمشفى.

جمال: ـ شهودك سيغيرون أقوالهم تحت أقل ضغط, كما أن ظهوره معها منطقياً فهي قريبته.. ومرة أخرى ما شأني أنا بكل هذا!!

ريم: ـ أنت رجل ذكي سيد جمال وأنا أعلم جيداً أنك ستهتم بتلك القضية وستساعدنا أيضاً.

صمت لوهلة متفكراً ثم تابع: ـ أنتِ ليس لديكِ شيء.

ريم: ـ حقيقةً لدي شيئان.

رمقها باهتمام فتابعت: ـ لدي مكالمة هاتفية أجراها عاصم مع ضحيته في الليلة التي قام فيها بالإعتداء عليها ومكالمة أخرى وهي تخبره بأمر الجنين.

تابع بمكر: ـ أقصى ما ستحصلين عليه من شركة الإتصالات هو سجل المكالمات وهذا لا يثبت شيء.

ريم: ـ سيدى.. أنا لم آتِ إليك من أجل شركة الإتصالات أنا هنا من أجل كيان آخر أعلم جيداً أنه لا يحتفظ فقط بسجل المكالمات بل بفحواها أيضاً!

ابتسم بثقة متابعاً: ـ هل تصدقين لغو صحف الفضائح؟!

ريم: ـ الدخان هو نتاج النيران أليس كذلك؟

تابع باهتمام: ـ لديه حصانة.

ريم: ـ وكل ما نحتاجه بعد تقديم البلاغ, المساعدة من رجل شريف لتأخذ المسكينة حقها ولم أستطع التفكير بسواك سيد زيدان فالوطن حقاً يحتاج للتخلص من أمثاله وعودة أمثالك.

ابتسم زيدان.. فهو لم يتخيل أبداً أن تأتي له فتاة رثة المظهر وصغيرة الحجم وتحمل بين قبضتيها شهادة وفاة الرازي برصاصة الرحمة مثل خيل الحكومة بعد انتهاء دورها!

امتدت قبضته لهاتفه ليطلب رقماً عزيزاً عليه ويعلم جيداً أنه لن يخذله: ـ صباح الخير.. مباحث أمن الدولة.. أود محادثة العقيد أمجد شوقي.

لو أخبرها أحدهم منذ شهر أنها سوف تتوجه لعيادة طبيبة نسائية بأحد المحافظات للحصول على صورة الآشعة لجنين تم إجهاضه بعد حادثة انتحار لكانت انهارت ضحكاً من عبث خياله.

ابتسمت ساخرة وتذكرت سارة, المسكينة تُظهر شجاعة واهية.. حمقاء.. والآن هي لم تستطع حتى القدوم للبلدة خوفاً من التقاء أحد معارفها بالمصادفة, ولكنه في النهاية قرار حكيم فمن الأفضل لها الاختفاء قليلاً.. أمسكت بهاتفها واتصلت بها مرة أخرى للإطمئنان عليها فهي لم تكن تريد تركها وحيدة بالمنزل ولكن ما باليد حيلة.

أفاقت سارة من شرودها على صوت الهاتف, طمأنت هند وأعادت وصف العنوان لها من جديد ثم عادت مرة أخرى لشرودها...

كانت الساعة قد قاربت على الثامنة مساءاً, نظرت بحزن للمشروب بيديها الذي أعدته بأعجوبة وهي تلتفت كل لحظة يميناً ويساراً ظناً منها أن مهاجمها سيعود مرة أخرى, بأنفاس مرتعشة ضغطت على كوبها حتى ابيضت مفاصلها.. لقد ظنت أنها تخلصت من تلك الحالة من الضعف ولكن يبدو أنها كانت مخطئة فهي منذ نصف ساعة تجلس على المقعد الهزاز تمسك بالكوب الذي كاد أن يصبح مثلجاً دون أن ترتشف منه رشفة واحدة وتراقب الشرفة ظناً منها أنها ستتهاوى منها ربما بعد دقائق...

أغمضت عينيها في ألم فهي قابعة بيأس وكأنها تنتظر الموت بكل خضوع كعادتها..

فلينل منها عاصم, وليسحقها أسامة, وتهينها فتنة.. فهي أنثى وُجدت فقط من أجل الإذعان..

أبت عليها العبرات الراحة, تجمدت بمقلتيها وكأن عبراتها أيضاً قررت التمرد.. الرفض.. العصيان..

انتفضت من مقعدها وقد أطاحت بكوبها حتى تناثرت أشلائه على السجادة..

ابتسامة ساخرة علت ثغرها فهي تحتاج لمشروب آخر جديد.. ساخن.. وستشربه بالشرفة!.

صفير الهواء اقتحم أذنيها وبرودة الرياح اخترقت مسامها فانكمشت داخل شالها الصوفي وعدلت من حجابها ثم ابتسمت محدثة نفسها:

"لو لم يقتلني عاصم حتماً سيقتلني هذا الصقيع".

ـ مساء الخير!

أجفلها صوته الذي ظهر من العدم, استدارت في فزع لتجده بشرفته يرمقها بابتسامة ساحرة.. أغمضت عينيها بعفوية وكأنها ستتغلب على حمرة وجنتيها وتلك الدماء التي انتفضت بوجهها عندما فاجآها, تابع بمكر: ـ سارة.. هل أنتِ بخير؟

صمتت لوهلة وقد تمكن منها الضيق لتطفله عليها والتلفظ باسمها وكأنهما صديقين!

تابعت بجفاء: ـ نعم.. أشكرك.

همت لترحل ولكنه استوقفها بنبرة صارمة: ـ انتظري..

أردفت: ـ ماذا؟

أدهم: ـ أين هند؟

ابتلعت غصتها في خوف ثم تابعت بارتباك: ـ بالداخل...

صمت قليلاً وهو يراقبها, تلك المرأة حمقاء حتى النخاع أم ربما نقية كصفحة مياه متلألأة تحمل أطياف الشمس فوق سطحها..

الطفل الصغير يستطيع أن يتبين دون جهد أنها كاذبة..

هي وحيدة بالمنزل.. خائفة.. مرتعدة..

من حظها أن العميل لا يريدها ميتة الآن وبتلك اللحظة..

أم ربما من حظه فحتماً إذا إحتجزها معه الآن وبين تلك الجدران آخر ما سيفكر به هو قتلها!

تابعت في رغبة قوية للهروب من اقتحام نظراته: ـ تريد هند؟

رمقها بجرأة متابعاً: ـ ليست هي من أريد!

تمكنت منها الرهبة وعادت خطوتين إلى الوراء وهي تردد بارتباك: ـ عفواً!

ابتسامة مشاكسة علت ثغره ثم تابع: ـ فقط أردت أن أخبرها أنني على استعداد للشهادة فقد رأيت الجاني عن قرب وأستطيع بكل سلاسة وصف ملامحه فأنا بارع في تذكر الملامح حتى ولو بعد نظرة خاطفة!

إيماءة بسيطة كانت هي جوابها ثم أردفت هامسة: ـ شكراً لك.

كادت أن تغادر ولكنه استوقفها مرة أخرى بنبرة دافئة: ـ مشروب الياسمين؟

أجابته بدهشة: ـ نعم!

أدهم: ـ مشروبك المفضل على ما يبدو؟

سارة: ـ بالفعل.

أدهم: ـ هو يشبهك.

كان مقتحماً.. جريئاً.. مخيفاً ويمتلك من الجاذبية ما أبقاها مستمعة إليه, تابع بصوت خافت: ـ هل تسمحين لي بتذوقه؟

سارة مرددة كلماته بدهشة أصبحت ملازمة لها: ـ تتذوقه؟!

أدهم ضاحكاً: ـ هل أنتِ بخيلة أم ماذا!.. ألا أستحق مشروب دافئ بعد أن أنقذتك مرتين؟!!

غمز لها بعينه اليسرى قاصداً المرة الثانية عندما تعرضت للإغماء بين ذراعيه, زفرت بضيق وظلت واجمة فتابع بنبرة واثقة: ـ تستطيعين تمريره إليَّ من خلال الشرفة فالمسافة قريبة.

لم تتحرك ظلت متجمدة مكانها تراقبه وهو يقترب من سور شرفتها, هو ببساطة يستطيع المرور بين الشرفتين إن أراد..

رجفة قوية اجتاحت جسدها وتمكن من وجهها الشحوب فلقد أيقنت أنها خائفة منه.. قطع أفكارها صوته الأجش وقد اتسمت نبرته بجدية في تلك اللحظة:

ـ سارة.. هل أنتِ خائفة مني؟

لا تدري لماذا قفزت عبارة هند بعقلها في تلك اللحظة

"أنتِ لقمة مستساغة.. هشة لدرجة الخضوع.. أنتِ هي الضحية الحمقاء التي تتجول بغابة السبع دون وعي"

إنه الخوف.. لقد سمعت مرة بأحد البرامج الوثائقية بالتلفاز أن الخوف له رائحة, وأن الجسد يفرز رائحة عند الشعور الشديد بالخوف.. رائحة تميزها على الفور الحيوانات المفترسة ومن ثم تبدأ بمهاجمته.

أغمضت عينيها في اضطراب لقد افترسها أحد تلك الحيوانات من قبل وهي لن تسمح بحدوث ذلك مرة أخرى..

تصلبت ملامحها وكأنها في حالة متفردة من محاولة استدعاء تلك القوة الغائبة عن عالمها أم ربما كما تقول هند العزيمة..

توجهت ببصرها نحوه في ثقة ثم أردفت: ـ بالطبع لا.

ابتسم وهو يراقبها متوجهة نحوه متدثرة بشجاعة حمقاء تحاول دون جدوى أن تُخفي بها ارتجافها, مدت يدها إليه وهي ممسكة بكوبها في ارتباك, ارتباك بلغ عنان السماء عندما احتوى أناملها عن قصد بين قبضته عندها سحبت يدها في جزع تاركة الكوب ليتهاوى من ارتفاع عشرة أدوار حتى غابت ملامحه وسُمع دوي تحطيمه على الأسفلت!..

عاد نحوها ببصره ولكنها كانت قد اختفت.. هرعت مسرعة للداخل هاربة من اقتحامه لسُكناها دون هوادة.

أخرج لفافة من التبغ ثم زفر دخانها في الفراغ أمامه متفكراً في تلك المرأة التي ارتبكت كعذراء من لمسة يديه ويتهمها رجل كعاصم الرازي بإغوائه!!

الفصل الثاني عشر

امرأة منسية؛ هي تلك القابعة بمنزل اعتادت جدرانه برودة الثلج..

ألفت جفاءه واعتادها هو ثلجية بين ذراعيه.. تنهيدة حارة خرجت من بين شفتيها.. تحسست خصلاتها المبعثرة لتتذكر ليلة الأمس..

طلبها زوجها ولبت نداءه!

ما الجديد؟!.. عبثه مع أخريات؟!..هي تعلم ذلك ومنذ زمن!..

منذ انهارت بين ذراعي والدتها باكية لتمطرها بأخر نصائحها؛

التجاهل.. الغفلة الواعية!

وقد كان..

ومرت سنوات.. أوقات في كنف رجل أصبح جداراً لا تستطيع اختراقه,

لا.. بل منذ البداية وهو كالجدار الصلب تشدو حمايته وتخشى سقوطه فوق رأسها!..منذ زفت لها والدتها البشرى؛ ستكون عروس الرازي..

عاصم الرازي!

تصلب جسدها الصغير بين أكفف نساء انتهكن خجلها لتصبح أجمل عروس؛ حلت ضفائرها العتيدة فوق وسادته, وأصبحت طوع أمره منذ وقتها..

صوته الأجش قطع سيل أفكارها وعبراتها, انتبهت أنها قد أزاحت الستائر الثقيلة دون ادراك وتركت ضوء الشمس ليتسلل نحو عزلة ظلامه, مع تلفظه باسمها بنزق وجدت نفسها تغلق الستائر في خوف..

ارتجافة اجتاحت جسدها قلقاً من غضبه, فهكذا اعتادته.. غاضباً.. قاسياً.. صارماً.. راغباً وقتما أراد وخائناً!

عدلت من خصلاتها المتناثرة والتقطت عويناتها من فوق الطاولة ثم أجابته:

ـ صباح الخير..

عاصم متثائباً: ـ متى استيقظتِ؟

صفاء: ـ منذ دقائق.

عاصم: ـ وكان يجب أن أستيقظ أنا أيضاً!

قالها ساخراً وهو يشير بيده نحو النافذة..

تلعثمت مجيبة: ـ آسفة لم أكن أقصد.

استدارت لتتركه ولكنها استوقفها بلهجة آمرة: ـ انتظري..

شعرت بخطواته تقترب منها بعد أن نهض من فراشه, أحكم قبضتيه القويتين حول خصرها ثم همس متابعاً: ـ لماذا تختلف نبرتك بعد كل لقاء يجمعنا كزوجين؟!

تلعثمت مرة أخرى.. لم تجب, تابع ببأس: ـ تفقد عيناكِ بريقهما وتتحشرج نبرة صوتك وكأنها تشدو البكاء.. أتظنين أنني لم ألحظ ذلك؟!

ما به؟!.. هل قرر ذلك الصباح أن يكون بشرياً!..

كادت أن تصرخ, تُفرغ مكنون حسرتها بوجهه ولكنها ببساطة صمتت,

آثرت الاستماع لصوت أنفاسها المضطربة..

ابتعد عنها متوجهاً نحو الحمام متابعاً وكأن ما قاله لتوه كان سراباً: ـ اطلبي منهم تحضير الإفطار.. فلدي موعدٌ مهم بعد ساعة.

ـ مستعدة؟

ابتسمت بقلق لصديقتها, لم تكن مستعدة ولكن متى كانت مستعدة إذاً!

تابعت هند بإصرار:

"NOW OR NEVER"

نعم كما تقول هند إما الآن وإما لا... للأبد..

زفرت وكأنها تُخرج كل طاقتها من الهواء, تابعت ببأس: ـ الآن.

لم تتصور هند أن الوقت الذي ستمضيه سارة مع المحقق سيكون بهذا الطول, لا تتذكر كم لفافة من التبغ أحرقت وكم هاجس انتابها في تلك الدقائق الطويلة التي تسعى دون روية لتحقق لقب ساعات..

تُرى ماذا يحدث بالداخل؟.. كيف تبلين يا سارة؟!

النبرة الواثقة بجانبها جذبت انتباهها؛ كانت ريم قد ظهرت أخيراً بعد دقائق من المسامرة مع أحد العساكر انتهت بكوب ثقيل من الشاي يضاهي صبغة الحبر الأسود..

ارتشفت ريم القليل من كوبها الساخن ثم أردفت: ـ لا تقلقي.

رمقتها هند بسخرية: ـ ثقتك تلك ذكاء أم حماقة؟

ريم بابتسامة: ـ غرور!

هند: ـ لا أعلم كيف وافقتكما على هذا العبث؟!

ريم: ـ أيام وسيكون هذا العبث حقيقة راسخة وصفعة على وجه مجتمع أَلِف الاستعباد

هند: ـ هل تظنين حقاً أن هذا سيغير شيء؟!

ريم: ـ ربما.. ألا يقولون "يضع سره بأضعف خلقه".. تلك الضعيفة بالداخل قد تقلب الطاولة فوق رأس صديقك.

هند: ـ أنتِ حقاً حمقاء.. موهبتك الوحيدة تتمثل في محاورة دون جدوى مع عسكري خدمة لا يجيد حتى صنع الشاي.

ريم: ـ ولكنه يجيد الحديث بل ويعشقه!

هند: ـ ما قصدك؟

ريم: ـ المحاورة التي تسخرين منها هي عملي الذي اعتدته فلا تستهينين بها يا صديقتي!

هند: ـ ماذا علمتِ؟

ريم: ـ علمت أن زيارتي للحصان العجوز ستجني ثمارها وبقوة!

هند: ـ أي حصان!.. ماذا فعلتِ يا ريم؟

ريم بثقة: ـ يحضر الراعي الكلب من أجل الذئب.

هند: ـ كلب أم حصان؟!

ريم: ـ سبع!.. قررت الاستعانة بسبع.

هند: ـ ليلتهمنا جميعاً.

ريم: ـ هو لا يبالي بنا.. هو فقط يريد الرازي.

هند: ـ والنتيجة؟

ريم: ـ محمود راضي!

هند: ـ من؟

ريم: ـ المحقق بالداخل مع سارة هو محمود راضي..

هند: ـ ومن هو محمود راضي؟

ريم: ـ هل تذكرين قضية وزير الصحة منذ شهور؟

هند: ـ نعم بالطبع, فالرجل سيرتدي البدلة الزرقاء للأبد.

ريم: ـ وكان هو رئيس النيابة الذي حقق بتلك القضية.. لم يهدأ حتى أودعه خلف القضبان.. عريضة الإدعاء كانت قاتلة.

هند: ـ والمرتجفة بالداخل تتعامل مع هذا الرجل!

ريم: ـ هي صاحبة حق وليست متهمة.

هند: ـ أنا أعلم ذلك ولكن هو والقاضي والناس لا تعلم.

ريم: ـ وسيعلمون.. عاجلاً أم آجلاً سيعلمون.. ابتهجي يا هند نحن نسطر نهاية الرازي وسننجح.. أنا واثقة أننا سننجح.

ضحكت هند بيأس: ـ حمقاء!

ريم بابتسامة ساخرة: ـ يقول شكسبير أحمق بارع خير من عاقل أحمق.

صمتت بعدها ريم ولكن جملتها كانت تتكرر بعقلها..

"أحمق بارع خير من عاقل أحمق"

هي كالأحمق الذكي قررت السباحة ضد التيار أملاً في تعقيد الأمور.. ارباك الخصم والاستعانة بالعدو, فالحرب سجال وعدو الأمس حليف اليوم فقط تتمنى أن يظل حليفاً للنهاية.

منذ دقائق وهي تراقب مرآتها في صمت, تنظر لامرأة أخرى تحمل بين عينيها عزيمة هي غائبة عن دنياها منذ زمن حيث كانت الاستكانة هي بطلة عالمها دون منازع..

ابتسمت لها المرأة.. همست لها..

لا تخافي.

ولكنها خائفة, مذعورة لحد الموت.

الموت؟!

ألم تكن قريبة منه بما فيه الكفاية لتخشاه أم أن هاجس هذا القرب أصبح يفزعها؟..

طرقات هند على باب الغرفة أخرجتها من هذا العالم الموازي, أحلام يقظتها التي تشدو أن تصبح واقعاً سيقودها حتماً لحافة الجنون..

زفرت بارتجاف لتبتسم لها هند متابعة: ـ واو تبدين غاية في الأناقة.

عاودت النظر لانعكاس صورتها مرة أخرى فالاختلاف كان كلياً؛ تنورة أنيقة من خامة القطيفة المضلعة والسترة مثلها, اللون الكموني الهادئ لكليهما أضفى على صبغة قميصها الحريري الفاتحة مظهراً مميزاً خاصة مع الوشاح المزركش بألوانه الهادئة, هند حقاً لها ذوق بديع فهي من اختارت لها تلك الملابس.

تنحنحت هند متابعة: ـ هيا أيتها الجميلة سنتأخر على العمل.

نظرت نحوها سارة بابتسامة ثم تابعت بتردد: ـ لم أتصور أنني سأبدأ العمل بتلك السرعة!!

هند: ـ أنا من سعيت لهذا, فبعد ما حدث أصبحت غير مطمئنة لتركك وحدك.

سارة: ـ ولكن أنا غير مستعدة بعد.

هند: ـ أعلم.. ومن حسن حظك أن مديرك المباشر سيتغاضى عن هذا مؤقتاً حتى تنهي تدريبك.

سارة بحيرة: ـ هل طلبتِ منه أنتِ ذلك؟

ابتسمت هند ساخرة: ـ هو شخص عصبي للغاية والجميع يهابه فاحذري غضبه.

تبدلت ملامح سارة وتمكن منها القلق فابتسمت هند متابعة: ـ المهندسة هند عبد الكريم قد تكون أسوء مدير تعملين تحت قيادته ولكن أعدك أنها ستعلمك شيئاً.

ابتسمت سارة براحة عندما استوعبت ما تقصده هند, قبل أن تتحرك همست متابعة: ـ لقد تعلمت الكثير بالفعل.

هي المرة الأولى من نوعها التي تخطو فيها داخل هذا العالم.. الشركة لم تكن كبيرة ولكنه النشاط, حركة الموظفين حول هند التي تحولت بمجرد دخولها للمكان لأخرى؛ قاسية, شرسة, يترقب الجميع ردة فعلها, تُحرك هذا وتأمر تلك, وتمسك بهاتفها بيد وبالأخرى تمرر توقيعها على عشرات الأوراق..

وجدت نفسها تراقبها بانبهار غير مدركة لهذا الجسد الذي مر بجانبها ثم عاد ليتفحصها ببطء من رأسها حتى أخمص قدميها!

تراجعت منكمشة من هذا الرجل الغريب تتجول بنظرها بحثاً عن هند, قبل أن تجدها سمعت صوته الهادئ وهو يسألها بفضول: ـ من أنتِ؟

تلعثمت مجيبة: ـ أنا...

ابتسم بثقة وهو يخترق قسماتها بعينيه عن قصد: ـ نعم أنتِ.

خرج صوتها ضعيفاً: ـ سارة.

ابتسم سيف بمكر: ـ عفواً.. لا أسمعك.

ـ سارة مساعدتي الجديدة, سيد سيف.

نظر سيف لأنثاه الشرسة صاحبة الصوت الواثق ثم تابع: ـ مساعدتك الجديدة!.. وهذا دون علمي؟

هند: ـ لقد تحدثت مع السيد راغب وهو يعلم أنني سأكلف شخص بتلك المهمة.

سيف: ـ ومن مدير تلك الشركة أنا أم... راغب؟!

هند: ـ مهندس سيف.. السيد راغب هو المدير العام لتلك الشركة ولكن سيادتك المالك ولا نود ازعاجك بتلك الأمور البسيطة.

ابتسم ساخراً ثم تابع بعد أن رمق سارة بتفحص: ـ أنا أحب هذا الإزعاج لا تقلقي من ذلك.

رمقته بابتسامة صفراء ثم توجهت نحو سارة بحديثها متابعة: ـ لقد تم تجهيز مكتبك يا سارة.. انتظريني بتلك الغرفة.

أومأت سارة برأسها ثم توجهت على الفور للغرفة التي أشارت نحوها هند دون حديث..

ظل سيف يتابعها ببصره ثم توجه نحو هند بمكر متابعاً: ـ رائعة.. جميلة ومطيعة.. أليس لديكِ مساعدة شخصية مثلها من أجلي!

هند: ـ لا.

سيف: ـ ربما علي إذاً الاعتماد عليها فقد تضفي على العمل بتلك الشركة بعض المتعة!

صمتت هند لوهلة بعد أن فهمت مقصده ثم اقتربت منه هامسة باستهزاء: ـ هل تعجبك؟

سيف وقد رمقها بتحدي: ـ جداً.

هند: ـ هل تودني أن أغلفها لك ببعض الأوراق الملونة؟!

سيف وقد استأسد برجولته: ـ أنا أفضل النوع الشفاف!

رمقته بغيظ لتتركه على الفور, تبعها متباهياً: ـ هل أعتبر غضبك غيرة؟

استدارت نحوه ببأس متابعة: ـ أمامك طريق من اثنين إما أن تحترم تلك الشركة وكل من يعمل بداخلها أو أن ترحل محافظاً على بعضاً من كرامتك قبل أن أسحقها بقدمي!

سيف وقد تمكن منه الغضب: ـ لا تختبري غضبي يا هند.

هند: ـ بل أنت من يجب عليه ألا يسعى لاختبار غضبي ولو اقتربت من سارة أو ضايقتها بأي شكل ستواجه هند أخرى لم تعتدها من قبل.

كانت نظرتها قاسية.. غاضبة.. متوعدة.. تحمل الكثير من المشاعر والتي حتماً لم تكن الغيرة احداهن.

تراجع الحارس خطوات للخلف عندما لمحه يتفقد ملامحه بالمرآة قبل أن يتوجه للمصعد, عدّل من ربطة عنقه ثم مرر أنامله ببطء على ذقنه الحليق بغرور, لم يتحرك بعدها فقط ظل يراقب وجهه متفكراً ؛ منذ سنوات وهو يشيد امبراطوريته الخاصة.. عاشق هو لمنصب ولي العهد ولكنه سأمه, فعلى

قدر السبل المتاحة على قدر الأبواب المغلقة بوجهه.. أبواب لن تخضع أقفالها لسطوته بين يوم وليلة وحتماً ليس وهؤلاء الأغبياء تحت إمرته..

انتفض آخر بمكتبه عندما لمحه دالفاً بهدوء يحمل خلفه عاصفة, رحَّب به قائلاً: ـ سيد عادل.. أهلاً أهلاً لقد شرفت مكتبي المتواضع.

قذف عادل بوجهه جريدة متهالكة متمتماً بغضب: ـ ما هذا؟

ابتلع غصته في غيظ, سحقاً لهذا الزمن الذي جعل رجل مثله طالما أطلقوا عليه الأسطورة يعمل تحت إمرة هذا العابث الذي لم يكن ليصل لما وصل إليه لولا نفوذ أبيه,

تابع بابتسامة كاذبة: ـ تلك جريدة صفراء تشدو الشهرة ليس أكثر, سيد عادل.

رمقه عادل بغضب متابعاً: ـ هذا الهراء تخدع به شخصاً غيري.. أنت من رشحت لي هذا الرازي يا شاهين.

"شاهين!.. شاهين!!.. هكذا يلفظها دون ألقاب..

لقد كنت طفلاً تتبول بسروالك وقتما كنت أنا أتحرك بموكب لا يقل عن خمسة سيارات".

تابع عادل بحدة: ـ هل تسمعني؟

شاهين: ـ أسمعك.

عادل: ـ لقد تغاضيت عن هذا الأحمق زير النساء وهفواته لسنوات ولكن أن يصل به الأمر لهذا العبث!

شاهين: ـ اهدأ سيد عادل.. عاصم له هفواته ولكنها ليست بهذا القدر من الخطورة.. إنها أخطاء قابلة للاصلاح.

عادل: ـ اصلاح!.. هل تعلم أن جمال زيدان قد دس أنفه في تلك الهفوات بالفعل؟

شاهين: ـ فليدسها كما يشاء الأمر كله منوط بنا نحن.

عادل: ـ وهل تعلم أنه حصل على تسجيلات من جهة أمنية تفيد بتورط حصانك الأسود بالأمر؟

انتفض شاهين وقد تمكن الغضب من ملامحه متابعاً: ـ ماذا تقول؟!؟؟ كيف حدث هذا؟.. وكيف حصل جمال على...

قاطعه عادل: ـ هل تظن أننا امتلكنا كل شيء بالفعل.. ألا تعلم أن هذا الـ "زيدان" تمتد أذرعه بأكثر الأماكن حساسية منذ زمن وما زال؟

شاهين: ـ ولكنه لا يجرؤ.. لن يجرؤ على فعل شيء دون إذنك, سيد عادل.

صمت عادل لوهلة ثم توجه نحو النافذة التي كانت تطل على جزء كبير من نهر النيل بأضوائه المبهرة على جانبيه ثم تابع: ـ لقد سئمت من تلك الحماقات, فهذا يسعى لامتلاك راقصة فيتسبب بفضيحة له وللحزب, وآخر يتطورت بجناية قتل فيجلب لنا من الأقاويل ما نحن في غنى عنه.. غير مسؤولين, جميعكم غير مسؤولين تلقون بأحجاركم عابثين بهدوء نهري وأنا أود الحفاظ على هذا الهدوء بشدة لتعبر سفينتي بسلام نحو البر الآخر.

شاهين: ـ ستعبر سيد عادل.. لا تقلق.

استدار عادل نحوه ليتابع بلهجة آمرة: ـ رجلك سيتحمل مسؤولية نفسه منذ الآن.

شاهين: ـ عفواً.. ما معنى هذا؟.

عادل: ـ أنا لن أغامر بالتوقف من أجل عابث قد يزيد ثقوب السفينة أكثر مما تحتمل.. هو وحده الآن.. نجا سنستقبله استقبال الأبطال, هلك سينال ما يستحقه.. فأنا رجل لا أبالِ سوى بالشفافية ومصلحة هذا الوطن!

ابتسم شاهين ساخراً: ـ كبش فداء!

رمقه عادل ببأس: ـ غداً سيصلك طلب من النائب العام برفع الحصانة عن الرازي وستوافق.

كانت الساعة قد تعدت السادسة مساءاً عندما دلفت سارة للمنزل هي وهند.. ثمان ساعات من العمل المتواصل..

كلفت هند أحد الموظفات بتولي تدريبها, لم تتصور أنها قد تحصل على هذا الكم من المعلومات في يوم واحد بل وتستوعبه أيضاً, إنها المرة الأولى التي تشعر فيها بتلك المنحنيات المضيئة داخل رأسها, تُفكر وتقرر وتدرس وتفهم.. طوال عمرها وهي تعلم أن العمل حاجة, مصدر أساسي للرزق ولكنها الآن أيقنت بُعد آخر لهذا النشاط, إنه خطوة أولى نحو شخصية أخرى.. مختلفة.. شخصية ستتمرد قريباً على ثقافة التبعية التي اعتادتها منذ الصغر..

نعم لن تكون تابعة لأحد منذ الآن.. لا أحد سوى سارة..

لمحت هند وقد تخلصت سريعاً من حذائها كعادتها بمجرد دخولها للمنزل وحلت خصلات شعرها ثم قالت وهي تتوجه نحو الحمام: ـ سارة.. أنا أحتاج لحمام دافئ, أطلبي لنا طعام على ذوقك.. الأرقام لديكِ بجانب الهاتف.

وقفت سارة في حيرة لدقائق أمام قوائم المطاعم دون أن تقرر ماذا ستطلب, ابتسمت ساخرة فهي منذ دقائق كانت تحلم بتمرد واستقلال وقرار و.. و.. و.. والآن هي قلقة من تحديد نوعية طعام من أجل هند!!

جذبت أحد قوائم الطعام بتحدي وسريعاً اختارت بعض الأصناف ثم قامت بمحادثة المطعم...

كان صوت خرير الماء ما زال منبعثاً من الحمام, يبدو أن هند كانت تحتاج حقاً لهذا الشلال الدافئ فوق جسدها خاصة مع هذا العراك الخفي بينها وبين هذا الوسيم الذي يلاحقها بين أروقة الشركة.. نعم هو هذا الرجل المتسبب في غضبها وشراستها, حزنها وقلقها وتلك النظرة المتحدية بعينيها.. فخلف صمود هند وقوتها قلب ضعيف.. قلب أنثى.

نفضت أفكارها بشأن هند وتوجهت لصنع مشروبها الدافئ, ابتسمت عندما اخترق أنفها عبق الياسمين ورغماً عنها تذكرته؛ كلماته, نبرته الدافئة, نظرته نحوها التي لم تلمحها في عيني رجل قبله..

استدركت نفسها قبل أن تغوص في أفكارها نحوه وقطبت جبينها في لوم ولكن رغم ذلك توجهت للشرفة, اعتنت بالنباتات كعادتها ثم راقبت السماء لبعض الوقت وقبل أن تعود أدراجها اختلست بضعة نظرات نحو شرفته ولكنه لم يكن هناك.

تمكن منها الضيق مرة أخرى, أفكار تغدو وتجئ برأسها بشأن رجل هو غريب عنها.. ما تلك الحماقة!

طرقات الباب جذبت انتباهها فتوجهت نحوه معتقدة أنه فتى التوصيل, ولكنها تسمرت مكانها عندما وجدته أمامها!

ابتسامة ماكرة علت ثغره وهو يتأمل تلك الوجنتين المنتفضيتن بحمرة الخجل وشفتيها الرقيقتين التي هربت منهما الكلمات..

قال بثقة: ـ مساء الخير.

سارة: ـ مساء الخير.

أدهم: ـ كيف حالك؟

سارة: ـ بخير.

أدهم: ـ أود أن أقدم اعتذاري

سارة: ـ اعتذارك!!

أدهم: ـ بشأن المرة السابقة.. أنا لم أكن أقصد..

قاطعته بصرامة: ـ لم يحدث شيء.

ابتسم بشراسة ثم تابع: ـ هل أخبرتِ هند؟

سارة: ـ بشأن ماذا؟

أدهم: ـ شهادتي عن الجاني.

صمتت لوهلة ثم تابعت: ـ لقد قمت بتقديم بلاغ وأخبرت المحقق بكل ما حدث وربما يتم استدعائك للشهادة.

ثقة واهية تصطنعها تلك المرأة, هي تبدو متخبطة بين ضعفها ووجهتها نحو دروب الأقوياء, ظل صامتاً لوهلة يتأمل ملامحها فقد انبهر بقسماتها الهادئة منذ رآها والآن هي تبدو مهلكة بهذا الوشاح الذي يبدو أنه صُنع خصيصاً من أجل توهج بشرتها وتلك السترة التي تخفي تحتها قميص حريري يكاد يضاهي بشرتها العاجية في نعومته..

تراجعت للخلف في ضيق وخوف من اقتحام نظراته ثم تابعت في نبرة جافة: ـ أشكرك سيد أدهم على اهتمامك.

أدهم: ـ العفو.

همت للهروب واغلاق الباب رغبة في رحيله ولكنه استوقفها هامساً: ـ مشروبي؟

اجابته بدهشة: ـ عفواً!!

أدهم: ـ مشروب الياسمين الذي حرمتيني من تذوقه المرة السابقة.

رمقته بغضب ولكنه تابع باصرار: ـ هل تسمحين لي؟

كانت تقف ممسكة بالكوب بكلتا يديها وكأنه كنزها الثمين الذي لن تسمح بتبعثر أجزائه تلك المرة.

تابع ساخراً: ـ الآن بدأت أعتقد أنكِ أسقطيه عن قصد حتى لا أتذوقه!.. هل تخشين عليَّ من إدمانه؟.. حقاً أنا أشعر بالإطراء.

تابعت بتحدي: ـ لا تشعر بالإطراء!

ضحك بشدة, جذبتها ابتسامته الواسعة, الغمزتين على جانبي وجهه ولمعة عينيه اللاتي قاربتا العقيق في رونقه, لحيته النابتة التي أضافت للون بشرته القمحية سحراً خاصاً يتفرد به وحده..

التقط نظراتها نحوه فاستدركت نفسها لتنظر نحو الأرض فأردف بثقة: ـ أنا أصر على تذوقه!.

قبل أن توقن مغزى خطواته نحوها وجدته قد احتوى أناملها الممسكة بالكوب بين قبضيته ليقربه من فمه مرتشفاً محتواه ببطء مخترقاً حصونها بنظراته..

أعاد لها يديها المرتجفتين ثم تابع بنبرة مشاكسة: ـ شهي.. يبدو أنني سأدمنه!

تركها عائداً لأدراجه وظلت هي متجمدة مكانها لدقائق وقد تمكن الهلع من نبضات قلبها, شعور غريب يجتاحها كلما وقفت أمام هذا الرجل, شعور لم تختبره من قبل ومذعورة هي من اختباره!

صباح مشرق.. الأبناء في أجازة.. وهي كما هي؛ امرأة منسية بعالم رجلٍ يتذكرها كلما أراد؛ زوجها العزيز غائب منذ يومين, اعتادت هي ذلك

ربما يتذكرها غداً أو بعد غد بمكالمة مقتضبة ليخبرها أنه على بُعد آلاف الأميال!..

صراخ سلمى وزعيق محمود جذبا انتباهها, وبختهما بصرامة ثم عادت مرة أخرى لتصفح الجريدة, تمر على السطور سريعاً في محاولة لقتل الوقت

سطور تحمل خبراً اقتحم عينيها بإصرار؛ كلمات ثقيلة الحبر والوزن قلبت عالمها في لحظات..

"رفع الحصانة عن عضو البرلمان عاصم الرازي"

الفصل الثالث عشر

حين يشتد القيظ فوق رؤوس العباد وتُلهب حرارة الشمس أجسادهم وتأبى نسمات الهواء اختراق أنفاسهم, حين تغمر الضوضاء عقولهم وينهش الجوع ببطونهم دون رحمة, عندها سيجتاح الحقد تلك العقول الصغيرة دون هواده ولكن ليس هو..

فهو لم يكن مثلهم كان دوماً مختلف.

ـ ياسين.. ياسين..

كانت فتاة فارعة الطول يطلقون عليها قمر, هي لم تكن بهذا الجمال الآخاذ الذي يستحق لقب كوكب الضوء ولكنها كانت ذات غنج أسال لعاب الكثيرين حولها من تلك الكائنات التي لم تستطع الموازنة بين غرائزها الفطرية وشعورها الاجتماعي!..

أطفال.. مراهقين.. رجال!

كائنات منبوذة تقضي نهارها بين التسول وعمليات البيع الإجباري, والأغنياء منهم هم الذين تطورت مهارتهم وأصبحوا يتقنون البلطجة, أما الفتيات؛ فالصغيرات منهن احترفن بيع المناديل الورقية والورود, والمراهقات احترفن بيع ما هو أثمن تارة من أجل الأموال وتارة من أجل البقاء.

ومثلهن كانت قمر, فقدت هذا الكنز الذين يطلقون عليه العذرية قبل أن تدرك قيمته ومنذ حينها لم يعد لشيء أهمية.. فالحياة تمر دون نكهة, فهذا هو العالم كما يجب أن يكون.

ابتسمت بدلال وهي تكرر ندائها: ـ ياسين..

هذا الفتى الهادئ الذي ظهر لها بليلة مظلمة من العدم, كانت باكية فقد وعدها صديقها بلحظات هادئة من أجله فقط ولكن كالعادة سقطت بفخ شرذمة من الكلاب الضالة, انتهى اللقاء كسابقيه وغادرت مترنحة وعندها اصطدمت به؛ كان فتياً قوي الجسد تحمل عيناه بريقاً مميزاً لا يمتلكه هؤلاء من هم مثلها والذين تتعثر بهم كل ليلة.. أسندها بحنان وعندها لمحت في الابتسامة التي علت ثغره براءة تمقتها, براءة مراهق ظن أن الخلاص من قسوة الدنيا في هروب من بيت أبَى عليه الحياة, مراهق غاب عن عالم أسرة اعتادت الأبناء حتى أصبحوا عالة آن آوان الخلاص منها فغادر للأبد..

غادر ليكون بعالم قمر حيث غابت النكهة غاب اللون والطعم والرائحة وغاب ياسين وظهر أدهم.

ابتسم وهو يرمقها بشغف, كان يحمل بيده لفافة ساخنة من الطعام..

جلست أمامه ثم قالت وهو تمضغ اللقيمات بتلذذ: ـ شهي.

ياسين: ـ لقد أحضرته من أجلك خصيصاً.

قمر: ـ حقاً!.

ابتسامة واسعة كانت هي جوابه فأمامها يكون عاشق حتى الثمالة, ولكن هي.. هي لم ترى فيه سوى طفل وليس أكثر, رغم الخشونة التي زينت صوته

والزغب الظاهر فوق شفتيه إلا أن مشاعره كشاب على أعتاب الرجولة كانت أبعد ما يكون عن عقلها وعندما أيقنت كانت الثورة.. الغضب.. الرفض.. الحماقة!

شاهدها ترحل مترنحة بعد ليلة أخرى لم تكلف نفسها عناءاً في اخفاء معالمها تلك المرة وببراءة عاشق هاجمها.. وبخها.. أنبها..

غفر لها!

ثم غاب بين ذراعيها...

أحمق أنت يا ياسين.. ألا تدرك قسوة هذا العالم حولك!..

عاشق أنت لجسد الأنثى مثلهم.. تتوسم خيراً في حياة فقدت نكهتها منذ وُلدنا.. ما تبحث عنه لم يُصنع من أجلنا أيها البائس.. ظننتك مختلفاً.. بل أردتك مختلفاً!

ولكن.. عفواً أنا المخطئة...

لم يدرك فحوى حديثها ومعاني عباراتها إلا عندما وجد نفسه في اليوم التالي مذنباً.. مجرماً.. متهماً هو ومن سبقوه باغتصابها..

كان مرتجفاً.. خائفاً.. مذعوراً, شهد تبدل عالمه في غضون أشهر, من جحيم أب وزوجته مروراً بهروبٍ ظناً منه أنه الخلاص حتى أصبح مجرد رقم بغرفة بمؤسسة تحمل معنى الإصلاح من الخارج, وبالداخل كانت تتم صناعة.. مجرم.

سنوات بين جدارن سجن من أجل من هم في مثل عمره.. إما أن يكون الأقوى أو ببساطة لا يكون!.. واختار أن يكون الأقوى.. وتتلمذ على يد النخبة.. الكبار..

وأصبح الآس.

ابتسامة ساخرة ارتسمت على زاوية ثغره وزفرة حارة أطلقها بعد أن غادر ركب ذكراه.. وعادت عيناه مرة أخرى للمرور سطور الرازي وسقوط حصانته.

سارة.. وقمر..

الشقراء والسمراء

بريئة الملامح التي سلبت عقله بنكهة الياسمين, وذات الغنج التي نزعت براءته وألقته بين غياهب حياة سِمَتها أنها دون نكهة.

دون لون أو طعم أو رائحة.

ابتسم شاهين بمكر مستقبلاً زائره ثم تابع بنبرة واثقة: ـ عدت من سفرك مبكراً!

استقر عاصم في المقعد المقابل وقال بصوتٍ أجش: ـ وهل تود أن يُتبع خبر رفع الحصانة بخبر الهروب؟!

أفرغ شرابه الأصفر بجوفه على دفعة واحدة ثم تابع: ـ تخليتم عني سريعاً!

ارتشف شاهين القليل من مشروبه بهدوء ثم قال بنبرة جادة: ـ أنت من تخليت عن نفسك عاصم.

عاصم باستهزاء: ـ أنا!

شاهين: ـ الزم حدودك, عاصم.. هل نسيت مَن تكون!

عاصم: ـ بل أنتم مَن نسيتم من أكون.. نسيتم خدماتي من أجل الحزب.

شاهين بغضب: ـ الحزب لا ينتظر الخدمات, عاصم.. أنتم مَن تلهثون خلفه!

زفر عاصم بضيق ثم استعاد هدوءه متابعاً: ـ عفواً سيد شاهين.. ما حدث ويحدث..

قاطعه شاهين: ـ أنت من فعلت ذلك.

عاصم: ـ تلك الفتاة مأجورة صدقني.

شاهين: ـ لا أهتم!. الأهم أن يصدقك القاضي.

عاصم: ـ قاضي! هل سيصل الأمر لهذا الحد؟

نهض شاهين تاركاً مقعده ثم تابع وهو يرسم أشكال متناثرة من الدخان الأزرق على الزجاج أمامه والمُطِّل على نيل المحروسة: ـ فتاتك ليست بالطعم السهل كما تصورت.. لقد دس جمال زيدان أنفه بالأمر ولن يمر مرور الكرام.

تمكن الشحوب من وجه عاصم فتمتم متابعاً: ـ جمال زيدان!.. كيف ومتى؟

تابع شاهين: ـ زيارة من صحفية مشاكسة.

تمتم عاصم بغضب: ـ ريم الشاذلي.

شاهين: ـ زيدان لن يترك تلك الفرصة لتمر دون استغلالها.. هو يريدك خارج الحزب والبرلمان وأنا حتى الآن أراك رجلي وأثق بك!

عاصم ببأس: ـ وبماذا تنصحني سيد شاهين؟

شاهين وقد لمعت عيناه وهو يتذكر جهد سنوات بذله بين جدران هذا الحزب من أجل اختيار رجاله.. صفوته.. أهل ثقته الذين لن يفكروا بتخطيه ولن يستطيعوا, تابع بلكنة إنجليزية متمكنة:

"Clean your own shit"

صمت عاصم قليلاً وهو يراقب ملامح شاهين الصارمة ثم تابع برضوخ: ـ أمرك.

تابع شاهين بنفس النبرة القوية دون أن يستدير نحوه: ـ دون حماقة.. دون دماء.. فهمت؟

عاصم: ـ فهمت.

شاهين: ـ سعد عتمان!!

عاصم: ـ نعم!

شاهين: ـ سعد عتمان ينتظرك بمكتبه.. موعدك بعد ساعة.

أشار له شاهين بيده لكي يغادر دون أن يكلف نفسه عناء وداعه..

ضحكة ساخرة رنت مجلجلة داخل سيارته الرباعية, الآن أصبح أحد المترددين على مكتب سعد عتمان!..

الآن فقط أيقن أنه يحتاج لأحد أباطرة الفساد.. بل أحد منقذي أباطرة الفساد؛ المحامي.. سعد عتمان.

ـ أين راغب؟

كانت تلك هي عبارتها عندما أيقنت تحرك الباخرة العائمة دون أن يظهر مديرها الهادئ في الموعد المتفق عليه..

ابتسم سيف بمكر ثم همس متابعاً: ـ لقد أخبرته بإلغاء الإجتماع!

تمكن الغضب من ملامحها وكادت أن تتهور وتهوي بكأس المشروب البارد بيدها فوق رأسه قبل أن تمطره بعبارات زاعقة: ـ من تظن نفسك حتى تفعل أمراً كهذا!.. أنت تعلم أهمية هذا الاجتماع وأهمية حضور راغب.

عدّل من هندامه بغرور ثم تابع: ـ ليس بالأمر الجلي وهو ليس باجتماع, هو مجرد عشاء عمل لا يستدعي حضوره.

صمتت لوهلة غير مصدقة ثم تابعت: ـ يا الهي!!.. أنت حقاً ميئوس منك.

تخطه عائدة لطاولة الوفد الفرنسي ولكنه اعترض طريقها متابعاً: ـ وأنتِ تثيرين جنوني!

رمقته بغضب محذرة: ـ ابتعد عن طريقي.

أمسك معصمها بقبضته ثم تابع بشراسة: ـ سأبتعد الآن ولكن ليس دائماً.

حللت نفسها من قبضته بعنف ثم توجهت بابتسامة زائفة نحو عملائها دون أن تعيره انتباهها طوال السهرة.

كانت سارة قد أنهت لتوها المكالمة مع هند التي أخبرتها أنها ستكون بالمنزل في غضون ساعة, ابتسمت برضى وهي تتذكر غضب هند في الصباح ومحاولة تملصها من موعد هذا الاجتماع الليلي الذي أصر عليه سيف..

هذا الرجل يبدو قوياً وضعيفاً في ذات الوقت!.

أغلقت التلفاز وتوجهت نحو الشرفة, كانت الساعة قد تعدت العاشرة مساءاً بقليل ونسمات الهواء العليل ببرودتها اللطيفة شجعتها على المكوث بالشرفة ربما أكثر من نصف ساعة مستمتعة بمراقبة السماء..

أخيراً ظهر صوته الدافئ في نبرة متناغمة مع ضوء القمر بعينيها: ـ السماء تبدو صافية.

ارتبكت لوهلة ثم عدلت من وشاحها وهي تجيبه: ـ نعم.. تبدو صافية.

اقترب من سور شرفته ثم استأنف حديثه وهو يتطلع نحو النجوم: ـ أعشق مراقبة تلك النقاط الماسية وكأنها لوحة من النعيم.

كانت ملامحه هادئة وعباراته منتقاه بعناية, صمتت لوهلة وهي تراقب غوص نظراته في اللوحة أمامه وكأنه غارق بعالم آخر خاص به وحده, تابعت بصوت مرتجف: ـ إنه إبداع الخالق عز وجل.

أردف متابعاً: ـ نعم ونحن لا نراقب هذا الإبداع سوى في ظلمة الليل.

سارة: ـ عفواً!!

أدهم: ـ هل هناك من يستطيع النظر لزرقة السماء تحت ضوء الشمس؟!

سارة: ـ نحاول ولكن..

قاطعها: ـ لا نستطيع.

سارة: ـ إنه الضوء.

أدهم: ـ بالطبع.. فالظلام يُخفي الكثير ويظهر فقط ما نريد أن نراه ولكن الضوء يُظهر... الحقيقة.

سارة: ـ وما مشكلة الحقيقة؟

ابتسم وهو يستدير نحوها ثم تابع: ـ ببساطة نحن نخشاها فهي مباشرة.. قوية.. مؤلمة كضوء الشمس.

كانت تشعر أنها تائهة بين وقع عباراته الغامضة ونظراته الأكثر غموضاً, ابتسمت بتردد ثم تابعت رغبة في الهروب: ـ تصبح على خير.

تابع وكأنه لم يسمعها: ـ النيابة استدعتني.. سأذهب غداً للإدلاء بأقوالي.

سارة: ـ جيد.. أشكرك.

أدهم: ـ أنا شخص لا أعشق الاستجواب ولكن سأفعل هذا من أجلك.

تمتمت بارتباك: ـ من أجلي! ولكنك أنت مَن عرضت ذلك و..

قاطعها مرة أخرى: ـ عرضت ذلك من أجلك فأنا إن لم أستطع النظر نحو ضوء الشمس فيكفيني بريق خيوطها!.

ابتسامة مشاكسة علت ثغره قبل أن يتركها ويغادر, كانت حائرة غير مدركة لفحوى عبارته وغير مدركة أيضاً لخصلاتها الذهبية التي تناثرت دون قصد من تحت وشاحها وكأنها بريق الشمس في ليلة مظلمة.

كانت شقراء, ممشوقة القوام, ابتسمت بدهاء قبل أن تترك بين يدي مديرها بضعة أوراق ثم رحلت بدلال..

ابتسم سعد بخبث وهو يرمق ضيفه بتمعن ثم تابع: ـ تفضل الشقروات سيد عاصم؟

قهقه ضاحكاً ملئ شدقيه وهو يراقب سكرتيرة محاميه وهي تتهادى بغنج ثم تابع: ـ أنا أفضل كل أنواع الفاكهة!

عدّل سعد من عويناته وهو يتفحص الأوراق بجدية ثم تابع: ـ وسارة تمثل أي نوع, سيد عاصم؟!

تبدلت ملامحه وتملك منه الحنق دون أن يجيب فتابع المحامي الماكر وهو ينظر للصورة أمامه: ـ جميلة.. بريئة الملامح.. بعض العبرات مع نبرة خالصة من الصدق لن تجعل الأمر في صالحنا..

زفر عاصم بضيق ثم تابع: ـ مخادعة.

رفع سعد أحد حاجبيه في استهزاء ثم تابع: ـ النيابة لديها سجل مكالمتين بينكما.

تمكن لون الغضب من وجهه وهو يزمجر متذكراً ما أمطر به شاهين أذنيه: ـ جمال زيدان.

سعد: ـ الفتاة حمقاء ولكن هناك من يساعدها.

عاصم مغتاظاً: ـ المتذاكيتان!

سعد: ـ أريد منك أن تخبرني بالتفاصيل كل شيء.. كل شيء.. وخاصةً فحوى المكالمتين.

قص عاصم على محاميه كل شيء بتفاصيله, كان يتآكل من داخله فهو عاصم الرازي يجلس كتلميذ ليسرد حماقاته أمام رجل يبدو أنه سيكون منقذه.

بعد أن انتهى رمقه سعد بتمعن ثم تابع: ـ وهذا الآس يراقبها من أجلك الآن؟

عاصم: ـ نعم.

سعد: ـ تثق به.

عاصم: ـ هو يهتم فقط بالمال.

سعد: ـ حسناً.. سنحتاج من هذا الرجل ما هو أكثر من مجرد المراقبة.

عاصم: ـ يبدو أنك تفكر في نفس ما فكرت به من قبل!

سعد: ـ ولكن الآخريتين يجب أن تبتعدا قليلاً.

عاصم: ـ أنا أود الفتك بكلتيهما.

سعد بخبث: ـ لا كفانا غضب أهوج.

رمقه عاصم بغيظ فتابع الآخر بثقة: ـ فقط سنزيحهما من طريقنا قليلاً ليس أكثر.

عاصم: ـ أترك الأمر لي.

سعد محذراً: ـ بحكمة سيد عاصم.. حكمة.

أومأ عاصم مطيعاً ثم تابع: ـ وسارة؟

سعد: ـ سنتركها للآس خاصتك.. وفي الوقت الحالي أريد نوال وزوجها السابق أسامة.

قطب عاصم جبينه: ـ أسامة؟!

سعد: ـ نحتاجه بشدة, فلا مجال للخوض بسمعة عابثة دون شهادة الزوج المخدوع!

عاصم: ـ لا أود إقحام العائلة بهذا الأمر.

سعد: ـ زوجة أحد أفراد العائلة اتهمتك بمحاولة قتلها تستراً على إجهاض جنينها منك بعد أن واقعتها بالقوة.. عفواً.. سيد عاصم العائلة في الأمر سواء شئت أم أبيت!.

كان وقع العبارات عليه كسوط مؤلم فسمعته على المحك.. عمله على المحك.. طموحه على المحك..

ستكون نهايتك على يدي أيتها الغبية.. أعدك بهذا ولكن في البداية سأتخلص من جناحيك, وعندها سأنال منكِ وستكونين عبرة لكل من تسول له نفسه الوقوف بوجه الرازي.

أضواء الشهرة؛ هذا البريق.. الاهتمام.. التتبع.. الاقتحام, اقتحام لم تسعَ إليه, لم تتوقع شراسته.. إصراره.. ملاحقته, رهبة اجتاحتها بمجرد أن خطت بقدميها خارج البناية كعادتها كل صباح, هرج ومرج وعشرات الكاميرات تومض ببريقها الخاطف بوجهها..

اقترب منها أحد الصحفيين بل أكثر.. أسئلة واجابات ولفظ الرازي هو المتكرر؛ هل صحيح حاول عاصم الرازي قتلك؟.. ما سر علاقتك بعائلة الرازي؟.. هل روادك الرازي عن نفسك؟.. هل قمتِ بخيانة زوجية بإيعاز منه؟..

ارتجفت في فزع وأحاطت أذنيها بقبضيتها دون جدوى, غابت عن هند التي كانت تزعق بالجمع غاضبة في محاولة يائسة للوصول لسيارتها, وفجأة ارتطمت من الخلف بجسد قوي, أحاط جسدها بإحدى ذراعيه وبالآخر أبعدهم جميعاً عنها, تحرك بها وهي محتمية به وكأنه ملاذها الوحيد!.

عادا مرة أخرى للبناية وتبعتهما هند التي قالت بغضب: ـ تباً لهؤلاء المتطفلين!

نظر أدهم نحو سارة بحنو: ـ أنتِ بخير؟

أومأت برأسها مجيبة دون حديث, تابع موجهاً حديثه لهند: ـ يبدو أنهم حصلوا على العنوان من النيابة.

هند: ـ بتلك السرعة؟!

أدهم: ـ هم يعلمون كيف يحصلون على الخبر, تلك هي حرفتهم.

زفرت هند بضيق فتابع أدهم بلهجة واثقة: ـ تحركي أنتِ.

هند: ـ وحدي!

أدهم: ـ نعم.. فإذا خرجت معكِ سيتبعان كليكما, أعطني العنوان حيث ستتجهين وأنا سأوصلها.

هند: ـ سيتبعونك أيضاً.

أدهم: ـ سيارتي بجراج البناية ولن يتعرفوا على من بداخلها عندما تخرج.

قطبت هند جبينها ثم تابعت: ـ ربما من الأفضل أن نمكث بالمنزل؟

أدهم: ـ هذا غير مجدٍ.. وماذا ستفعلين غداً؟

تكلمت سارة أخيراً وقالت لهند: ـ هل تظنين أنهم يعلمون عنوان العمل أيضاً؟.

هند: ـ لا أظن.. فلا أحد يعلم بعملك سواي.

أدهم: ـ حسناً.. انطلقي أنتِ ونحن سنكون خلفك.. فقط أعطني العنوان.

رضخت هند في النهاية فالجمع بالخارج أغضبها وكانت تود اخراج سارة من البناية بأي طريقة, وبالفعل انطلقت هند بسيارتها وتوجهت سارة مع أدهم من باب خلفي نحو الجراج ثم سيارته..

كانت تشعر بالذعر ولكنها بالرغم من ذلك شعرت أن هذا الرجل هو جدارها.. حاميها!.. أخيراً ظهر أحدهم من أجلها, من أجل حمايتها!..

استقرت بجانبه في السيارة, لم تلحظ ابتسامته الغائبة, جدية نظراته, عبثه بهاتفه الجوال مراسلاً أحدهم..

على بعد أمتار, السيارة رقم 255 ن س ح..

نَفِّذ.

الفصل الرابع عشر

كانت الساعة قد تعدت التاسعة صباحاً وأغلب الموظفين قد وصلوا واستقروا على مكاتبهم... سواها.

تأخرت هند!..

همست سارة لنفسها بالجملة ربما للمرة العاشرة قبل أن تعود مرة أخرى لمراقبة الوقت, كانت تحاول الاتصال بها دون جدوي فهي لا تجيب الهاتف..

ماذا تفعل؟.. أتتصل بأدهم؟!

أدهم.. كان حنوناً معها طول الطريق, نبرته.. لهفته.. نظرته..

لم تشعر من قبل بهذا القدر من الاهتمام من رجلٍ أياً كان, زفرت باضطراب عندما تذكرت توقفه المفاجئ بالسيارة ونبرته الدافئة وهو يعطيها رقم هاتفه منبهاً عليها أن تتصل به في أي وقت إذا ما احتاجت شيئاً.. أي شيء.. عندها ابتسمت بتردد وسجلت الرقم ولكنه لم يتحرك بالسيارة!

ظل يرمقها بنظرة خاصة.. خاصة جداً وكأنه لا يوجد رجل على وجه الأرض يمطر أنثى بنظرة مثل تلك التي اجتاحها بها!, لم تشعر بعدها إلا وأنامله القوية تتحسس وجنتها برقة, انتفضت وفزعت وتلعثمت وغضبت واعتذر منها بابتسامة مبرراً فعله بأنه أراد أن يزيح حشرة صغيرة مستقرة على وجهها!

عذر صبياني لم تتعامل مع الكثير مثله من قبل وهي لا تعي هل صدقته فعلاً أم أرادت تصديقه!.

خرجت من غفوتها على صوت دقات الساعة..

إنها العاشرة ولم تظهر هند.

لم يبتعد كثيراً بالسيارة بعد أن قام بإيصال سارة, فقط انحرف بأحد الشوارع الجانبية وظل يراقب هاتفه منتظراً المحادثة.. التأكيد.

جاءه الصوت بعد فترة مجيباً بثقة: ـ لقد تم الأمر.

أدهم: ـ متى؟

الآخر: ـ منذ حوالي نصف ساعة.

أدهم: ـ وهي؟

الآخر: ـ لا تقلق.. كما أمرت هي حية, فقط بعض الكسور التي ستجبرها على الإقامة بالمشفى لأسبوعين على الأقل.

أدهم: ـ ممتاز.

أغلق الهاتف بعد أن ارتسمت على ثغره ابتسامة ساخرة, تذكر مقابلته الأخيرة مع عاصم, المطالب.. الإتفاق.. الخطة.

ازاحة هند عن الطريق لفترة قصيرة.. بل أهم فترة إنها فترة التحقيقات, فقد علم عاصم الرازي من مصادره أن التحقيقات لن تطول وأنه قد تتحدد أولى جلسات المحاكمة بعد شهر ولهذا لا يوجد وقت لإضاعته..

حادث سيارة للمتذاكية سيحجزها بالمشفى لفترة لا بأس بها تتذوق فيها أحد نكهات غضب الرازي علها تتعظ, والأخرى.. الأخرى كشر عاصم عن

أنيابه بشأنها فهي سبب كل ما يحدث, تلك الصحفية الحمقاء التي ظنت أن استعانتها بزيدان ستحميهن, فلتحمي نفسها إذاً إن إستطاعت.. تلك هي الجملة التي قالها عاصم الرازي بشراسة أمامه بعد أن تطوع خادمه الأمين بالإشراف على عقابها بنفسه.. عقاب لا يحبذه ولا يسعى لإقحام نفسه في أمور على تلك الشاكلة, عادت الابتسامة الساخرة لتقتحم ثغره مرة أخرى وكأن ما يفعله مع سارة وما ينوي فعله على شاكلة أخرى!!

انتابه الضيق عندما تذكر براءة عينيها.. تلعثمها.. وجنتيها الخجولتين.. خطته التي بدأها اليوم؛ المصور الذي استأجره ليلتقط تلك اللحظات الخاصة بينهما.

عاد برأسه للوراء مغمضاً عينيه متذكراً عبيرها الآخاذ.. زفرة حارة أخرجها بضيق فقد أصبح يكره تلك المهمة فالبداية قاتلاً والنهاية هي بئر الحقارة.

كان القلق قد استبد بسارة فالساعة تعدت العاشرة الآن وهند مختفية, حاولت مع الهاتف مراراً وتكراراً دون جدوى..

أصبحت الأفكار تغدو وتجئ برأسها وتمكن الارتجاف من أناملها الممسكة بالهاتف

انتفضت فزعاً من صوت سيف الذي فاجأها مباغتاً بسؤال لا تعلم جوابه: ـ أين هند؟

أجابته بعد وهلة مبتلعة غصتها: ـ عفواً!

تابع سيف دون صبر: ـ أسألك أين هند, ألستِ أنتِ من تأتين معها كل صباح!

سارة: ـ نعم.. ولكننا افترقنا اليوم.

زفر سيف بضيق ثم تابع: ـ اتصلي بها فلدينا إجتماع مهم بعد دقائق.

سارة: ـ أنا أحاول بالفعل سيد سيف ولكنها لا تجيب.

سيف: ـ ما معنى هذا؟

سارة: ـ أنا حقاً قلقة بشأنها كان يجب أن تصل منذ ساعة فقد غادرت البناية أمامي و....

قطع حديثها صوت هاتفها لتصرخ متلعثمة: ـ إنها هي... هند... هند..

كان سيف يراقب ملامحها المضطربة والتي أصبحت أكثر اضطراباً عندما تلقت المكالمة, كانت تردد الكلمات برهبة: ـ ماذا؟.. هند!.. حادث.. مشفى!!

عندها اختطف سيف الهاتف من يديها, لم يصدق هذا الصوت الغريب الذي كان يحادثهما من المشفى يخبرهما عن حادث سيارة, هند تعرضت لحادث!

ترك الهاتف وسارة المصدومة وانطلق مسرعاً نحو سيارته.. نحوها..

حبيبته.. هند.

استقر سعيد بجسده السمين فوق مقعده وهو يتطلع بشماتة إلى الأوراق أمامه, أكثر ما يسعده هو حينما يعهد إليه سيده بأمرين؛ الأول: هو جمع المعلومات عن شخص ما, والثاني: الذي يكاد يكون الأكثر متعة هو الإنتقام من أنثى!

نعم.. تلك الكائنات الناعمة القاسية التي طالما سخرت منه.. نبذته.. لفظته وكأنه حثالة..

ابتسامة قاسية اعتلت ثغره وهو يتذكر كم النسوة اللاتي تذوقن بأسه, أغلبهن من طبقة واحدة.. غانيات.. راقصات.. متبجحات ظننن أنهن على قدر مواجهة رجل مثله أو مثل الرازي, وها هي ضعيفة الجسد تلك تقرر الوقوف بوجه الإعصار..

ضحكة هازئة خرجت منه وهو يتمتم: ـ حمقاء!

فتاة صغيرة تبحث عن تلك الشعارات الواهية عن حرية المرأة وحقوقها و... و... و...

حمقاوات لا يعلمن أنهن وُجدن من أجل غرض واحد فقط وتلك الصغيرة كان يود معاقبتها بنفسه ولكن تعليمات عاصم كانت صارمة, فقط مجرد تحذير.. عقاب صغير ورسالة من الرازي بأنه قد يحقق أسوء مخاوفها إن أراد!

كانت شاردة منذ بداية اليوم.. صامتة.. هادئة على غير عادتها, هو يعلم ما يُشغل بالها, تلك القضية التي أصبح أمرها يقلقه أكثر من أي شيء.

آه من جموح محبوبته الصغيرة يعشقه ويثير جنونه بنفس الوقت..

انتبهت لابتسامته عندما اقترب من مكتبها, اصطنعت العمل وهي تتحدث بارتباك لتخفي خجلها من نظرته: ـ صباح الخير.

رمقها بنظرة ماكرة عندما لمس تلك الخليقة الأنثوية التي دائماً ما تحاول الهروب منها وتحديها ثم أجاب هامساً: ـ صباح الخير

استدركت نفسها لتهاجمه بنبرة حادة: ـ ما بك هل اختفى صوتك؟!

ضحك رامز بيأس ثم أردف: ـ بل أنتِ هي المختفية.. أين ريم يا آنسة؟!.. تلك الشعلة من النشاط التي لا يعرف الصمت لها طريقاً!

رمقته بغيظ متابعة: ـ تقصد أنني ثرثارة.. حسناً رامز أنا أعمل بالصحافة الثرثرة هي مهنتي.

ابتسم رامز بمكر ثم تابع: ـ وأنا أعمل بالتصوير التحديق هو مهنتي!

كادت أن تقتحم حمرة الخجل وجنتيها عندما صرح عن نظراته الدائمة نحوها بدهاء, أنقذها منه هاتفها الذي أجابته مسرعة وكأنها تود الهروب منه.

لم تظن أن تلك المحادثة بالفعل ستكون هروبها ولكن ليس منه بل من كل الأفكار الحمقاء التي اجتاحتها مؤخراً بشأنه.

أعادت ريم عبارتها بدهشة وهي تجيب هاتفها: ـ نعم!.. تقولين من أنتِ؟

المرأة على الهاتف: ـ أنا لدي لكِ مفاجآة عن صيدك الثمين... الرازي!

ريم: ـ أي نوع من المفاجآت؟

المرأة: ـ من النوع الذي يعشقه قراؤكِ.

ريم: ـ حسناً.. كلي آذان صاغية.

المرأة: ـ أنتِ فتاة ذكية بالطبع لن أخبرك على الهاتف!

ريم: ـ مقابلة؟

المرأة: ـ بعد ساعة ولكن وحدك فأنا لا أود أن يتعرف أحدهم على شخصي.

ريم: ـ أنتِ مشهورة إذاً؟

المرأة: ـ لندعها مفاجآة!

رمق رامز ريم بغيظ وهي تحضر حالها من أجل مقابلة المرأة المجهولة ثم أردف: ـ ريم.. هذا العنوان بعيد جدًا ويبدو أنها منطقة نائية.

ريم: ـ بالطبع فيبدو أن المرأة شخصية عامة ولا تود أن تظهر في العلن.

رامز: ـ وأي شخصية عامة ستورط نفسها مع صحفية مثلك من أجل فضح الرازي؟!

ريم باستهزاء: ـ أنا على بُعد ساعة من اكتشاف هذا.

رامز: ـ أنا غير مطمئن.

ريم: ـ رامز.. ما بك إنها مجرد امرأة تود فضح الأحمق.. أمر سارة شجعها ليس أكثر.

رامز: ـ ربما.. وربما يكون فخ.

ريم: ـ فخ؟!

رامز: ـ نعم فخ يا ريم.. أتظنين أن الرازي سيظل قابعاً في مقاعد المشاهدين تاركاً المسرح لفريق نون النسوة المشكل أمامه؟!

ريم: ـ بالطبع لا.. ولكن ربما هو ليس بفخ كما أن هذا المتغطرس يظنني نكرة لا تستحق حتى العقاب فجهوده مركزة نحو سارة...

زفر رامز بضيق ثم تابع: ـ سآتِ معكِ.

ريم: ـ لا.. هي لن تقترب مني إن رأتك.. طلبت أن أكون وحدي.

رمقها بحدة ثم أردف بنبرة صارمة: ـ ريم.. سآتِ معكِ وإلا لن تذهبي!

كما أخبرها رامز كان المكان حقاً نائيا يقع على أطراف أحد المدن الجديدة والصحراء هي صاحبة الحضور الأقوى في وجود بعض المباني المتفرقة على استحياء..

قالت وهي تراقب الطريق: ـ جيد أنك استعرت سيارة كريم فلن يقبل سائق أجرة إيصالنا بسهولة.

رامز: ـ وكنتِ تودين المجئ وحدك!

ريم: ـ وسأتركك وأتجول وحدي في المكان وأنت يجب عليك الإختفاء, ربما إن رأتك ترحل.

رامز: ـ تتجولين وحدك بهذا الفراغ!.. لم أعهدك بتلك الحماقة.

ريم ساخرة: ـ حقاً كنتِ أظنني حمقاء على الدوام!

ضحك رامز بيأس ثم تابع: ـ حسناً.. هل ترين تلك البناية؟

ريم: ـ أين؟

رامز: ـ هناك خلف كشك السجائر.

ريم: ـ ها هو أحد أبناء الجنس البشري أخيراً!

رامز: ـ سأكون هناك, وأنتِ لا تبتعدي..

ريم: ـ حسناً.

بالفعل ترجلت ريم من السيارة وابتعد رامز قليلاً ولكنه لم يمكث في السيارة, اقترب من كشك السجائر مصطنعاً الشراء مما أغضب ريم التي همست لنفسها ساخرة:

"ينقصه معطف سميك وطربوش وقد يقبلوه بوظيفة مخبر بعهد الستينات!"

زفرت بملل وهي تتجول ببصرها في المكان باحثة عن المرأة المجهولة, انفرجت أساريرها عندما ظهرت أخيراً سيارة من العدم, كانت سيارة فارهة مما أنبأها بصدق المرأة ربما هي إذاً ممثلة أو مطربة انخرطت بعلاقة مع الرازي أم ربما تكون زوجة أحد رجال الأعمال.

لم تدم تصوراتها طويلاً فسرعان ما توقفت السيارة أمامها وخرج منها شابان يبدو مظهرهما رثاً.. مخيفاً, وقبل أن توقن ماذا يحدث وقبل أن تترك لفزعها العنان وجدت نفسها محتجزة داخل السيارة..

كانوا أربعة.. أقواهم بنية هو الذي قام بجذبها من ذراعيها وشل حركتها تماماً وعندها أمسك الآخر بقدميها ليدخلوها عنوة داخل السيارة, حاولت الصراخ ولكن القوي كتم أنفاسها في حين بادر الآخر في تمزيق ملابسها!

رمقها السائق بخبث وهي ترتجف مثل الشاه المذبوحة ثم قهقه متابعاً: ـ لا تفزعي أنا أعدك بقضاء وقت ممتع!

عبارته أصابتها بالذعر وصورت بذهنها بشاعة ما هي مقدمة عليه, بدأت تركل بقدميها في كل الإتجاهات بشكل هيستيري وساعدها حذائها الثقيل على إصابة الرابع الذي كان يجلس في المقعد المجاور للسائق إصابة مباشرة في وجهه.. كان أشرسهم شكلاً وعلى ما يبدو موضوعاً, زمجر غاضباً ثم زعق فيها بصوت قوي: ـ التعليمات كانت تخويفك فقط, ولكنني سأخالفها وكما يقولون الخطأ وارد!

أزاح الغاضب الآخر ذو البنية القوية وقفز ليجاورها في المقعد الخلفي آمراً الشاب الآخر بتقييد ذراعيها, كان صوتها قد بدا مجروحاً من كثرة الصراخ وتبدلت مقاومتها لبكاء واستغاثة وتوسل واعتذار!

عساه يتركها.....

وفي أحلك اللحظات سواداً قد يكون هناك ضوءاً.. بصيصاً من الأمل.. سيارة أخرى صغيرة بها شاب قد يبدو لناظريه أضعف ما يكون.. ولكن الأشياء قد تبدو على عكس ما هي عليه.. وقبل أن يتمكن منها مهاجمها لم ينقذها سوى.. ارتطام!

كان رامز قد لمح تأففها عندما أبصرت ظهوره العلني مصطنعاً شراء بعض السجائر فغادر على مضض عائداً للسيارة ليراقبها من خلالها, كان قد استقر لتوه بمقعده عندما لمح توقف السيارة الفارهة أمام ريم, صدمة وذهول وجمود اجتاحه من هول المفاجآة.. فحبيبته يتم اختطافها أمام عينيه, استعاد وعيه سريعاً وقد شعر بصوت أنفاسه المضطربة بأذنيه, كاد أن يترك السيارة هارعاً نحوها ولكن بعد لحظات من التخبط وترك السيارة بالفعل أيقن أن سيارتهم قد تتحرك وتهم بالهروب وعندها سيفقدها حتماً فعاد هارعاً نحو سيارته لينطلق بعدها نحوهم بأقصى سرعة, لم يعِ هل خطط لارتطامه بهم أم لا.. فقط وجد نفسه يصطدم بعنف بالسيارة أمامه.

الارتطام كان هو شرارة البداية لإنقاذها من براثنهم, ارتطمت رأس الشاب الذي كان يقيد ذراعيها بالنافذة وسالت منها الدماء أما مهاجمها الآخر رغم قوته سقط بين المقاعد ولم يخرجه من هذا الاحتجاز سوى رامز الذي فتح باب السيارة بعدها على الفور ليجذبه من تلابيبه وبعد خروج الآخرين من السيارة من أجل زميلهما حاولت هي الهروب من المدمم الذي كان لا زال يقيد حركتها ولكن بوهن تمكن منه بعد أن فقد بعض الدماء, كانت تصرخ وتحاول بيأس التخلص من قيده ولكن فجأة قطع صوت صراخها صوتٌ أقوى أوقع بقلبها رعباً فاق كل ما تعرضت له منذ دقائق..

صوت الرصاص اخترق أذنيها لتجد نفسها في دوامة أخرى من البكاء الهستيري فقد فقدت رامز!

كان رامز قد سحب شرس الملامح من تلابيبه وبدأ يوسعه ضرباً.. قوة هائلة تملكته وهو يحطم وجه الحقير كما ظل ينعته, كان الشاب قد بدأ يترنح وقد سالت الدماء من وجهه عندما اقترب منهما الآخران للنيل من رامز.. يعلم

رامز هذا الموقف جيداً فقد مر به من قبل عندما تكالب عليه بعض الأشقياء وتمكنوا منه ومن الفتاة التي كان يحاول إنقاذها.. عاهد نفسه منذ وقتها ألا يسمح بحدوث ذلك مرة أخرى ولكنه لم يتصور أنه سيختبره بتلك السرعة ومع معشوقته الوحيدة.. ريم.

تحسس سلاحه بثقة وقبل أن يقتربا منه كانت طلقته نافذة بجسد أحدهما, لم يصدق قوي البنية تلك الدماء التي انفجرت من ساق زميله وتلك الفوهة الموجهة نحوه بدوره, زعق بصوت مرتجف: ـ اللعنة.. انتظر أرجوك.

علم رامز أن الأشقياء لا يحملون سلاحاً نارياً فمن مثلهم يستعين عادةً ببعض الأسلحة البيضاء, قرب سلاحه من الشاب وصرخ بغضب: ـ ستنال جزاءك أيها الحقير.

الشاب: ـ فتاتك بخير.. لم ألمسها صدقني.

ضربه رامز بمؤخرة السلاح فوق رأسه ثم توجه مسرعاً نحو السيارة, أقصى ما يتمناه في تلك اللحظة هو محو تلك الصورة من خياله, ريم مرتجفة باكية وقد تمزق قميصها العلوى تماماً وما أفزعه هو وجود بعض الدماء فوق كتفيها ولكنه استدرك سريعاً أنها لم تكن دماءها بل دماء الشاب الآخر فوق رأسها الذي كان ما زال قابضاً على ذراعيها رغم جرح رأسه, انتفض الشاب عندما لمح فوهة السلاح الموجهة نحوه وتركها ليقفز مبتعداً عن السيارة بدوره..

أعاد رامز سلاحه لجيبه عندما اطمئن لزوال الخطر فالأربعة تفرقوا بين هارب ومصاب وغائب عن الوعي ومدمم, بسط يديه نحو ريم لتخرج ولكنه فوجئ

أن بكاءها الهستيري لم يتبدل بل وانكمشت في أحد أركان السيارة خوفاً منه!

لم يكن لديه وقت فيجب أن يُخرجهاعلى الفور قبل أن يستعيد الأشقياء قواهم, جذبها عنوة خارج السيارة.. لم تصرخ ظلت على حالها من البكاء والارتجاف, أشاح بصره عن جسدها الشبه عاري في ألم ثم خلع كنزته ليلبسها إياها ثم حملها متوجهاً نحو سيارته..

كانت لحظة فارقة بينه وبين شيطانه فقد فكر أن يقتلهم جميعاً بدماء باردة, اضطربت ريم بشدة عندما حاول ادخالها للسيارة.. فوجئ بها تصرخ.. تستغيث.. تتوسل له أن يتركها!

اغرورقت عيناه بالدموع وملس على رأسها بحنو ثم تابع بنبرة مرتجفة: ـ حبيبتي.. اهدئي أنتِ معي الآن.

استكانت في النهاية وجلست منكمشة بمقعدها, مراقبته لها استغرقت وقتاً لم ينتبه فيه لتلك الأقدام الزاحفة خلفه بغية الهروب, انتبه بعد فوات الآوان لرحيلهم وعندها هرع نحو سيارته في محاولة يائسة للنيل منهم دون جدوى, ضرب على المقود بكلتا يديه صارخاً بغضب ثم استدار نحوها في قلق عندما أيقن أن صراخه ربما أفزعها ولكن لا شيء.. كانت تبكي بصوت مكتوم وتدفن رأسها بين ركبتيها دون حراك, جذبها من رأسها لتستقر على صدره ثم قبل خصلاتها المتناثرة ببأس متابعاً: ـ سيدفع الثمن غالياً.. سيدفع ثمن فعلته الشنعاء ولن أتركه.

كانت سارة قد ظلت متجمدة بمجلسها بعد أن تلقت المخابرة من المشفى, لم تستطع أن تفكر بشخص سواه.. هو من فعل ذلك وليس غيره فبعد أن فشل في النيل منها قرر الإنتقام من هند, حتماً يظن أنها وراء كل ذلك وأنها هي من أقنعتها بتقديم الشكوى..

ارتجافة قوية اجتاحت جسدها وزفرة غاضبة أخرجتها بغيظ, فهند بين الحياة والموت بسببه.. لا بل بسببها.

نعم هي أنثى ضعيفة.. خاضعة.. لولا مساعدة الآخرين لم تكن لتستطيع مواجهة عاصم أو غيره والآن هم من يدفعون الثمن!

هند تدفع ثمن إذعانها هي أولاً وشجاعتها ثانياً ولكن لا.. إلا هند

قالتها ببأس ثم غادرت الشركة مسرعة وهي ترددها: ـ إلا هند.

كان قد أنهى لتوه مقابلته مع الرازي وسلم له أول الغيث.. الصور خاصته مع سارة, كما أرادها الرازي بالضبط فهما يبدوان كعاشقين, نظرته المتلهفة نحوها وملامحها الخجولة.. أنامله المداعبة لوجنتها!

ظل يتفحص الصورة لوهلة, بخياله رآها حبيبته أم ربما زوجته.. ألم يكن ليحدث إذا اختلفت الظروف, لربما وقع في هوى تلك المرأة وأبقاها بجانبه مستأثراً بعبق الياسمين!..

نعم ربما في حياة أخرى.. ظل يرددها لنفسه وكأنه يُصر على تأكيد ذلك.. ليس الآن.. لا يجوز.. هي مجرد هدف.

لم يُخرجه من دوامة أفكاره سوى ظهورها أمامه, ظل يحدق فيها بصدمة وهي تغادر سيارة الأجرة متوجهة نحو مجموعة الرازي!

ماذا تفعل؟!.. ولماذا هي قادمة لعاصم؟!

أي عبث يحدث؟.. وأي نوع من الألعاب يمارسون عليه؟!

غادر سيارته متوجهاً نحوها كإعصار, قبل أن تدخل البناية لمحت هذا الجسد القوي الذي اعترض طريقها جاذباً إياها مبتعداً بها في تملك..

نهرته غاضبة: ـ أتركني.. ماذا تظن نفسك فاعلاً؟!

أجابها بحدة: ـ وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟

قالت بغضب: ـ هذا ليس من شأنك.

أدهم: ـ ماذا تفعلين هنا يا سارة؟.. ليس من الطبيعي أن تقومي بزيارة رجل تتهمينه بمحاولة قتلك!

سارة: ـ أنت قلتها محاولة قتلي ولكن الأمر تخطاني الآن.

استدرك الأمر سريعاً من ملامحها الصارمة.. هي هنا من أجل هند.. يال غباءه كيف لم يدرك ذلك من البداية!.. ما تلك الحماقة التي انتابته؟!.

زفرت بغضب محاولة تخطيه ولكنه استوقفها مرة أخرى: ـ انتظري.. صعودك سيزيد الطين بلة ليس أكثر.

سارة: ـ حقاً!.. ما يمكن أن يحدث أكثر من ذلك؟!

تلفت أدهم حوله ثم أجابها بثقة: ـ الكثير.. صدقيني.. أنتِ لا تفقهين شيئاً عن ما قد يدور بعقل رجلٍ مثله.

أجابته ببأس: ـ أكثر من ذلك؟

أدهم: ـ نعم أكثر بكثير

صمتت لوهلة وتخلت عنها جسارتها أمام إصراره, أردفت بقلق: ـ أنا أريد حماية هند.. أريدها خارج تلك المعضلة.

رمقها بتأمل, تلك الضعيفة التي تفكر في حماية صديقتها بشتى السبل, هذا الخوف المنبعث من عينيها ليس من أجل نفسها بل من أجل هند, تابع بنبرة هادئة: ـ وأنتِ من سيحميكِ يا سارة؟

نظرت نحوه في ثقة مجيبة: ـ الله.

ظل يراقبها بصمت دون حديث, ماذا عساه أن يقول بعد جوابها..

قطب جبينه متابعاً: ـ هيا.. دعينا نرحل من هنا.

سارة: ـ حسناً.. أنا أريد الذهاب لهند.

أدهم: ـ تعالي سأوصلك.

استقرت بجواره في السيارة, انتبه أن الصورة خاصتهما ما زالت على التابلوه, اختطفها سريعاً قبل أن تلحظها مما أثار انتباهها فقالت متسائلة: ـ عفواً.. هل أربكت وقتك؟

أدهم: ـ لا.. لا.. فليس لدي الكثير من العمل اليوم.

ابتسمت بتحفظ ثم تابعت في دهشة: ـ ولكن ماذا كنت تفعل هنا؟!

أغمض عينيه للحظة غاضباً من تصرفه الأحمق بالظهور أمام شركة عاصم, نظر نحوها مصطنعاً الثقة: ـ تريدين أن تعلمين ماذا كنت أفعل هنا؟

رمقته بريبة مجيبة: ـ نعم.

أجابها بثقة: ـ أنا هنا من أجلك!.

تسارعت أنفاسها وسألته في حذر: ـ كيف؟

ابتسامة عابثة علت ثغره وهو يتابع: ـ لقد تتبعتك إلى هنا!

شهقت في فزع: ـ ماذا؟

أدهم: ـ لقد شعرت بالقلق عليكِ بعد ما حدث صباحاً وقررت انتظار هند بعدما صعدتِ أنتِ لمقر عملك, ولكنها لم تظهر وبدلاً من ذلك وبعد أكثر من ساعة رأيتك أنتِ تغادرين في اضطراب ولم أستطع منع نفسي من ملاحقتك!

كانت نظراته منصبة عليها, تُربكها نظراته وهو يعلم ذلك.. ظل يراقبها مستمتعاً بعفويتها وارتباكها أمام هجوم عينيه ولكن لم يدم ذلك طويلاً, كشرت عن أنيابها وقطبت جبينها ثم بادرته بلهجة حادة: ـ كيف تسمح لنفسك بذلك؟.. من أنت لتعطي نفسك حقاً بملاحقتي؟!

رد فعلها لجمه لدقائق ولكنه لم يرتبك بل اتخذ من عبارة خير وسيلة للدفاع الهجوم منهجاً فقرر مهاجمة بريئة الملامح مصطنعة الشراسة فقال لها مباغتاً: ـ أنتِ تعلمين جيداً من أعطاني هذا الحق!

تمكن منها الغيظ, من يظن نفسه!.. هل يخبرها أنها هي من سمحت له بذلك؟!

ارتدت قناع الجمود لتجيبه: ـ أنت واهم سيد أدهم أنا لم أعطك حقاً بذلك ولن يحدث.

ابتسامة مشاكسة علت ثغره فتلك هي المرة الأولى التي يلمح فيها ملامح الغضب بوجهها الصغير وحتى تلك كان مستمتعاً بمراقبتها, تابع في هدوء: ـ أنا لم أقل ذلك!

أردفت: ـ إذاً ماذا تقصد؟!.. من أعطاك هذا الحق؟

اقترب منها هامساً بشغف: ـ قلبي!.

الفصل الخامس عشر

عذراً مولاتي

فأنا رجلٌ غرق منذ قرونٍ في لذة عشق الذاتِ

في غِمار غروري رأيتكِ إحدى نزواتي

امرأةً من أجلي في كل الأوقاتِ

حتى إن كنتِ رافضةً.. قاسيةً.. هاربةً

فبأحضاني سأروض عصيانك وأفوز بإذعانك

أوسمك كإحدى..... زوجاتي!

عفواً مولاتي

فالعشق الجارف قد لاح في أفق حياتي

لكن متأخر.. حقاً متأخر

عن رونق أنثى هي نجم ظلامي.. منبع آهاتي

سحقاً مولاتي

عودي من أجلي

دونك سأكون مجرد طيفٍ في دنيا الأمواتِ

"سيف"

كان قد أخذ الرواق ذهاباً وإياباً ربما لعشرات المرات..

"في غرفة العمليات"

هكذا أخبره الطبيب بعد أن رمقه بابتسامة مطمئنة أن الوضع غير خطير!

وإن كان غير خطير لماذا هي غائبة بالداخل كل هذا الوقت!..

القلق يكاد أن يفتك بأعصابه, وقلبه ينتفض كل دقيقة بين ضلوعه مع مراقبته لباب الغرفة منتظراً ظهورها؛ هند.. أيقونة عشقه الممددة بالداخل على فراشٍ متأرجح بين الحياة والموت..

فرك جبينه بغضب وهو يفكر في الكلمة التى تأبى أن تغادر عقله.. الموت!.

منذ عرف هند وهو يتعامل معها على أنها واقع.. موجود.. متاح.. ربما وقتما يشاء!.. حتى عندما رفضت عرضه المخزي وتزوج هو بكاريمان ارضاءاً لأبيه لم يبالِ بها كثيراً ولم يحاول البحث عنها في حينها أو حتى استرضائها فهو سيف الأنصاري وحتماً له ستعود, ولكنها ببساطة لم تعد!.. الصغيرة التي تتلمذت في بحور عشقه غادرت ركبه بشموخ غير عابئة بشيء سوى نفسها ولها الحق في ذلك, ابتسامة هازئة علت ثغره عندما تذكر لهفته عليها بعد سنوات من الفراق, أكان يجب أن تبتعد ليدرك تمكنها من قلبه, ألا نعي قيمة ما لدينا إلا عند الفراق!..

لا.. لا.. لن يكون هناك فراق..

هند.. حبيبتي.. عودي من أجلي.. عودي وامنحيني قبل قلبك الغفران.

رمقه الطبيب بنظرة فاحصة قبل أن يجيبه باقتضاب: ـ هي الآن بخير.

زفر رامز براحة ثم أردف متابعاً: ـ هل أستطيع رؤيتها؟

الطبيب: ـ ليس قبل أن تستجوبك الشرطة, سيد رامز.. فالآنسة على يبدو تعرضت لمحاولة إغ.....

قاطعه رامز: ـ أعلم.. ولكن يجب أن أطمئن عليها أولاً.

أجابه الطبيب هازئاً: ـ أنا لا أعلم, سيد رامز.. هل وجودك بجانبها سيبعث حقاً الإطمئنان!

نظرة نارية تلك التي رمق رامز بها الطبيب المسن قبل أن يقترب منه وقد نفث لهيب غضبه بوجهه: ـ ماذا تقول؟!!.. هل تلمح أنني أنا...

الطبيب: ـ الفتاة ما زالت في صدمة عصبية ولا تستطيع النطق.. ونعم ربما تكون أنت.

رامز: ـ هذا لا يصدق!

الطبيب: ـ والآن.. هل ستتحدث للشرطة من نفسك أم أخبرهم برفضك؟

تخطاه رامز متوجهاً للضابط ولكنه ما لبث أن عاد وتوجه نحوه مردفاً: ـ إنني حقاً أتساءل لما لم أكمل ما بدأته معها وأحضرتها هنا؟!.. حقاً أنا مهاجم أحمق!

ترك رامز الطبيب لحماقته وتوجه نحو المحقق الذي كان على ما يبدو أكثر تعقلاً.. أخبره رامز عن كل شيء؛ رقم السيارة, ملامح الجناة.. ولكن شيء

واحد فقط لم يخبره عنه.. أهم شيء وكان يعلم أن ريم لن تُفصح عن ذلك بدورها وهو.. الرازي.

لم يستطع المحقق استجواب ريم فحالتها لم تكن لتسمح بذلك ولكنه سمح لرامز بزيارتها.. فقط خمس دقائق رغم تململ الطبيب, كانت منكمشة في فراشها وقد تراجعت خصلاتها الثائرة إلى الوراء وتمكن من عينيها خفوت الشجن, اقترب منها غير عابئ بارتجافها وصرف الممرضة بعدها في ثقة, كان كفها الصغير بارداً كالثلج, احتضنه برقة بين قبضيته هامساً بحنو: ـ ريم!

لم تجب ولم تستدر نحوه, فقط ظلت محدقة في الفراغ وقد استوحشت قبضتها الأخرى في الضغط على الفتحة الضيقة لردائها الأبيض وكأنها تسعى للملمة ملابسها الممزقة!

زفر رامز بحزن ثم أردف متابعاً: ـ ريم.. أنا هنا بجانبك الآن أنتِ بخير.

خُيل إليه أن صوت أنفاسها كرياح هادرة وأن الخطوة التالية ستكون صراخاً لا محالة وفزع وربما هروب منه ومن كل رجل, ولكن لم يحدث ذلك بل ليتها صرخت وأخرجت هذا الوحش الجاثم على صدرها..

راقبها بحزن وهي تنكمش في جانب فراشها مبتعدة عنه لتدفن رأسها بين ركبيتها تاركة نفسها للنشيج, ود أن يقترب منها مرة أخرى.. يقيدها بين أحضانه.. يهمس في أذنيها مطمئناً.. يغمرها بعاطفته التي وُجدت فقط من أجلها هي ولكنه ببساطة لم يستطع, تسمر مكانه كحجر خاشياً عليها حتى من نفسه.

جذبته إحدى الطبيبات بهدوء خارج الغرفة ثم أردفت متابعة: ـ الآنسة تعرضت لتجربة صعبة وما تعاني منه الآن هي صدمة نفسية.

رامز: ـ وماذا يعني هذا؟

الطبيبة: ـ يعني أنها تحتاج بعض الوقت.. وعفواً سأمنع الزيارة.

زفر رامز بضيق ثم تابع: ـ ألا يُفضل أن تحضر والدتها على الأقل للمبيت؟

الطبيبة: ـ يجب عليك إخبار والدتها بالطبع, فعلى الأقل ستمكث هنا يومين ولكن لا.. لا مبيت.

أومأ رامز برأسه موافقاً ثم تهاوى على أقرب مقعد متفكراً في المعضلة التالية..

كيف سيخبر أمها؟.

"هل أخبرتك من قبل أنكِ تشبهين حبة الفريز؟!"

ـ ما... ماذا؟!

بحروف مبعثرة قالت كلمتها.. كانت ما زالت غائمة تحت تأثير المخدر, علم من الطبيب أنها تعاني من بعض الكسور والكدمات نتيجة الحادث ولكنها ستكون بخير...

"ستكون بخير"

كانت عبارة الطبيب هي رفيقته طوال غفوتها.. يراقبها عن قرب.. يتأمل ملامحها وكأنه يراها من جديد.. خصلاتها الفحمية تشبه لحد كبير

خصلاته.. ابتسم ساخراً وهو يفكر ربما إذا أنجبا طفلًا سيشبه كليهما كثيراً بشعره الداكن وملامحه الحادة, ستكون عيناه مثل عينيها ولكن سينال شموخ أنف والده والشفتين.. عفواً هند لا أريده أن يأخذ شفتيكِ فتلك الكرزتان لا تصلحان لرجلٍ على الإطلاق هما تصلحان لشيء واحد فقط!

اقترب منها غير عابئ بشيء ليسرق قبلة ناعمة من على شفتيها ثم همس بعدها قائلاً:

ـ هل تعلمين أن مذاقك أيضاً يشبه الفريز!

تململت بعدها وقد بدت نبرتها هامسة, كانت تقولها.. نعم هو يستمع إليها وهي تنطق أول حروف اسمه..

س... سي...

انتفض بجانبها: ـ حبيبتي.. أنا هنا.. هند.. هل تسمعينني؟

كانت عيناها ما زالت مغمضة وهو بجانبها متحفزاً ينتظر دون صبر كلماتها.. أخيراً بدت نبرتها أكثر وضوحاً.. خافتة ولكنها بينة كضوء الشمس بقوته التي تؤلم العين وتلهب الجسد وتُظهر الحقيقة.. لم تكن تبحث عنه..

لم تقل سيف كانت تهذي وتنادي.. سارة!.

للحظة تمكن منه الضيق فقد تصور أن أول من ستبحث عنه بعد استيقاظها سيكون هو.. ضحكة هازئة خرجت من جوفه, الآن فقط أيقن لغو غروره فهو كالبالون ليس أكثر..

رفرفة أهدابها أخرجته من عبث أفكاره, اقترب منها متناسياً كل شيء هامساً بسعادة:

ـ هند.. حبيبتي..

كانت صورته تتضح بعينيها تدريجياً.. كان هو سيف يقبض على أناملها بلهفة وعيناه تجتاحنها بشوق, ألجمتها المفاجآة لثوانٍ ولكن ما لبثت أن انتصرت عليها تنهيدة حارة هربت منها رغماً عنها لتهمس بدورها بصوت ضعيف: ـ سيف!

ابتسم بعذوبة: ـ أنا هنا حبيبتي.

اضطربت ورمقته بحيرة: ـ ماذا تفعل هنا؟.. كيف علمت بشأن الحادث؟

كاد أن يجيبها لولا ظهور صوت آخر.. باكٍ, اقتربت نحوها سارة في هلع وخلفها أدهم الذي رمق سيف بحذر قبل أن يبادر الأخير بالحديث: ـ سارة كانت قلقة صباحاً وتحاول الوصول إليكِ دون جدوى حتى هاتفها المشفى ومنها علمت.

تمكنت من سارة العبرات بشكل أقوى عندما اقتربت من هند موقنة ما بها من جروح, كان أحد ذراعيها قد تعرض للكسر بجانب بعد الكدمات التي نالت من وجهها والرباط الطبي المحيط برأسها يوحي بأنها حتماً فقدت الكثير من الدماء..

شهقت سارة قبل أن تقول في حزن: ـ هند.. سامحيني, أنا السبب.

هند : ـ سارة.. بماذا تهذين؟!

سارة: ـ هو من فعل ذلك وليس غيره.

تنهدت هند وقد أشعلت عبارة سارة بذهنها كل ماحدث, المكالمة الهاتفية.. السيارة السوداء.. الحادث.

أخرجها من شرودها صوت سيف مقاطعاً: ـ ماذا؟!.. عن مَن تتحدثين؟.. هل قصد أحدهم إيذاؤك يا هند؟

رمقت هند سارة بلوم ثم تابعت: ـ لا تُشغل بالك, فالأمر ليس مهماً.

قاطعها: ـ ماذا تقولين؟!.. أخبريني ماذا يحدث..

كانت نبرته زاعقة, توجه نحو سارة بعيون تنطق شراراً عندما صمتت هند دون اجابة ثم قال بنبرة حادة: ـ أنتِ أخبريني.

انكمشت سارة مبتعدة عنه وهي تتجول ببصرها بحيرة بينه وبين هند التي زفرت بضيق متابعة: ـ دعها وشأنها.

نظرة غاضبة كانت هي نصيبها منه قبل أن يتابع بنبرة صارمة محدثاً سارة وأدهم:

ـ اتركانا قليلاً إذا سمحتما..

نظرت سارة نحو هند التي أومأت برأسها إيجاباً فتفهمت سارة وغادرت الغرفة مع أدهم الذي ظل صامتاً متجنباً غضب هذا الإعصار العاشق, اقترب منها سيف في شراسة متابعاً: ـ والآن.. أخبريني أنتِ ماذا يحدث؟

رفعت رأسها في شموخ متحدية: ـ وما شأنك أنت؟

سيف: ـ هذا ليس بوقت المكابرة أيتها الحمقاء لقد كدت أفقدك!

هند: ـ كيف تجرؤ وتنعتني بالحمقاء.. سيد سيف!

قاطعها صارخاً: ـ سيد سيف!.. هند كفاكِ عناداً واخبريني فوراً بكل شيء وإلا سأستدعي الشرطة حالاً للفتاة والغريب الآخر معها.

فركت جبينها بيأس ثم أردفت: ـ حسناً.. سأخبرك كل شيء ولكن اجلس فالحديث سيطول.

كان يتابع حديثها فاتحاً فاه غير مصدق لكل ما تقصه عليه, طوال تلك الفترة وهو غارق في عبثه حتى الثمالة وهي.. هي ببساطة تمتلك حياة, وتنقذ حياة, وقد تفقد حياة!.

رمقها بلوم بعد أن انتهت قائلاً: ـ كيف تورطين نفسك بأمرٍ كهذا وتتحدين رجلاً مثل هذا الأرعن؟!

هند: ـ أنا لم أخطط لتحديه.. ثم ماذا تقول؟!.. هل أنت غاضب من مساعدتي لسارة!!

سيف: ـ بالطبع لا.. ولكن أنا أقصد العبث مع رجلٍ مثل الرازي.

هند: ـ أنا أعلم خطورة ذلك, ولكنه لم يترك لنا سبيلاً آخر.

سيف: ـ والآن هل ستبلغين الشرطة؟

هند: ـ لا أعلم.

زمجر غاضباً: ـ هند.. لقد تلقيتِ مكالمة تهديد قبل الحادث بدقائق وكدتِ أن تفقدي حياتك!

هند: ـ ربما لم أكن أنا المقصودة, فالمكالمة كانت واضحة.."أنتِ على موعد بعد دقائق مع هدية".. والسيارة التي صدمتني هشمت المقعد بجانب السائق تقريباً, لدي شعور قوي أنه لم يكن يقصدني بل كان يقصد سارة خاصةً أن ظهور الصحفيين المفاجئ هو الذي حال دون ركوبها السيارة معي.

سيف: ـ هو ليس بتلك الحماقة ليقوم بقتلها الآن وفي خضم التحقيقات.

زفرت بضيق: ـ معك حق.. أشعر أنني عاجزة عن التفكير.

اقترب منها مملساً برقة على رأسها المجروح ليتابع بعبث: ـ هل أثرت الضربة على دماغك الذكي!

ابتسمت بيأس: ـ تمزح!

سيف: ـ لقد ولّى وقت المزاح!

قطبت جبينها في ترقب: ـ ماذا تقصد؟

قبل رأسها في حنان ثم تابع ببريق غامض في عينيه: ـ لا تبلغي الشرطة عن الرازي فهو حادث مروري يسهل الخروج من بؤرته.

هند: ـ الحق معك, ولكن أنا قلقة بشأن سارة.

سيف: ـ ربما هو لم يكن يقصد سارة تلك المرة, فالهدية كانت من أجلكِ.

هند: ـ يلقنني درساً, أليس ذلك؟

ابتسم سيف ببأس متابعاً: ـ كانت هدية والهدية واجبٌ ردها!.

كانت تقف جانبه بتوتر وقد تشابكت أصابعها في معزوفة متوالية من القرقعة, ابتسم ناظراً نحوها بحنان ثم أردف متابعاً: ـ لا تقلقي.

زفرت بحيرة متابعة: ـ لقد تأخرا بالداخل.

ابتسامة واثقة علت ثغره وهو يتابع: ـ لديهما أمورهما الخاص ليعالجاها.

قطبت جبينها وظلت صامتة, فقد كانت تتحاشاه طوال الطريق متجاهلة قنبلته التي فجرها بوجهها قبل أن يتحركا بالسيارة

"قلبي"

كانت نبرته هامسة وهو ينطقها.. دافئة كملمس أنامله التي اجتاحت وجنتها صباحاً بإصرار, تسارعت أنفاسها غضباً من نفسها ثم قالت بلهجة حادة: ـ سيد أدهم.. لقد أرهقتك معي حقاً منذ الصباح.

ابتسامة ماكرة علت ثغره ليقف بمواجهتها متابعاً بنبرة خافتة: ـ هل تصرفينني الآن؟!

تلعثمت: ـ عفواً لا أقصد.. أنا فقط أقدر شهامتك ولكن أنت لديك أيضاً شؤونك الخاصة و...

قاطعها: ـ تعلمين أنني هنا بإرادتي وليس فقط من أجل الشهامة.

كانت طوال الحديث تتجول ببصرها بعيداً عن اقتحام عينيه, تارةً نحو الأرض وتارةً نحوه على استحياء ولكن جملته الأخيرة أرغمتها على النظر نحوهما.. تلك اللامعتين بإصرار المستحوذتين على بريقٍ لم تلمس بحياتها مثله, تشبهان حمرة العقيق الممتزجة بظلمة الليل الغامضة..

استعادت رباطة جأشها التي كادت أن تفقدها وسط هذا الطوفان الجارف من الأحاسيس الغامضة التي اجتاحتها مؤخراً بشأنه فأردفت مسرعة متجاهلة عبارته: ـ أشكرك كثيراً على تعبك سيد أدهم, ولكن آسفة لا أستطيع تعطيلك أكثر من ذلك.

ابتسم بشراسة ثم أخرج هاتفه وظل يعبث به لدقائق دون أن ينظر نحوها ودون أيضاً أن يتحرك من مكانه المواجه لها, كان مستمتعاً بارتباكها الظاهر للعيان وحيرتها التي تحاول يائسة اخفائها دون جدوى, قبل أن يضغط على زر الإرسال للأحرف التي زين بها هاتفه أردف بهمس: ـ سأمر عليكِ بعد ثلاث ساعات.

بملامح مقتضبة أجابته: ـ شكراً.. ولكن أنا سأتدبر حالي.

وكأنها لم تقل شيء رمقها بابتسامة متابعاً: ـ إلى اللقاء.. بعد ثلاث ساعات.

غادر على الفور قبل أن تعترض مرة أخرى وانشغلت هي بالرسالة النصية التي تلقتها على هاتفها الجوال, ورغماً عنها هربت من ثغرها ابتسامة فعلى الرغم من بساطة العبارة إلى أنها تاهت بعدها في التكملة بحماقة..

"هل عندكِ شك"!!

أصبح المكان اعتيادياً.. أم ربما روتينياً, أفواه عالية النبرات, وجميلات هن من يخرجن من تحت يدي الملكة كما يروق لهن وصفها, عرائس وسيدات مجتمع ونجمات سينما وفتيات صغيرات.. كلهن يأتين بشكل ويخرجن بآخر ربما شبيه ولكن حتماً أكثر أنوثة..

تنهدت وهي تردد الكلمة داخل عقلها.. أنوثة.

لطالما تمتعت منذ صغرها بأنوثة طاغية.. جمال باهر.. قسمات متناسقة سلبت بها لُبّ كل من صادفها من الرجال, واختارت هي رجلها بتأنٍ.. خططت ودبرت حتى أغرقته في بئر أنوثتها ظناً منها أنه سيكون غوصٌ دون

نجاة ولكن عاد الطير بعد شبع لعشه القديم وأصبحت هي مجرد نزوة ليس أكثر في حياة رجل متزوج.

تنهدت بأسى وهي تفكر بابنتها الوحيدة.. ريم..

كلما أنهت تبرج عروس تشرد رغماً عنها في ملامح ساحرتها الصغيرة متفكرة في الليلة التي ستقوم فيها بإجراء تبرجها بنفسها, تلك الليلة التي أصبحت تشعر أنها ربما لن تأتي, فكل نظرة وحركة وكلمة من ريم هي سكين حاد يحمل مشاعر لا تنضب من اللوم والعتاب على كل ما مضى وكأنها هي السبب بجفاء رجلٍ قرر ببرود أن يتناسى ابنته؛ الزيارات الدورية التي بدأت تتضاءل حتى اختفت دون أن تشعرا, المحادثات الهاتفية التي اقتصرت على المناسبات والعبارات المقتضبة دون معنى, الإخوة الذين نظروا لها ككائن زائد عن الحاجة ووصمة زواجٍ سري لم يكن ينبغي له أن يتم.

صوت مساعدتها الرفيع أخرجها من بئر ذكرياتها وسبب لها كعادته نوبة أخرى من الصداع!

زفرت بغضب وهي تقذف بأحد الحبات المسكنة في جوفها ثم تابعت: ـ ماذا هناك؟

الفتاة: ـ رجل.. بل شاب وهو يريد مقابلتك في الحال, سيدة سلوى.

قطبت جبينها بدهشة ثم تابعت: ـ وما سر ارتباكك يا حمقاء!!.. دعيه يجلس بالخارج حالما أنهي قهوتي, ربما هو عميل يود الحجز لعروسه أو أخته, ودعي فاتن تأخذ منه بعض البيانات.

الفتاة باضطراب: ـ لقد ظننت ذلك في البداية واستدعيت فاتن بالفعل, ولكنه أصر على مقابلتك؛ يقول أن الأمر بشأن الأنسة ريم ولا يحتمل الانتظار.

لا تعلم سر هذا الانقباض المفاجئ الذي اعتصر ضلوعها عندما سمعت اسم ابنتها, خرجت مهرولة ولم تساعدها ملامح رامز المقتضبة على الاطمئنان, رغم أنها لم تقابله من قبل سوى مرة واحدة بالمصادفة إلا أنها حفظت ملامحه جيداً..

صرخت في هلع: ـ ريم.. ما بها ريم؟

ارتبك رامز وندم بعض شيء على ما صدر من كلمات للمساعدة ولكنه بعد لحظات رسم ابتسامة هادئة على شفتيه متابعاً: ـ لا تقلقي هي بخير.

لم تتبدل ملامحها بل زادت اضطراباً وهي تسأله: ـ إذاً أين هي؟

أخفض بصره في ألم ثم أردف: ـ في المشفى.

تلعثمت في ذهول وهي تردد كلماته: ـ مـــ.... مشفى.

أمسك بقبضتها المرتعشة متابعاً: ـ هي بخير الآن.

ظلت واجمة لوهلة غير مدركة لما سمعته منذ دقائق, هلاوس ومخاوف وأفكار قاتمة دارت برأسها في لحظاتٍ قليلة, عادت لوعيها على صوت رامز مرة أخرى وهو يتابع:

ـ صدقيني هي بخير.

رفعت بصرها نحوه بعيون دامعة: ـ ماذا حدث لابنتي, رامز.. أهو حادث سير أم ماذا؟

تردد وغابت الكلمات عن عقله فتلك هي اللحظة الفاصلة التي ظل متردداً في المجئ بسببها, تنهيدة حارة خرجت من جوفه ليتابع بعدها: ـ نعم هو حادث بسيط لا داعي للقلق.. دعيني أوصلك للمشفى لتطمئني عليها.

غادرت معه والأفكار تتراقص برأسه.. كيف سيخبرها بحقيقة ما حدث

زفرت هند بضيق قبل أن تقول بنزق: ـ يا الهي لا أصدق!.. كيف سأمكث بهذا الفراش عشرة أيام؟!!

أومأت سارة رأسها في خجل قائلة: ـ آسفة.

رمقتها هند بحدة: ـ للمرة الألف.. كُفي عن ذلك, قلت لكِ هذا ليس ذنبك.

قطبت سارة جبينها متابعة: ـ أنتِ هنا بسببي.

أردفت هند: ـ بل نحن هنا بسببه وسيدفع الرازي الثمن عاجلاً أم أجلاً.. سيدفعه!

عبارتها ذكرتها بجملة سيف الأخيرة التي قذفها بوجهها قبل أن يغادر, كانت تشعر بالضيق من تدخله ودور البطل المغوار الذي قرر تقمصه من أجلها, ودت لو أنها قاطعته.. وبخته.. صرفته بغلظة رافضة لتدخله, ولكنها ببساطة لم تفعل..

فما زال بين ضلوعها قلب أحمق تسارعت نبضتها لمجرد رؤية اللهفة بعينيه..

تملكت منها نبرة الغضب مرة أخرى وهتفت بسارة زاعقة: ـ تشعرين بالذنب؟

سارة ببراءة: ـ نعم.

ابتسمت بخبث: ـ حسناً لدي فكرة تعوضين بها عن ذنبك!

انتبهت سارة واقتربت منها متسائلة: ـ ماذا؟

تصنعت هند الجدية وهي تتابع: ـ أريد سيجارة!

سارة: ـ نعم!!!

هند: ـ كما سمعتِ.. هيا توجهي نحو حقيبتي واحضري لي علبة السجائر!

ابتسمت سارة بحذر متابعة: ـ تودين أن تدخني وأنت لم يمر على خروجك من غرفة الجراحة سوى ساعات؟!!

هند بحدة: ـ نعم.. ولو لم أفعل ذلك سأنفجر بوجهك الآن!

سارة بتحدي بعد أن أدركت لعبة هند: ـ أنا مستعدة لمواجهة الإنفجار.

قطبت هند جبينها كطفلة ثم أدارت وجهها متمتمة: ـ قاسية!

ابتسمت سارة بعذوبة ثم غمزت بعينها لرفيقتها متابعة: ـ من عاشر قوماً!

ضحكت هند بيأس: ـ يا إلهي لقد صنعت الوحش!!

تبدلت ملامح سارة وغابت ابتسامتها لتتابع بأسى: ـ يا ليتني وحشاً بالفعل, ربما حينها استطعت حمايتك.. ولكنني ما زلت مجرد جبانة ليس أكثر.

نظرت نحوها هند بعمق ثم بسطت قبضتها المعافاة نحوها لتمسك بأناملها المرتجفة متابعة: ـ أنتِ ستقفين في محاكمة أمام رجلٍ يمثل كل ما تعرضتِ له من ظلم لتصرخي رافضة منادية بحقك.. آخر ما تنعتين نفسك به هو الجبن يا سارة.

ابتسمت سارة بعبرات متلألئة بعينيها: ـ حقاً؟!

أومأت لها هند بابتسامة موازية: ـ حقاً.

كانت قد غادرت لتوها المشفى عندما اصطدمت به, رمقته بدهشة بعد أن ألقت نظرة على ساعتها اليدوية: ـ لم تمر ثلاث ساعات بعد!

ابتسم بمكر متابعاً: ـ وأنتِ غادرتِ مبكرة.

أجابته بعفوية: ـ هند تحتاج بعض الأشياء من المنزل.

غامت نظرته نحوها شارداً ثم استدرك نفسه متابعاً: ـ حسناً.. هيا سأوصلك ثم أعيدك.

زمت شفتيها لتخرج عباراتها حادة: ـ أدهم.. حقاً لا داعي لذلك فلا يصح أن توصلني لكل وجهاتي.

ظل صامتاً لوهلة وهو يراقب اضطرابها ومحاولتها اليائسة للهروب من حصاره ليتابع في صرامة: ـ صديقتك تعرضت على ما يبدو منذ ساعات لمحاولة

للقتل وأنتِ مستهدفة من رجلٍ أقل ما يقال عنه أنه داهية.. عفواً سارة.. هذا ليس بوقت ما يصح ولا يصح.

صمتت قليلاً متفكرة ثم باغتته بسؤالٍ كان يتوقع مجيئه: ـ كيف علمت بشأن هند؟

لم تتبدل ملامحه أجابها بنبرة واثقة: ـ منكِ!

قطبت جبينها متفكرة: ـ أنا لم أخبرك بشأن حادث هند.

ابتسم لها متحدياً: ـ بل أخبرتني عندما كنا أمام شركة عاصم.

فركت سارة جبينها ثم رددت في إعياء: ـ حقاً؟!.. أنا لا أتذكر!

أدهم: ـ وتريدين المغادرة وحدك!.. الآن أشك أنكِ ستتذكرين عنوانك!

رفعت رأسها نحوه في تذمر فتابع مهدداً: ـ السيارة على بعد خطوات هل ستتوجهين إليها أم أحملك عنوة!

توردت وجنتاها خجلاً وهي ترمقه بحدة متابعة: ـ أدهم ماذا تقول!

ابتسامة مشاكسة علت ثغره قبل أن يجيبها قائلاً: ـ يبدو أنكِ تودين اختبار جنوني!!

تراجعت للخلف مبتعدة عنه في ذعر عندما تقدم نحوها بجسارة ألجمتها, ابتسم في ثقة ثم توجه للسيارة فاتحاً لها الباب: ـ هيا تفضلي.

استقرت جانبه بملامح مقتضبة دون حديث, ظل الصمت هو سيد الموقف حتى قطعته هي بنبرة مترددة: ـ هذا ليس بطريق المنزل.

أجابها بهدوء دون أن يستدير نحوها: ـ أعلم!

سارة: ـ إذاً أين أنت ذاهب؟

أجابها ببديهية: ـ لأحد المطاعم لتناول الغداء.

توترت ملامحها لوهلة ولكن ما لبثت أن تمكن منها الغضب لتتابع: ـ وإن لم أوافق هل ستحملني للمطعم عنوة أيضاً؟!

قضم شفتيه متفكراً ثم أوقف السيارة ليستدير نحوها قائلاً بكبرياء: ـ بالطبع لا.

زفرت بضيق متابعة بعد أن أطرقت رأسها أرضاً: ـ أدهم.. ماذا تريد مني؟

كانت أهدابها مرتجفة تأبى النظر نحوه وبشرتها تمكن منها الشحوب, لا يعلم هل هو القلق أم الخوف أم الضعف المتمكن منها فما مرت به اليوم ليس بالأمر الهين وهو واثقٌ أنها لم تتناول شيئاً من الطعام منذ الصباح.. قرر الترفق بحالها فابتسم برقة متابعاً: ـ سأخبرك ولكن بشرط!

نظرت نحوه بجانب عينيها في حذر ثم أردفت متابعة: ـ ماذا؟

حبس ابتسامته مجيباً: ـ سأقوم بشراء كوبين من العصير من هذا المحل المجاور.. لا تخرجي من السيارة سنشربهما هنا.. هل توافقين؟

أومأت برأسها إيجاباً دون أن تنظر نحوه, غاب وقتاً ليس بقليل لتجده عائداً ومعه الشراب والطعام أيضاً!

رمقته بلوم مانعة ابتسامتها التي كادت أن تظهر مع استنشاقه لرائحة الطعام الساخن وهو يتأوه بسعادة: ـ امممممممممم.. شهي!

ابتسم بمكر ثم تابع: ـ تفضلي هذا طعامك وهذا مشروبك.

أجابته بصوت خافت: ـ أشكرك.. ولكن أنا لا أشعر بالجوع.

أدهم: ـ أنتِ الخاسرة, فهذا المطعم هو أفضل من يعد المشويات بالقاهرة.

ابتسمت رغماً عنها وهي تراقب التهامه السريع لطعامه, ربما ظلمته هو يبدو حقاً جائعاً. ارتشفت القليل من العصير وكادت أن توقع ما تبقى منه عندما التصق أحد الفتيان الصغار بزجاج نافذتها متسولاً لبعض الطعام؛ كان يبدو في الحادية عشر من العمر, رث الهيئة, متسخ البشرة شاحب الملامح..

ابتسمت سارة له بحنو ثم همت بفتح زجاج السيارة..

كان أدهم يرمقه بحذر.. لطالما ذكرته هيئتهم بنفسه صغيراً, هو لم يتسول لطعام قط بل كان يسعى كادحاً لكسب المال من أجل شراء لقيمات بسيطة لها قبلاً منه!.

حركة زجاج السيارة جذبت انتباهه.. أوقفها متسائلاً: ـ ماذا تفعلين؟

رمقته بدهشة مجيبة: ـ الطعام يبدو شهياً وهو يحتاجه.

تابع مستغرباً: ـ ستشاريكنه طعامك؟!

ابتسمت مجيبة: ـ سأعطيه طعامي فليس لي رغبةً بالأكل, ولدي طعام بالمنزل ولكن هو ربما لا يكون لديه منزل.

ظل صامتاً يتأملها لوهلة.. وكأنها إحدى بطلات أساطير وهمية خرجت من حكايتها فقط لتعذيبه, زفر بضيق ثم نادى الفتى متابعاً: ـ أنت.. ما اسمك؟

أجابه الفتى بحذر: ـ محمود.. اسمي محمود.

تابع: ـ حسناً.. محمود للأسف لقد قضيت على نصفه ولكن أتمنى أن تكون من محبي الكفتة.

تهللت أسارير الفتى غير مصدق لتلك الوليمة التي حصل عليها: ـ بالطبع أحبها سيدي.. أشكركما كثيرًا فأنا لم أتذوق اللحم منذ شهر رمضان.

تأثرت ملامح أدهم فتابع ممازحاً للتخلص من عاطفته: ـ هيا ابتعد والتهم طعامك عن آخره قبل أن يبرد.

أومأ الفتى وهمّ ليبتعد ولكن أدهم أوقفه مرة أخرى بنبرة صارمة: ـ انتظر..

تمكنت الرهبة من ملامح الصغير ظناً منه أن الرجل الغني ربما بدل رأيه فاقترب في حذر: ـ نعم سيدي.

رمقه أدهم بحدة ثم سأله: ـ مع من ستتشاركه؟

الفتى: ـ ماذا؟!

أدهم: ـ سؤالي واضح.. مع من ستقتسم طعامك؟

أجابه الفتى في حذر: ـ أصدقائي؛ هلال وسماح.

اقتضبت ملامح أدهم لوهلة ثم تابع: ـ حسناً محمود.. فقط كن واثقاً أنك ستتشارك به مع من يستحق!

غادرهما الفتى مبتسماً سعيداً بوليمته, أما سارة فرمقت أدهم في حيرة متابعة: ـ لقد أخفته.. ليس من شأننا ماذا سيفعل بطعامه, فالصدقة لا يجب أن تكون مشروطة.

استدار نحوها أدهم بملامح غاضبة ليتابع بجدية: ـ هذا ليس بشرط إنها نصيحة.

تابعت: ـ ولكنك تبدو غاضباً.

لم يستدر نحوها أعاد تشغيل السيارة ثم أردف: ـ ولماذا سأغضب؟

سارة: ـ ربما لأنني فتحت النافذة دون سؤالك.. هل أنت من النوع الذي يكره قربهم؟

أدهم: ـ من؟

سارة: ـ أطفال الشوارع.. فالناس عادةً ما تنفر منهم.

ابتسم ساخراً ليجيب بتنهيدة حارة: ـ أنا آخر شخص تقولين عنه هذا يا سارة!

سارة: ـ لماذا؟

صمت قليلاً ثم أجابها: ـ هذا سؤال آخر, ألا تفضلين أن أجيب سؤالك السابق أولاً؟

تلعثمت مجيبة: ـ لا.. أجب هذا أولاً.

نظرة ماكرة كانت تلك التي رمقها بها قبل أن يتابع: ـ ولكنني أود أن أجيب السؤال الأول!

شعرت أنها حمقاء بل أكثر النساء حماقة على وجه الأرض!.. فمع كل تلميحاته بشأنها تأتي وهي وتسأله ماذا تريد مني!..

تسارعت دقات قلبها في لحظات الصمت التي تعمد إطالتها, همس بعذوبة:

ـ سألتيني.. ماذا أريد منكِ.

أجابته بتردد: ـ أدهم.. أنا أقدر شهامتك ومساعدتك ولكن...

قاطعها بنبرة هامسة: ـ أريدك!..

الفصل السادس عشر

يقول أنيس منصور على لسان الشاعر اللاتيني أوفيد في كتابه الشهير فن الحب..

"أن الحب فن, فعندما تجدها معشوقتك التي تريدها ببساطة صارح نفسك.. هذه الفتاة يجب أن تكون لي.. تحت سيطرتي وهذا هو سر النجاح في الحب.. ولكن هل يعني هذا أن الحب سيطرة؟.. سطوة العاشق على معشوقته وتملكها من كيانه!..

ربما.. فبمعركة الحب كل الأسلحة مباحة.. قاتلة.. صادمة.. ومباشرة..

يقول أوفيد

لا تيأس.. في النهاية سوف يلين لك كل شيء فالحديد نفسه يتآكل, والأرض تنشق

تحت المحراث, والماء يفتت أقسى الصخور, وطروادة نفسها استسلمت في النهاية..

وكل امرأة مهما كانت ليست إلا طروادة, وستقتحم حصونها مهما طال الأمر.

كن صياداً.. كن صقراً.. كن ذئباً..

لا تقلق فستنالها في النهاية!!!!

أريدك...

خرجت الكلمة.. غادرته دون عودة منطلقة بسهامها نحوها..

عفواً..

هل ستصيب عقلها فتنتفض رافضة؟.. أم ربما قلبها فتستسلم خاضعة؟.

أياً كان فهو كان يعلم بالضبط ردة فعلها, خطط كيف سيحتويها وسيتلقف دموعها فوق أنامله, سيبعثر ذرات غضبها في الهواء وسيشطر شكوكها نصفين..

وفي النهاية سترضخ شفتاها الناقمتان تحت سطوة قبلاته!.

كانتا مرتجفتين, ألقى هو بقنبلته وظل ساكنًا يراقب خوالجها.. العبرات الحمقاء التي هربت من عينيها معلنةً بزهو عن ضعف امرأة يأبى الرحيل, جوفها الذي اختنق بطوفان من الكلمات التي آثرت السكون.

احتجب القول وغاب الفعل وبقيت هي باكية..

تماماً كما أراد ولكن ببساطة لم يشعر بلذة الانتصار!.

أما هي فكانت شاردة بين أنفاس متهدجة وأفكارٍ قاتمة.. ماضٍ مؤلم وحاضر قاسٍ ومستقبل هو نتاج حماقة أنثى ظنت لوهلة أن عالمها المخملي على وشك الظهور..

وكأن أميرها ظهر بعد سنواتٍ عجاف ومن أجلها سيطوف الأرض بحثاً عن طوق الياسمين!.. ولكن ببساطة هو ليس بأمير, ولا يفقه عن الياسمين شيئاً سوى رغبته الشديدة لتذوقه!..

مجرد شقراء سبق لها الزواج ولها قضية شائكة مع رجلٍ حملت منه سفاحاً..

ابتسمت ساخرة.. هكذا يراها هو وغيره من الرجال, وفي النهاية سيريد منها مثلما

أراد عاصم فهي مجرد حمقاء مستباحة ليس أكثر.

طال صمتها وجف نهر العبرات وهي ساكنة دون حراك..

همس بثقة: ـ سارة.

لم تجبه ولم تتحرك ولم تتبدل ملامحها وكأنه ببساطة غير مرئي!..

قطب جبينه, هو ينتظر بركاناً ليُخمده.. انتفاضة ليُسكِنها.. وتمردٌ يتوق لتذوق نكهته.

ولكن.. لا شيء, خرجت نبرته التالية حازمة تصطنع الثقة: ـ سارة.. هل تسمعينني؟

بعد لحظات أخرى من الصمت كادت أن تطيح بعقله قالت بصوت بائس: ـ نعم.. سمعتك جيداً.

ظل ينظر نحوها بترقب, تأخر الفيضان وكادت حصونه هو أن تتهاوى..

استدارت نحوه أخيراً لتتابع: ـ ألن تتحرك بالسيارة؟

كانت ترمقه بتحدي, شجاعة واهية يعلم هو أنها ترتكز على لا شيء..

ابتسم بشراسة متابعاً:ـ ليس قبل أن أحصل على جواب.

أردفت بغضب مكتوم: ـ إذاً جوابك هو سؤال!

أصابته الحيرة لوهلة: ـ ماذا؟!

تابعت مكافحة أن لا تُظهر عبراتٍ أخرى: ـ وأين تريدني, سيد أدهم؟!.. هنا أم بمنزلك؟

ضحكة عابثة كانت جوابه ليتبعها بنبرة ماكرة: ـ لو لدي اختيار سيكون هنا والآن!

انتفضت قسماتها منبئة عن ثورة بركان وتمكن الحنق من لون بشرتها لتردف بنبرة قاسية: ـ أنت حقير.. ولكن الخطأ ليس بخطأك أنا من ظننتك إنساناً.

أخيراً جذبها لأرضه, صمتها وهروبها لن يُجدي فقد ترحل دون رجعة..

أجابها ببريقٍ غامض اجتاح عينيه: ـ وأنتِ غايتي.. وعشقك وسيلتي.. وامتلاكك سيسطر حروف النهاية!

تلعثمت وانتفض قلبها رغم كل شيء أمام اجتياح عينيه, استدارت في محاولة يائسة للهروب..

أمسك بذراعها ليعيدها مرة أخرى بقوة للسيارة, صرخت غاضبة: ـ أتركني..

جذبها عنوة لتستقر مرة أخرى ولكن قريبة جداً من أحضانه, كافحت لتبتعد ولكن تملكه كان أقوى من مقاومتها الهزيلة, همس بشغف: ـ لا تهربي مني...

استكانت لوهلة فحل قيد ذراعيها لتبتعد عنه مرتجفة, رمقها بنظرة حانية: ـ آسف.. لم أقصد اخافتك.

أردفت بارتجاف: ـ أنت...

قاطعها بصرامة: ـ أنا عاشق.. فهل تقبلين؟!

أغمضت عينيها هروباً منه..

ما بال هذا القلب الأحمق ينتفض ارتجافاً من وقع كلماته, أهذا هو العشق الذي تحاكت به الأساطير وتعلقت به جوارحها منذ الصغر علها تجده!..

لا.. بالطبع لا.. فهي ليست بمعشوقته وهو ليس بفارسها النبيل..

هو مجرد رجل يرغبها ليس أكثر ولكنه يُتقن عذب الكلمات..

بصوت حزين أجابته: ـ دعني أرحل.. فأنا لست بالمرأة التي تظن.

أردف هامساً: ـ أنتِ المرأة التي أريد.

ها هو يقولها مرة أخرى!.. يصرح بها دون تردد!!.. بقسوة وتملك واصرار لم تقوى على مواجهته.

لم تجبه ولم يحاول هو اختطاف الكلمات منها عنوة ولم يشأ بأخذ شيء آخر منها عنوة, بل اجتاحه هذا الشعور القوي برغبته في حمايتها ربما منه ومن نفسها وحتى من عاصم!..

هربت منه بمجرد أن وصلا للبناية وتركته مع عبارة واحدة قالتها على عجل: ـ سأعود للمشفى وحدي.

كانت صارمة وخائفة ومرتجفة ومترددة وقوية, تحمل بين ثنايا ضلوعها وهن عشق أحمق تصرخ به نبضات قلبها النقي..

ابتسامة حزينة لاحت على ثغره لا يعلم هل كانت من أجله أم من أجلها!.

ظل بمكانه ولم يغادر حتى ظهرت مرة أخرى بعد أكثر من نصف ساعة ولن ينسى تلك النظرة الحائرة من عينيها عندما أبصرته في انتظارها.. وتمنى أن لا تستقل سيارته, وقذفت هي بنفسها في أول عربة أجرة لمحتها هروباً منه.

كانت الساعة قد تعدت الحادية عشر مساءاً وهي تقف ثابتة كمسمار محفور بأرضٍ انبلجت شقوقها, ظلت تراقبها بعيون باكية من خلف الحاجز الزجاجي..

تنحنح رامز وهو يناولها كوباً ساخناً من الينسون: ـ سيدة سلوى.. اشربي هذا.

لم تستدر نحوه فقط همست بوهن وعينيها مُسَلَّطة على صغيرتها الراقدة دون وعي:

ـ هل هي بخير, رامز؟

كان يعلم مقصدها جيداً ويُقدر ذعرها, أردف مطمئناً لهواجسها: ـ لا تقلقي, هي بخير.

نظرت نحوه في توسل: ـ تُقسم على ذلك؟

أومأ رأسه مجيباً: ـ أقسم لكِ أنها بخير.. لم يمسوها, ولو كانوا فعلوا لما تركتهم على وجه الأرض.

كانت عبارته صارمة قطعت كل سبل الشك في عقلها, تنهدت بأسى وهي تتذكر ملامحه المرتبكة عندما قص عليها ما حدث ومحاولة بعض الأشقياء الغاشمة الإعتداء على ابنتها, عصفورتها الصغيرة كانت بعيدة عنها وتواجه

أقصى ما قد تتعرض له أنثى من عذاب, وهي ربما كانت في حينها تجاهد لإخفاء تلك الخطوط الرفيعة تحت عينيها أو تجلس مع أحد مندوبي المواد التجميلية من أجل تسويق منتجاً جديداً..

ترحل ريم صباحاً قبل أن تستيقظ هي وتعود هي بعد أن تنام ريم, يتقابلا مصادفة أحياناً بكلمات قليلة للغاية وقد تمر عدة أيام دون أن تسألها حتى عن نوعية الطعام الذي تناولته!

تمكنت من عينيها عبرات ندم طفا على سطح مشاعرها الآن فقط وهي تراقب صغيرتها المنسية بين أنانية أم وعواطف أبٍ لم تكن لها في يومٍ من الأيام..

استدارت نحو رامز متابعة: ـ ألم يخبرك الطبيب متى ستفيق؟

رامز: ـ ليس قبل غد فهي تحت جرعة قوية من المنوم.. دعيني أوصلك للمنزل وأعيدك في الصباح.

قاطعته بحزم: ـ لا.. لن أرحل من هنا دونها.

رامز: ـ ولكن الطبيب منع وجود مرافق من أجلها ويجب أن تنالي قسطاً من الراحة.

ابتسمت ساخرة: ـ لقد ارتحت كثيراً يا بني.. ربما أكثر مما ينبغي!

صمتت وعادت مرة أخرى لمراقبتها تحصي الدقائق والساعات من أجل لُقياها,

فهي تفتقدها بشدة ولا تتوق لشيء الآن سوى احتوائها بأحضان أمومتها.

قد يمر عليك يوم يحمل أحداث ألف يوم..

ذهبت المشفى لهند وعادت.. بقدر ما استطاعت حاولت الحفاظ على رباطة جأشها, لم تشأ اخبار هند بما حدث مع أدهم فليس هذا بوقت مناسب لتأمل سلوك عاشق أم ربما.. عابث!..

سابحةٌ هي بين أمواج غموض هذا الرجل, تارةً يبدو عاشقاً تتهاوى أمام شغفه جبال وتارةً يبدو.. مخيفاً.

زفرت بضيق..

"ارحل عن عالمي أدهم فليس بي قوة لمجابهة رجلٍ مثلك"..

بيأسٍ أمسكت بالهاتف ضاغطة على زر الاتصال في محاولة أخرى للوصول لريم.. العنيدة مختفية منذ الصباح فقد حاولت الاتصال بها عدة مرات ولكن هاتفها مغلق.. تمكن منها القلق فريم عادةً ما تحادثهما يومياً.. تُرى أين هي؟!

قبل أن تسترسل في التخمين قفز بعقلها هاجس أفزعها.. هل هناك خطر يحدق بريم أيضاً؟..

- يا الهي!

شهقت في فزع وهي تتصور أن مكروهاً بالفعل قد يكون أصاب ريم وحاولت البحث عن هاتف الجريدة ولكن كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل ولن يجيبها أحد الآن, تهاوت على الأريكة وقبضتها المرتعشة ممسكة بالهاتف الذي دأب على تكرار نفس العبارة..

"الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقاً يرجى إعادة المحاولة فيما بعد".

وتمردت عليه أيقونة الياسمين..

ابتسامة ساخرة علت ثغره وهو يقف بالشرفة متلبساً حماقة روميو ولا يُفكر سوى بظهور جوليت..

ولكن روميو ضحى بنفسه من أجل جوليت وتجرعت هي السم وفاءاً لجنونه!.. على عكسه فهو ينوي التهام جولييت خاصته ليتركها بعد ذلك فريسة سهلة لانتقام الرازي.

أغمض عينيه وغاب في حلم يقظة كانت هي ملكته المتوجه دون منازع.. دقائق حالمة تحولت لكابوس عندما طل عليها شبح الرازي ومطلبه الحقير..

هل سيستطيع حقاً فعل هذا؟..

ما سيحدث سيكون ضياعها لا محالة وقبل ذلك سيكون عقابه, نعم لعنته أن يغتال الوحيدة التي لمست قلبه وأيقظت من ظن أنه رحل منذ سنوات.. ياسين!.

ـ لا!..

كانت صرخة قوية صدرت منه باصرار..

"لا.. الأحمق ياسين رحل وللأبد.. فإذا عاد ياسين سيموت أدهم, وأدهم هو الحقيقة وهو المنتصر والبطل والشرير ومخرج العرض.. أما ياسين فهو الضحية الحمقاء التي تموت دون أن يتذكر أحد ملامحها في النهاية".

نعم رحل ياسين مع سنواته الأولى داخل الإصلاحية وحتى تلك النقطة البيضاء المتمثلة في العجوز رائف لم تشفع لإيقاظه؛ احتواه الحارس الطيب في البداية عله ينأى به عن بؤرة الفساد بالداخل, كان يؤمن أن العلم سلاح والمعرفة قوة ولهذا شجعه على القراءة وأعاره كل ما استطاع من الكتب في كل المجالات.. قرأ كثيراً وغاب بعقله داخل مخطوطات لم يظن أنه سيتصفحها في يومٍ من الأيام, ولكنه كان ماكراً فعلم جيداً كيف يستغل معرفته في الانتصار على أعدائه, ألم يهزم الفتى رمانة كما كانوا يطلقون عليه شر هزيمة فقط بعد قرائته لكتاب عن أساليب القتال, وخطط ودبر للإيقاع بأشرس مهاجميه بعد أن حفظ رواية لكريستي عن ظهر قلب فدبر خطة الشرير للانتقام.. ضحك بعبث وهو يتذكر مرحلة تحوله ليصبح الورقة الرابحة دون منافس, والآن ها هو يحاصر سارة بعذوبة كلمات هي زبد أوراق التهمها لسنوات فهو لم يصبح آس البستوني من فراغ!..

أطرق رأسه إلى الوراء مستنشقاً ما استطاع من نسمات الهواء الباردة علها توقظ عقله, نفث ما تبقى من دخان لفافته مشكلاً سحابة زرقاء خيُّل إليه أنها تحمل ملامحها, تأملها بشغف ليغمض عينيه بعدها رافضاً تمكنها منه ويعود مرة أخرى لعبارة الرازي..

خطة الشيطان التي سينهي بها مهمته ويرحل مبتعداً عن سحر الشقراء للأبد..

ابتسامة ساخرة علت ثغره فبفضلها سيغادر تلك المهمة ليس قاتلاً فقط وإنما ممتلكاً لسر الدناءة!

استيقظ على صوت رجلٍ عجوز يتلو بعضاً من آيات الذكر الحكيم, انتفض متعجباً غير موقن أين هو حتى تذكر غفوته بعد صلاة الفجر بالمسجد..

نظر في ساعته فوجدها قد تعدت التاسعة صباحاً.. يالـ حماقته فقد غفا كطفل دون إدراك.. غادر المسجد على عجل متوجهاً مرة أخرى نحو المشفى حيث ترقد ريم.

غادر أمس لبعض الوقت بعد أن رفضت والدتها التحرك أو حتى تناول بعض الطعام.. أعاد السيارة لصديقه وطمأن والدته على الهاتف وتوجه لأقرب مسجد من المشفى لأداء صلاة الفجر ثم العودة إليها مرة أخرى ولكنه رغماً عنه غط في نومٍ عميق.

كان يسير بخطى متسارعة نحو غرفتها لائماً نفسه على تركها ولو لمجرد ساعات قليلة.. بمجرد أن دلف للغرفة أبصر أمها تجلس مجاورة لها على الفراش وهي ساكنة بين ذراعيها.. كانت نظرتها غائمة لا تستطيع أن تحدد وجهتها..

اقترب منهما في حذر ليهمس بنبرة خافتة: ـ سيدة سلوى..

ابتسمت الأم باقتضاب وبدت على ملامحها الراحة لرؤيته ثم أجابت: ـ رامز.. تعال يا بني.

نظر نحو ريم بحيرة متابعاً: ـ كيف حالها؟

أطرقت الأم رأسها بحزن ثم تركت ريم متوجهة نحوه لتردف: ـ ما زالت تحت تأثير المهدئ ولكنها تبكي.. من آن لآخر أستمع لأنينها المكتوم.

شعر رامز بألم عميق يدك قلبه دون هوادة.. أين هي ريم بصوتها الرنان ومشاكستها الدائمة لكل من حولها وغرورها المزعج الذي اشتاقه الآن!

تنهدت الأم متابعة: ـ الطبيبة أخبرتني أنها ستفيق بشكل كامل بعد ساعتين وعندها ستبعث لنا بمعالجة نفسية لتساعدها على تخطي الأمر.

أومأ رامز رأسه بضيق: ـ بالطبع هذا أمر مهم.

تركها رامز متوجهاً نحو معشوقته غير مبالي بشيء ليجثو على ركبتيه في مواجهة فراشها ومراقباً عينيها الضائعتين بعيداً عن نظراته ليقول لها بعاطفة جياشة: ـ عودي أيتها المشاكسة.. دعينا نلقنه درساً لن ينساه.

لا يعلم هل خُيّل له ذلك أم أنها حقاً حركة تلك التي لمحها بمقلتيها, تابع بحماس: ـ عودي يا ريم فأنا لدي خطة ستطيح بهذا الرازي وستنتصرن عليها أيتها المجنونات.. فقط عودي.

كانت ليلة طويلة.. لم تذق بها طعم النوم على الإطلاق فالأفكار كانت متخبطة بين حادث هند واختفاء ريم وجسارة أدهم..

زفرت بضيق وهي تحاول الوصول لريم مرة أخرى دون جدوى, الجريدة أخبرتها أنها كانت موجودة بالصباح ولكنها غادرت مبكرة ولا يعلمون أين هي..

هاجس انتقام عاصم أصبح أشد شراسة بداخلها وتمكن من قلبها الانقباض وتملكتها الرهبة بشأن ريم وما قد يكون أصابها.. ارتدت ملابسها على عجل للتوجه نحو هند في المشفى مترددة بشأن اخبارها عن اختفاء ريم والأدهى

أنها ستذهب لمكتب التحقيقات حيث تم استدعاءها مرة أخرى بعد عدة استجوابات للرازي وغيره, فركت جبينها بيأس وهي تتفكر في هذا الاستجواب الثاني.. ماذا عساها أن تقول مرة أخرى؟.. وماذا قال الرازي عنها؟.. هل هي بصدد الدفاع عن نفسها بدلاً من استرداد حقها؟..

تسرب الندم بخبث لعقلها وغابت داخل أفكار قاتمة عن ما حدث ويحدث.. ليتها لم تقدم تلك الشكوى.. ليتها هربت لمكان آخر وانتهى الأمر بدلاً من تلك المَضَرَّة التي تسببت بها للجميع.

مرة أخرى قفزت صورته بتملك داخل عقلها, كل ما بشأنه يربكها حتى وهو غائب.. حاولت دون جدوى طرده من عقلها الأحمق فهو لا يهتم والدليل أنه لم يحاول حتى الاتصال بها منذ البارحة للاطمئنان عليها كما يدعي..

وكأنه يقرأ أفكارها أم ربما هواجسها فبمجرد أن فتحت الباب لتهِم بالخروج وجدته أمامها! كان يقف متكئاً على حافة الجدار ويرمقها بنظرة ماكرة..

شهقت في فزع ثم تلعثمت مردفة: ـ لقد أخفتني.

ابتسم بعبث متابعاً: ـ لقد ظننت أنني أخيفك منذ البارحة!

لم تجبه قطبت جبينها وحاولت تخطيه ولكنه جذبها من ذراعها مرة أخرى ليحاصرها بينه وبين الجدار, رمقته محذرة: ـ ابتعد عني.

ابتسامة واثقة لاحت على جانب ثغره قبل أن يهمس متابعاً: ـ ليتني أستطيع!

أغمضت عينيها في ألم ثم أردفت: ـ حسناً أدهم.. أنت تخيفني الآن.

لم يجبها ولم يسمح لها بالرحيل فقط ظل يحتجزها بين ذراعيه متأملاً ملامحها المرتعشة؛ أهدابها المطعمة ببريق بندقي اللون, وتلك الخصلات

المنكهة بضوء الشمس الهاربة بخبث من تحت وشاحها الفيروزي, ووجنتيها الرقيقتين, وشفتيها اللتين غاب في سحرهما وكاد أن يودي بكل خططه في سبيل قبلة صادقة..

ابتعد عنها في حركة مفاجأة حتى كادت هي أن تسقط بعد أن خارت كل قواها فوق ذراعيه, أردف بقسوة: ـ ربما يجدر بكِ أن تخافي!

كانت صورته تتضائل تدريجياً بعينيها الباكية, ابتعد في لحظات وتهاوت هي جالسة على الأرض معتصرة جبينها في محاولة يائسة لاستيعاب هذا الرجل الذي يريد جنونها لا محالة.

بغرفتها تتلألأ كماسة مفقودة ووجدها هو فقط بالأمس, كان يقف بجانب الباب يراقب ابتسامتها الواسعة التي افتقدها منذ سنوات..

"ما بكِ أيتها الشرسة هل كان يجب أن تنقلب بكِ السيارة لتوقني أهمية تلك الابتسامة!" تبدلت ملامحه لضيق عندما لمح راغب.. هذا اليائس الذي قدم لزيارتها مع بضعة أوراق ملونة يطلقون عليها ورود!.. ياله من تقليدي هذا المتصنع الأناقة, يرتدي حلة قاتمة ويحمل بكفه وروداً وكأن هند من النساء اللواتي يتأثرن بهذا التملق, لو لم يكن بقية الموظفين بغرفتها المكتظة لدلف على الفور ملقناً هذا المُحِبّ درساً لن ينساه..

ولكن لا.. يكفيه الآن مراقبة عينيها الحائرتين بحثاً عنه, هي معهم بجسدها ولكن قلبها وعقلها فهما ملكه وحده وهو راضٍ بهذا على الأقل الآن..

ابتسم بحبور وغادر المشفى دون أن تلمحه فهو لن يعود دون أن يوفي بوعده وقد اقترب من ذلك بشدة!

وفي بناية فخمة بأحد أرقى أحياء القاهرة وعلى جوانح ظلام دامس انطلقت ضحكة عابثة, قرقعة كؤوسهما أيقظت صمت السكون وأنبأت عن ليلة أخرى من المجون بين جدران معصية اعتاد لذتها.. امتدت يدها طلباً لضوء المصباح حتى تتمكن من ارتداء ملابسها ولكنه أوقفها ليجذبها نحوه من جديد, قهقهت بدلال: ـ أنت اليوم في مزاج أكثر من رائع.

اعتدل في جلسته ثم قال بشراسة بعد أن أشعل سيجاره: ـ لقد شكلت الفريق واخترت المهاجم وأنا الآن على وشك إحراز هدف الفوز!

ابتسمت خليلته بمكر متابعة: ـ يبدو أنك تُحرز تقدماً لا بأس به بالقضية.

تابع ببأس: ـ ستدركين مصير كل من تخول لها نفسها العبث مع الرازي.

ابتلعت غصتها ثم رسمت ابتسامة كاذبة على شفتيها متابعة: ـ حتى أنا؟!

أحاطت عنقه بذراعيها بغنج فابتسم بقسوة مكملاً: ـ احرصي على أن لا تتذوقي غضبي يا فدوى.

تركته وبحثت بدورها عن لفافة من التبغ تداري بها قلقها, معرفتها بالرازي جاءت بعد أشهرٍ من علاقتها بسيف.. لا مجال للمقارنة.. فسيف يعلم جيداً كيف يغزو قلب المرأة وعقلها دون رحيل, أما هذا المتباهي بجانبها لا يساوي شيئاً دون أمواله وبما أن جسدها أصبح مجرد صفقة تتاجر بها من أجل بريق مفقود على شاشات الفضائيات الراقصة فالغلبة لمن يدفع أكثر!.. والأنصاري حتماً يمتلك من الأموال والنفوذ ما يفوق نجم الرازي الراحل.

ابتسامة ساخرة لاحت على شفتيها متذكرة اتفاقها الذي أبرمته مع سيف منذ ساعات والمفاجآة السارة بانتظار الرازي, سيقتلها لا محالة ولكنه ببساطة لن يستطيع فبعد أيام ستكون محلقة على طائرة لباريس كما وعدها سيف لتوقع تعاقداً مع أشهر الملاهي الليلة هناك وتفر من هذا العفن الذي أصبح محيطاً بها من كل جانب ربما لعفن آخر مختلف النكهة..

قطع سيل أفكارها صوت مفتاح شقتها معلناً عن قدوم سيف, انتفض الرازي في فزع زاعقاً بدهشة: ـ ما هذا؟!

ابتسمت بخبث وهي تبتعد عنه مدارية جسدها بأحد الشراشف ثم قالت بنبرة شامتة: ـ لا تقلق فلدينا زائر!

المفاجآة ألجمته لدقائق..

سيف الأنصاري يقف متابهياً بباب غرفة نوم فدوى وهي اختفت من الغرفة وبعدها من المنزل كله وهو ما زال على فراشها ممسكاً بسيجاره المحترق كأعصابه, نثر دخانه بقوة مصطنعاً الثقة ليردف بنبرة قاسية: ـ هل لي أن أعرف سبب هذا العبث؟

ابتسم سيف بمكر ثم دلف داخل الغرفة متخطياً بقايا الملابس الملقاة على الأرض بتكبر ليستقر على مقعد مجاور للفراش رافعاً قدميه بعجرفة فوق أحد الطاولات متابعاً:

ـ يؤسفني أن يكون لقاؤنا الأول بتلك الصورة!.. نعم أنا أعتبر مقابلتنا تلك هي الأولى فالحفلات الاجتماعية لا تعد معرفة شخصية أليس كذلك سيد عاصم؟!

زمجر عاصم غاضباً: ـ كيف تجرؤ على اقتحام خلوتي بتلك الطريقة أيها ال....

قاطعه سيف بصرامة: ـ تذكر أنت تتعامل مع الأنصاري فكن حذراً في اختيار كلماتك!

بنبرة هازئة أردف عاصم: ـ هل أنت هنا لتهديدي؟

رمقه سيف بثقة: ـ نعم أنا هنا لتهديدك!

قبل أن يجيب عاصم أو يفكر بجدية في سبب تلك المعضلة أدركه صوت ارتطام قوي يبدو أنه لسيارة, ضحك سيف بخبث متابعاً: ـ يبدو أن أحدهم حطم سيارتك الفارهة!.. حمداً لله أنك لم تكن بداخلها!!

انفجر الرازي بوجه تنفجر منه الدماء: ـ ما هذا العته؟!.. وكيف تتجاسر وتحدثني بتلك الطريقة الفجّة؟.. لولا أنني أقدر والدك لكنت قتلتك بيدي العاريتين الآن.

قهقه سيف بغرور: ـ على حسب ما أرى فليست يداك فقط هم العاريتين سيد رازي!

انتفض عاصم بغيظ وهمّ بترك فراشه ليجذب هذا المتحاذق من تلابيبه ولكنّ سيف أوقفه بنظرة شرسة متابعاً بغلظة: ـ لو فكرت مجرد تفكير الاقتراب من هند مرة أخرى ستكون فضيحتك علنية وعلى صفحات جرائد لن تحصي عددها ففدوى ستتحدث فقط بأمري ولديها حجج قوية.. صدقني.

زمجر الرازي بفاصل لا بأس به من السباب له ولفدوى ومثيلاتها ثم صمت لوهلة متفكراً ليتابع بمكر: ـ كل هذا من أجل مجرد موظفة بشركاتك!

رمقه سيف محذراً: ـ هذا ليس من شأنك.

ابتسم عاصم بتحدي: ـ تُرى ماذا سيكون رأي حماك العزيز في هذا الأمر؟

ابتسامة واثقة علت ثغر سيف ليتابع بعدها: ـ هل تود المجازفة؟

عادت ملامح الرازي للغضب مرة أخرى, فآخر ما ينقصه الآن تهور غير مضمون العواقب من هذا المُغَفَّل..

زفر بضيق متابعاً: ـ حسناً.. فتاتك خارج الأمر ولكن هي أيضاً يجب أن تبتعد عن طريقي.

نهض سيف مهيئاً نفسه للمغادرة ليجبه وهو يلقي نظرة على ملامحه في المرآة بتكبر: ـ لا مجال للمفاوضة.. فقط ابتعد عن هند فهي خط أحمر وإلا سيكون عداؤك معي شخصياً تلك المرة.

غادره سيف دون أن ينتظر جوابه أما هو فقد تمكنت قبضته في حنق من الوسادة ممزقاً دثارها بغيظ, همس لنفسه ببأس متابعاً:

"كل هذا بسببك أيتها الحمقاء.. فقط أنتهي من هذا الأمر وأذيقك مرارة تفوق كل ما مررتِ به من عذاب".

هند لها بالمشفى الآن ثلاثة أيام ولم تظهر ريم..

ابتسمت سارة باقتضاب مجيبة سؤالها بتردد: ـ ماذا؟

رمقتها هند بريبة متابعة: ـ أسألك أين المتطفلة الصغيرة؟.. لا تقولي لي أنكِ لم تُخبريها بشأن الحادث!

تلعثمت سارة مجيبة: ـ حاولت ولكن لم أستطع.

هند: ـ كيف؟

تنهدت سارة بضيق: ـ هاتفها مغلق منذ يومين.

صمتت هند لوهلة متفكرة ثم تابعت بهلع: ـ يا إلهي أتظنين...

أومأت سارة رأسها بحزن: ـ خائفة.

هند: ـ هل هاتفتِ الجريدة؟.

سارة: ـ نعم.. وأخبروني أنها لم تظهر منذ أول أمس.

أطرقت هند جبينها في ضيق متابعة: ـ الأمر مقلق.

سارة: ـ أنا لا أعلم ماذا أفعل!

زفرت هند بضيق: ـ أشعر بقلق شديد عليها الآن, لا أعلم هل يسعى للإنتقام منا أم تخويفنا لنبتعد!!

أردفت سارة ببأس: ـ استدعوني للتحقيق بالأمس.

انتفضت هند متسائلة: ـ مرة أخرى!!. ولمَ لم تخبريني؟.. وماذا حدث؟

هزت كتفيها بحيرة: ـ نفس الأسئلة تقريباً وكأنه يبحث عن صدق ادعائي, ولكنه سألني عن زوجي السابق ولماذا تم الطلاق.

هند: ـ وماذا أخبرته؟

سارة: ـ الحقيقة.. فأنا لا أملك سواها.

هند: ـ كوني على حذر, فأنا لا أثق بهذا الحقير.

أجابتها سارة بإرتباك: ـ من تقصدين؟

أردفت هند بدهشة: ـ عاصم, ومن سيكون غيره!

أومأت سارة رأسها بتوتر: ـ معك حق.

رمقتها هند بتفحص: ـ سارة.. هل أنتِ بخير؟

تلعثمت: ـ نعم.. بالطبع.

تابعت هند بصرامة: ـ سارة.. هل تخفين عني شيئاً؟

أجابتها على الفور: ـ لا.. لا شيء.. أنا فقط أشعر بالقلق والندم والخوف والحيرة و...

قاطعتها هند: ـ هششششششش.. هذا ما يريده.. لا تسمحي بنجاحه أرجوكِ.. لا تضيعي مجهودنا هباءاً.

أجابتها سارة ببكاء مكتوم: ـ أنا خائفة للغاية.

قربتها هند نحوها لتحتضنها بكل ما أوتيت من قوة: ـ تعلمين بصغري كنت مثلك أخاف كثيراً.

بنشيج سألتها سارة: ـ والآن؟

أجابت هند بابتسامة ساخرة: ـ أيقنت أن من أخافهم مجرد بشر لهم زوجين من الأعين وذراعين وفم واحد.. لا يتميزون عني بشيء فقررت أن أكون ببساطة الأقوى.. الأشرس.. والأهم الأذكي.

رمقتها سارة بحيرة فأردفت هند متابعة وهي تشير لرأسها: ـ السر هنا.. صدقيني القلب النقي رائع ولكنه ببساطة غير كافٍ..

ظلت عبارة هند تتكرر بعقلها طوال الطريق, تمتلك هي براءة قلب طفلة ولكن لم يحمها هذا من الشرور بل ربما زاد من شقائها.. أيجب أن تكون قاسية لتفوز؟.. شرسة لتنتصر؟.. داهية لتسطر حروف النهاية؟!

زفرة حارة أطلقتها بعد أن وصلت للمنزل وحتى الآن لا أثر لريم!.. اختفت وأثارت بداخلها قلق لا حدود له..

كانت الشمس قد قاربت على الغروب وأيقنت أنها بوسط تلك المعمعة لم تتناول سوى شريحة من الجبن منذ الصباح, توجهت للمطبخ باحثة عن أي شيء تسد به جوعها قبل أن يصيبها الإعياء وبالفعل أخرجت بقايا علبة من سمك التونة لتتناولها دون شهية مع بضع كسرات من الخبز والعصير..

طرقات ملحة على الباب أجفلتها لتنتفض متسائلة عن الطارق..

هل هي ريم؟!

هرعت مسرعة ولكن خطواتها تباطئت عندما ظنت أن الطارق أدهم, اقتربت بحذر من العين السحرية وتسمرت من هول المفاجأة فآخر من توقعته ببابها الآن هذا الزائر..

الفصل السابع عشر

عندما يغادرنا الكبرياء قد يصبح الصمت حينئذٍ أفضل الحلول..

وهي لم تعد تتذكر متى غادرها كبرياء الأنثى لتتخذ بعده الصمت خليلًا, صديقا ورفيقاً وونيساً أوحد في ظلمةٍ اعتادتها حتى فقدت القدرة على الرؤية.. أو هكذا ظنت فالمقولة هي أننا نرى ما نريد أن نراه وهي اختارت ألا ترى شيئاً على الإطلاق..

اختارت الابتسامة.. السكون.. الصمت وقبلهم الطاعة.

حاضر ونعم وحسناً وكما تريد

كلمات ألفتها وأصبحت هي لغة الحوار بين كليهما.. حتى بعد أن تمردت عليها دنياها وقررت قذف الحقيقة المخزية بوجهها دون رفق, ومرت عيناها بألم على مغامرة أخرى من مغامرات زوجها ولكن تلك المرة على صفحات الجرائد.. حينها أغلقت الجريدة بهدوء ورمقت طفليها بنظرة حانية معاهدةً نفسها على الجلد مرة أخرى فقط من أجلهما حتى وإن واجهت كل ليلة هذا الطوفان المُهلِك من اللامبالاة!

فعاصم كعادته لم يكلف نفسه عناء تبرير ما حدث ويحدث وكأنها جماد غير مرئي, متاحٌ له وقتما يريد وغير قابل للكسر أو الفقدان أو حتى الإهتمام!.

ومرت الليالي كسابقتها منكَّهة بسكون الألم ونبرة الجفاء وهو كالغائب الحاضر تستمع من وقتٍ لآخر لصراخ غاضب من مكتبه على أحد موظفيه

وتوبيخ يومي للخدم بسببٍ وبدون, وفي بعض الأوقات نظرة حانقة وتحذير صامت لشخصها من حتى مجرد التفكير في لومه أو ربما.. سؤاله.

ولم تسأل ولم تحاول بل ألقت بلومها على سارة.. رأتها غانية وساقطة ومتصنعة للبراءة سعت لإسقاطه وربما عقاب العائلة بأكملها.

كما يريد وكما ظن الجميع ستكون سارة المخطئة.. المذنبة والشيطانة والآثمة دوماً لا محالة..

وسيظل هو مجرد رجل شريف وقع في شباك أنثى.. لا بل لم يقع هي خُطة شريرة من أجل الإيقاع به, ألم يكن هذا لغوه في الهاتف مع أحد مرؤوسيه.. يتحدث عن قريبته التى قررت الانتقام منه عندما فشلت في إغوائه وبعد أن حملت سفاحاً من أحدهم واكتشف هو الأمر فقرر تطليقها من أسامة..

نعم.. فهذا جزاء من يتفانى من أجل عائلته.. وهو يحترق وما زال من أجل اسم الرازي!

ابتسمت ساخرة وهي تتذكر تلك العبارة التي دأب على ذكرها أمام الجميع خاصةً فُتنة وولدها الذي ظهر أخيراً منذ أيام, زيارة غامضة تلك التي قام بها أسامة لمنزلهم وحديث امتد لساعات بين جدران غرفة أسرار زوجها التي دأب على ملازمتها في الآونة الأخيرة..

كانت الساعة قد قاربت على منتصف الليل وعاصم بترحاب مريب استقبل الزوج المخدوع لينفرد به بغرفة مكتبه صارفاً جميع الخدم, هيئة أسامة جذبت انتباهها فلم تلمس بملامحه غضب أو حنق بل كانت هادئة!..

مسترخية وكأنها وجدت ضالتها!

أي ضالة سيجدها رجلٌ عند مَن اتهمته زوجته بالتمكن منها ثم محاولة قتلها بعد ذلك.. وتلك التي تتجول بعروقه دماء أم شيء آخر!!.. أم أن معيشته بالدول الغربية قد تمكنت من نخوته؟!..

كانت تتحرك بخفة قرب النافذة ففضولها كان هو الغالب في تلك المرة, المرة الوحيدة التي قررت فيها الهروب من الظلام علها تواجه ضوء الحقيقة وليتها ما واجهته فسطوعه كان فوق احتمالها.

ابتسم الرازي لزائره بثقه ثم أردف وهو يناوله علبة أنيقة نُقش عليها بإتقان حروف اسمه الأولى: ـ سيجار؟

رمقه أسامة بمكر متابعاً: ـ أنا لا أحبذه ولكن لمَ لا؟!.. ربما علي أن أجرب أحد أشيائك!

لمعت عينا عاصم بقسوة ليتابع: ـ ما رأيك بإصلاح ما أفسدته اختياراتك أولاً؟

ابتسم أسامة ساخراً فتابع عاصم بحنق: ـ بعد عدة أيام ستتوجه لهذا العنوان.. الموعد سنتفق عليه وعندها ستفاجئ طليقتك المصون بزيارة قاسية بعض الشيء!

رمقه أسامة بحدة: ـ ماذا تريد؟

أردف عاصم بثقة: ـ أنت من تريد يا أسامة.. وتريد الكثير!.. فمشروعك الأخير مع صديقتك الإيطالية يكابد خسائر فادحة ووالدتك رفضت بشكل قطعي بيع حصتك الكبرى في الأرض الغربية.

تمتم أسامة بحنق: ـ وأنت لديك الحل؟

تابع عاصم: ـ نصف المبلغ سأحوله على حسابك بعد التنفيذ والنصف الآخر بعد توقيع العقود.. سأشتري أنا الأرض منك ولن تعلم والدتك عن الأمر شيئاً!

زفر أسامة دخان سيجاره بيأس ليتابع: ـ والثمن مرة أخرى سارة!

زمجر عاصم بغضب: ـ احذر.

قاطعه أسامة بحدة: ـ عاصم.. هذا اللغو الذي بعثرته بين أوساط العائلة ربما تصدقه نساء مسنات حاقدات.. وبعض مِن مَن يتوسمون بك خيراً, ولكن حتماً تلك الحكاية الوهمية لن تنطلي عليّ فالحمقاء لم تكن قادرة على إغواء زوجها لتغوي رجلاً مثلك في النهاية بل وآخرين أيضاً!

صمت عاصم لوهلة ململماً شتات غضبه ثم تابع في تعجل: ـ حدد اختياراتك يا أسامة معي أم ضدي وليكن بمعلومك حمقاؤك ستغادر خاسرة في النهاية.

اضجع أسامة على مقعده بخيلاء متابعاً: ـ أنا لا أهتم بسارة ولم أهتم يوماً.. تعلم أنا أحتاج لعروس جديدة.. فتاة ذات حسب ونسب تُخرجني من تلك البؤرة القاتمة.

لمعت عيناه بقسوة ثم أردف متابعاً: ـ للأسف صغيرة ابنتك يا عاصم ولكن أنا على استعداد للانتظار!

انتفض عاصم من مقعده كوحش كاسر ليمسك بتلابيب أسامة مزمجراً: ـ كيف تجرؤ؟!

ابتسم أسامة ببرود ثم خلص قميصه الذي كاد أن يتمزق بين ذراعي الرازي ليتابع ببأس: ـ أترى.. الأمر مؤلم!

أشعل عاصم سيجاراً آخر لينفث دخانه بغل متابعاً: ـ هل تود اختبار بأس الرازي؟!

بسخرية غريم تابع أسامة: ـ لا تنسَ.. فأنا أيضاً رازي يا عاصم.

عبث عاصم بشحمة أذنه في لامبالاة متابعاً: ـ خمس دقائق وسيصبح عرضي كأنه لم يكن.

أغمض أسامة عينيه في محاولة أخرى للتحكم في الغضب الجامح بداخله, عاصم من كان يعتبره كأخٍ أكبر استحل منزله وزوجته بغيابه بل وسعى لتطليقها منه وهو كالأحمق جاهل بما يُحاك حوله.. كور قبضته بغيظ وبداخله رغبة قوية لتحطيم وجهه, تحطيم كل ما تطاله يداه ولكن لا.. هذا ليس بوقت الحماقة.. والأخرى فهي تستحق ما نالته وستناله, ففي النهاية هي خضعت لسطوة رجلٍ غير زوجها والقضية هي الحساب القذر بين كليهما.

زفرة حارة أطلقها قبل أن يجيب ببرود مصطنع: ـ أمرك.

ابتسامة قاسية علت ثغر عاصم ليتابع بنبرة هادئة: ـ العنوان بتلك الورقة ستذهب لزيارتها عندما أخبرك.

أسامة: ـ ثم؟

عاصم: ـ باب الشقة سيكون مفتوحاً وستتوجه أنت بحذر لغرفة نومها وعندها ستجدها هي والآخر و.....

قاطعه أسامة: ـ كيف؟!.. ومن هذا الرجل؟..

تابع عاصم بصرامة: ـ هذا ليس من شأنك!

تمتم أسامة بغضب: ـ هل تمزح كيف لا يكون من شأني؟!

أردف عاصم منبهاً: ـ ليس من شأنك, وهي لم تعد زوجتك.. بل بعد عدة أيام سيصبح من حقها الزواج من غيرك, ولكن الآن ومن ستكون معه هو ليس بزوجها.. وأنت ما عليك سوى افتعال فضيحة.

أسامة: ـ فضيحة!

عاصم: ـ الجيران والشرطة وتحرير محضر زنا.

أسامة: ـ ولكن سارة ليس زوجتي!

عاصم: ـ الغرض هو الضجة وليس أكثر, فهذا ما أحتاجه في القضية خاصتي.

تهاوى أسامة للحظة في مقعده فهو حتماً في مواجهة الشيطان فأقصى ما مر بخياله عندما طلبه الرازي ملمحاً عن صفقة عمل بين كليهما أنه سيساومه على صمته.. تجاهله لما حدث, وربما سيبرهن على عبث سارة.. ولكن ما يستمع إليه ويراه هو نسج شيطان لا محالة..

تمتم بغضب: ـ الرجل من يكون؟

ضحكة هازئة أصدرها عاصم: ـ هل تظن أنك حقاً تدرك دهاء النساء؟!.. جميلتك لها عشيقٌ الآن أيها الرازي!

بنبرة ساخرة أردف أسامة: ـ عشيق سيترك لي الباب مفتوحاً!

رمقه عاصم بتفحص: ـ عشيق لها وصديق لي.

لم ينطق ولم تتبدل ملامحه فقط مد ذراعه نحو عاصم ليردف ببأس: ـ اعطني العنوان.

مرتجفة, حافية القدمين, متشبثة بمقبض الباب في حذر وعلى أطراف أصابعها تقف محدقة بزائرٍ من الماضي..

ترددت في البداية, هل تفتح الباب أم تتجاهل هذا النداء الغامض وكأنه لم يكن؟!..

ولكن كيف؟!

فزوجة الرازي ببابها الآن وهي عازمة على رؤيتها لا محالة..

كلمات هند بزغت كضوء ساطع داخل عقلها,

لتكن الأقوى.. الأشرس والأهم الأذكى.

بريقٌ وحشي اجتاح عينيها وهمسة قاسية تراقصت على شفتيها

"كوني الأقوى"..

نفحة من الثقة أحاطت بها نفسها قبل أن تفتح الباب لاستقبال ضيفتها التي حتماً لم تأتِ لمواساتها!

هل حقاً كانت تحصي الدقائق.. بل تلك الثوانِ اللانهائية!.. مائة وثمانون ثانية وصفاء صامتة دون حراك.. فقط تتأملها بابتسامة غامضة وهي في

مواجهتها تنتفض خوالجها اضطراباً رغماً عنها, فزائرتها على ما يبدو فولاذية الأعصاب ففي النهاية هي امرأة الرازي.

كانت صفاء تتأملها بدورها, جمالها وخصلاتها الشقراء التي تبعثرت وصولاً لخصرها, الحذر المتمكن من عينيها ورهبة ملامحها التي لم تتمكن من السيطرة عليها..

وبالطبع كيف وبأي سبيل ونهج ووسيلة ستتمكن من ذلك!.. ففي النهاية قد وسمها الرازي لتُصبح إحدى نسائه..

غادرتها أفكارها الغاضبة لترمقها مرة أخرى بنفس الابتسامة ثم أردفت بنبرة هادئة: ـ ألن تدعينني للدخول!!.. ففي النهاية أنا أستحق قدحاً من الشاي واعتذار.

كانت تبدو متماسكة.. باردة لأبعد الحدود خاصة أنها في مواجهة امرأة شاركتها زوجها ولو للحظات, بعكس سارة التي كادت أن تنفجر الدماء بوجهها غضباً من تلميحها الجارح..

زفرة حارة أطلقتها معبرة عن العاصفة الهوجاء بداخلها لتردف بعدها بنبرة قاسية: ـ الشاي هو واجب الضيافة, ولكن الاعتذار فهو غير كافٍ وأنا من تستحقه.

ـ تفضلي..

قالتها سارة بنبرة هازئة وهي تشير لصفاء بالدخول ولم تبالِ صفاء بلغوها الأخير على الرغم من تمكن الغضب منها, من تلك المستهترة التي لم

تكترث بسمعتها ولا سمعة العائلة والنتيجة فضيحة علنية على صفحات الجرائد..

قطبت صفاء جبينها وودت للحظة العودة من حيث جاءت فأياً كان ما سيحدث لتلك الحمقاء فهي بالتأكيد تستحقه, ولكنها عادت لتُذكر نفسها بما عاهدت عليه ضميرها منذ يومين فهي لن تتحمل وزر كتمان الحق وخديعة أنثى حتى وإن كانت غريمتها.

استقرت صفاء على الأريكة ثم تفحصت المكان حولها بلامبالاة متابعة: ـ منزل صديقتك.. اسمها هند أليس كذلك؟

زفرت سارة بضيق متابعة: ـ من أعلمك بمكاني؟

ابتسمت صفاء بسخرية: ـ مؤكد ليس عاصم من أخبرني به!

بترقب أردفت سارة: ـ ولكنه هو الوحيد الذي يعلم بهذا العنوان.

اتكأت صفاء على ساعدها لتقترب من سارة متفحصة ملامحها ثم قالت: ـ وأنتِ مَن أخبرته بالعنوان؟!

انتفضت سارة بغضب: ـ لا أسمح لكِ, فزوجك هو الذي دمر حياتي وما زال و...

قاطعتها صفاء بحدة: ـ أنا لست هنا للاستماع إلى مغامرة زوجي الطائشة معكِ يا سارة.

لا تعلم ماذا أصابها لكن كل قواها وعزيمتها وشراستها الواهية تساقطت وتبعثرت بالتزامن مع عبراتها المنهمرة كشلال, أي مهانة تواجهها الآن مع زوجة رجلٍ يظن الجميع الآن أنها خليلته!.

أين أنتِ يا هند!!.. ليتك معي الآن.. وأين ريم؟..

تركتاها متدثرة بقوة على ما يبدو لم تُصنع من أجلها.. كانت منكمشة بمقعدها منتحبة بسكون قاتل, تكره نفسها الآن وبتلك اللحظة وتمقت هذا الضعف المتمكن منها المتسلل كالسم القاتل داخل أوردتها منتصراً على كل ترياق..

انتفضت عندما شعرت بيد صفاء الصغيرة تربت على كتفيها فنظرت نحوها في صدمة لتتابع صفاء بملامح صارمة في بداية لفك شفرة زيارتها: ـ ولكن.. أنا أصدقك!

ظلت واجمة تنظر نحو زائرتها في حيرة, جلست صفاء في مواجهتها مرة أخرى لتتابع بنبرة جادة: ـ كوني على حذر فزوجك السابق قادم لزيارتك, وعلى ما يبدو فزوجي رتب للأمر جيداً.

تلعثمت سارة: ـ ما.. ماذا!

أغمضت صفاء عينيها وبدا على ملامحها الألم وهي تتابع: ـ عاصم يدبر لفضيحة, وأسامة سيفتعلها وأنتِ ستكونين بطلتها دون منازع ومعكِ.. عشيقك كما قال عاصم.

لا تعلم ماذا يحدث!.. وهل هي حقاً تدرك ما ينسج حولها وما سر هذا الصوت الصارخ بأذنيها؟!

رياح هادرة.. لا بل صراخ أنفاسها التي يبدو أنها ستغادر صدرها بلا رجعة وسط طبول قلبها المرتعد.. شحوب ملامحها أفزع صفاء التي توجهت مسرعة نحوها وهي تصرخ:

ـ ما بكِ؟!.. سااااااااااارة!!

كان صوتها يتباعد وكانت هي تشعر بالاختناق.. نعم غابت أنفاسها وجثم شيطان فوق صدرها ولم تشعر سوى بقبضتي صفاء الضعيفتين تسحبانها بيأس نحو دورة المياه, أفرغت ما بجوفها وتهاوت على الأرضية الباردة ببقايا حياة ومنشفة مبللة تمسك بها صفاء وتملس على وجهها في محاولة لإنعاشها..

أردفت بصوت ضعيف وأنفاس متهدجة: ـ ماذا يحدث؟

رمقتها صفاء بشفقة: ـ لقد فقدتِ وعيك.

تمتمت بحزن: ـ بل ماذا يحدث لي؟!.. وماذا سيحدث؟.. وأنتِ مَن جئتِ لتحذيري!

نهضت صفاء لتتابع بكبرياء: ـ لدي ابنة ولكن يبدو أن زوجي لا يدرك ذلك.

همّت صفاء لتركها ولكن سارة تشبثت بيديها متابعة: ـ من يكون؟

صفاء: ـ ماذا!

سارة: ـ تتحدثين عن عشيق.. أنتِ تعلمين جيداً أنه ليس لي عشاق, من يكون هذا الرجل الذي تتحدثين عنه؟

زفرت صفاء بضيق: ـ لا أعلم.. ولا أعلم عنكِ شيئاً.. كل ما أعلمه أن عاصم يثق بوجود رجل بفراشك وفي الليلة التي سيأتي بها أسامة.

تمتمت ببأس: ـ أنا!.. ورجل!.. وأسامة!!

أحاطت رأسها بكفيها وصرخت: ـ يا الهي!!

شعرت صفاء بالشفقة نحوها, اقتربت منها مرة أخرى بغية مواساتها ولكنها تراجعت وتصلبت يداها أمام كتفيها.. ابتعدت لتتابع ببأس: ـ فقط كوني على حذر فهناك من يتربص بكِ ويبدو أنه قريب للغاية.

قبل أن ترفع سارة رأسها كانت قد غادرت, أسرعت مبتعدة لتلقي بنفسها بأول سيارة أجرة لتعد من حيث جاءت..

شعرت بدقات قلبها تتقافز جنوناً وألماً وذعراً ورضى!.. فتلك الـ "سارة" آخر ما

يُقال عنها أنها لعوب..

تلك الـ "سارة" أشعلت دون قصد دربها المظلم لترى ببساطة.. الحقيقة.

متهاوية على أرضية دورة المياه برؤية مشوشة وخصلات مبعثرة وجسد يبدو أنه اعتاد الارتجاف.

رحلت صفاء وبقيت كلمات.. عبارات حادة كنصل جارح..

رجل.. وزوج.. ورازي.. وهي وفضيحة و...

أحاطت وجهها بكفيها مرة أخرى مانعة نفسها من الصراخ.. أي خزي وعار بانتظارها وأي مصير ستلقى في النهاية ومَن!!...

تحركت أناملها بقلق على شفتيها علها تمنعها من النطق باسمه ولكن هل هناك رجلٌ غيره!.. هل يوجد بعالمها غيره؟.. الرازي تحدث عن عشيق فمن يكون؟..

هذا الذي قفز بعالمها دون دعوة أم مقتحم آخر سيأتي تلك المرة من أجل إذلالها!.. أسندت رأسها إلى الوراء في يأس وتمكن الذعر من خلايا جسدها عندما سمعت وقع خطوات قرب باب الشقة..

غابت الخطوات وصاحبها ولكن أنفاسها المضطربة كانت هادرة كرعدٍ غاضب, لم تفكر حينها سوى في شيء واحد؛ إذا ما هاجمها أحدهم الآن وتسلل لمنزلها بُغية رسم مشهدٍ عبثي بإشراف الرازي, ماذا عساها أن تفعل؟.. وكيف ستحمي نفسها من براثنه؟ انتفضت مرة أخرى بفزع.. تتصور تربص مهاجمها من النافذة, أو ربما الشرفة.. لا هو عند الباب..

كانت في مواجهة قاسية مع ذعرها, بل جنونها..

احتجزت نفسها في دوره المياه لساعات متصورة أن الأمان بين تلك الجدران الصلبة والنافذة التي لا تتسع سوى لهرٍ صغير, نعم هي الآن بأمان فقط ستنتظر بزوغ الشمس وإن شعرت بخطر فربما تهاتف أدهم.. تمكن الشحوب من ملامحها فلم تعد تدري هل هو حقاً حاميها أم من يجب أن تخشاه!.

قاسية.. وجميلة ومهلك هذا البريق المجتاح لعينيها, الابتسامة لم تفارق ثغره وهو يراقبها.. نبرتها الساخطة, والمسكينة بجانبها التي ربما أوقعها حظها العثر في تمريضها تمسك لها بالهاتف معوضةً عن تكاسل ذراعها المصاب,

الأوراق المبعثرة أمامها وقبضتها الأخرى الممسكة بالقلم ترفض هذا وتمرر ذاك والشاب الصغير بجانبها يقف مرتعداً عل حظه العثر يوقع تحت عينيها أي هفوة ولو صغيرة فمع هند لا مجال للخطأ وخاصةً فيما يخص العمل.

بدلال عفوي استرسلت خصلاتها على أحد جانبي كتفيها وتزينت عيناها بعوينات أنيقة فبدت فاتنة لأبعد الحدود وكأن كل ما بشأنها ويمر بعالمها ينال من عبق سحرها دون روِّية..

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة صباحاً, دلف للغرفة متهادياً وهو ينتظر سخط وغضب وغيظ وقبل هذا كله تجاهل.. فدرب العاشق الذي اتخذه مسلكاً لن يجدي بسهولة مع هند, وهي حتماً لن تظل منتظرة طلته باكية على غيبته حتى وإن افتقدته!

رمقته بلامبالاة ثم عادت مرة أخرى لمحادثة مَن بالهاتف متابعة: ـ حسناً سيد راغب.. لقد تكفلت بالأمر.

ابتسامتها كانت توحي بتملقٍ بدائي من عاشقها الأربعيني, ابتسم بشراسة فهو يعلم جيداً أن هند لا تتأثر ولن تتأثر بهذا النوع من الملاطفة الزائفة كما أنها لا تقصد بالطبع اغاظته أو إثارة غيرته بتلك الابتسامة ولكنه حتماً سيستغل ذلك..

رمقها بمكر قبل أن يسحب مقعداً بقدمه متباهياً, جلس في مواجهتها فانتفض الموظف الصغير مرحباً: ـ سيد سيف..

أخرج لفافة من التبغ ثم توجه للممرضة الصغيرة بجانب هند والتي كانت ما زالت ممسكة بالهاتف ثم أردف برقة: ـ مرحباً يا حلوة!

ابتسمت الفتاة بخجل: ـ مرحباً..

تابع سيف: ـ هل التدخين ممنوع بالغرفة؟

أطرقت الفتاة رأسها خجلاً من هذا الوسيم الذي اقتحمها بنظراته فأردفت مسرعة: ـ نعم.. خاصةً أن الطبيب منع الآنسة من التدخين.

ابتسم بمكر ثم غمز لها بإحدى عينيه بعد أن أشعل لفافته وقال: ـ إذاً سيكون هذا هو سرنا الصغير!

تلعثمت الفتاة وقبل أن تنطق صرفها سيف هي والموظف بعد أن عهد إليه ببعض المهام.. كانت هند تراقبه في سخرية وما إن غادرا أردفت هازئة: ـ أنت كما أنت لم تتغير.

ابتسم بمكر متابعاً: ـ حبيبتي!.. هل تشعرين بالغيرة من فتاة صغيرة كتلك؟!

كشرت عن أنيابها وهي تجبه: ـ سيد سيف.. أولاً: أنا لست بحبيبتك, وثانياً: بالطبع أنا لا أغار.

رمقها بشغف متابعاً: ـ ولكن أنا أغار!

هند: ـ ماذا؟!

سيف: ـ تتعمدين الابتسام لهذا المدعو راغب لتثيري جنوني!

هند: ـ يا الهي أنت حقاً مجنون!!

ابتسامة واسعة علت ثغره ليقترب منها بمقعده متابعاً: ـ وهذا المجنون كان سيشعل لكِ واحدة رغماً عن أنف الطبيب!

كان يمسك بإحدى لفافات التبغ في يده ويقربها من لفافته المشتعلة في لهو, أغمضت عينيها في محاولة للسيطرة على حنقها من تصرفاته الطفولية ثم أردفت بنبرة ساخطة:

ـ حسناً.. أنا أعاني من صداع قاتل.. كن رجلاً وناولني تلك اللفافة!

اقترب منها ليناولها اللفافة ولكنه أبعد يديه عنها في حركة مفاجأة ليتابع بصوت هامس: ـ متى أدمنتِ هذا العبث؟

أجابته بدهشة: ـ هذا ليس بإدمان.

قاطعها بصرامة: ـ بلى.. التدخين عادة سيئة وإدمان ويجب أن تتخلصي منها.

قطبت جبينها ومدت ذراعها مرة أخرى في محاولة يائسة للحصول على اللفافة, زفرت بيأس عندما أبعدها عنها مرة أخرى: ـ هذا ليس من شأنك.

ابتسم بتحدي: ـ بل شأني, فأنا لا أود طفلاً بستة أرجل وأنفين أيتها العنيدة!

ابتعدت عنه لتتابع بدهشة: ـ طفل!.. أي طفل؟

أطفأ كلا اللفافتين ثم جلس بجانبها على الفراش متابعاً بنبرة حانية: ـ طفلنا.

كانت تكافح للابتعاد عنه ولكن جسدها المصاب حال دون ذلك, ملس على خصلاتها بشوق ثم أردف: ـ اشتقت إليكِ

أزاحت قبضته بيدها المعافاة ثم تابعت بصرامة: ـ يبدو أنك أنت من تعرضت لحادث!

أردف بحنو: ـ حادث.. مرض.. أطلقي عليه كما تشائين ولكن الأهم أنني لا أود الشفاء منه.

لم يحد عنها بعينيه, ظل يتأملها بشغف غير منقطع.. تلعثمت وكادت أن تتخضب وجنتاها بحمرة اشتاق إليها, ولكنها استعادت رباطة جأشها لتبعده عنها بقسوة متابعة: ـ هي مشكلتك وحدك.

تنهد سيف بيأس ثم ابتسم متابعاً: ـ كاذبة!

أردفت: ـ مغرور!!

قاطعها: ـ يتهاوى كل شيء أمامك؛ غروري وأفكاري وعقلي.

مر بأنامله فوق جبينها ثم عاد ليمرر سبابته على شفتيها, ابتعدت عنه وقد تملك من ملامحها العبوس وكأنها نادمة على هذا التهاون الأحمق الذي يصيبها أمامه ولو للحظات..

ابتسامة هادئة علت ثغره قبل أن يكمل بنبرة قاطعة: ـ لن يعترض أحدهم طريقك مرة أخرى.. لن أسمح بذلك.

جملته أثارت انتباهها وذكرتها بما شغل عقلها لليومين الماضيين.. عبارته كانت

واضحة لا جدال بها.."رد الهدية"

تمتمت بغضب: ـ ماذا فعلت؟

أجابها ببريق حادّ: ـ لن يتعرض لكِ هذا الرازي بعد اليوم.

زمت شفتيها وتمكن من ملامحها وحش ساخط وهي تتابع: ـ أنا لم أطلب منك ذلك ولست في حاجة لحمايتك.

ثار بوجهها محاولاً بيأس جمح كلاً من غضبه منها وشوقه نحوها متابعاً: ـ يجب أن يطلقوا عليكِ عِند وليس هند!

زفرت بضيق كاتمة نقمتها منه لتتابع: ـ أخبرتك قبل ذلك هذا ليس من شأنك.

قاطعها بنبرة حاسمة: ـ بل شأني.. حياتك ليست شأنك وحدك بل شأني أنا أيضاً.

ظلت صامتة فقربه منها ونبرته المتحدية وضعف جسدها كل تلك الأمور لم تكن في صالحها على الإطلاق

ابتسم بانتصار متابعاً: ـ الرازي لن يستطيع الصمود أمام رجل مثلي وأنا أعهدك ذكية يا هند.. هيا التقطي ورقتك الرابحة لن تندمي!

تمتمت بغيظ: ـ إذا كنت أنت الورقة الرابحة فأنا أفضل الخسارة!

ضحك بشدة.. ضحك ملء شدقيه.. ثم أمسك بقلبه في طريقة درامية متابعاً: ـ قاتلتي.. اشتقت إليكِ.

لم تنظر نحوه ظلت على عبوسها ربما لتمنع تلك الابتسامة الحمقاء من التسلل لشفتيها, لوح لها متابعاً: ـ أراكِ غداً.. أرجو أن يكون لديكِ أنتِ والشقراء ما يكفي لمواجهة الوحش ولا تنسِ استخدام وسائل المساعدة.

غمز لها بمكر بإحدى عينيه وتركها بين ابتسامة هاربة وأفكار متعددة بشأنه قبل الرازي.

يهرول كل طفل لأحضان أمه ناشداً الأمان وتجف العبرات فقط فوق كتفيها وتتغلل أناملها الرقيقة بحنان بين الخصلات المبعثرة فيزول السُهاد في لحظات..

لا تعرف كيف ومتى ولماذا.. ولكنها كانت تتوق بشدة لدفن رأسها في هذا الصدر الذي افتقدت حنانه منذ سنوات وتُفسح الطريق لسيل العبرات الجارف علها تستكين.

لمست سلوى ارتجافة جسد ابنتها بين ذراعيها وكأنها تعود بذكراها لتلك الساعة وهذا الصباح المشؤوم.. ربما أخفقت لسنوات ولكنها الآن تعلم جيداً ما عليها فعله وما تحتاجه ريم..

مارست دورها بعفوية أم؛ شددت من احتضانها لصغيرتها وظلت تهدهدها كطفلة.. لا شيء آخر.. لا حديث.. لا سؤال.. لا قلق..

فقط عبق أمومتها الفطري كما تريده ريم.

كان رامز قد قطع الرواق ذهاباً وإياباً ربما أكثر من مائة مرة, استعادت ريم وعيها وصرخت وبكت وهرعت الطبيبة النفسية لغرفتها وغادرت بعد ساعة, وعادت سلوى لابنتها ولا يعلم ماذا يحدث الآن..

ود أن يقتحم غرفتها مجازفاً بكل شيء.. لا يتوق الآن لشيء سوى احتضان ملامحها بكفيه, التقاط عبراتها بأنامله وطمس حزنها للأبد.

ريم..

الآن فقط أيقنت كم أحبك يا مشاكسة..

يا عنيدة..

آاااااااااه حتى حماقتك أفتقدها الآن..

تنهيدة حارة أطلقها ثم عاد ليدفن رأسه بين كفيه ولحسن حظه لم يطل انتظاره أكثر من ذلك, دقت طبول قلبه بعشوائية ووالدة ريم تحدق به بابتسامة غامضة وعلى لسانها عبارةً واحدة: ـ ريم تطلبك.

الفصل الثامن عشر

هل اعتدتك أم أنني اعتدت مراقبتك.. أين أنتِ يا أيقونة الياسمين!!

جنون.. ستقوده تلك الشقراء حتماً إلى الجنون, فها هو مستيقظ منذ الأمس متجولاً بقلق عاشق بين شرفته وباب شقتها علها تظهر..

تُشرق كشمس كل صباح بعد أن خفت ضوء قمرها منذ الأمس.

يالـ حماقته التي قادته لعتبة بابها متحيراً بخطوات عشوائية باحثاً عن مجرد همسة أو حركة تدل على وجودها, الظلام كان سيد الموقف حتى اقتراب الفجر وكأنها ببساطة لم تبت بالشقة.. ولكن متى خرجت!!

لقد لمح قدومها في موعدها المعتاد بعد زيارة هند, خرج لشرفته عدة مرات عله يلمحها, ولكنها لم تظهر بل وظل المكان يسبح في ظلام دامس معلناً بثقة عن غياب صاحبته.

كاد أن يقتحم خلوتها معلناً بتملك عن....

عن ماذا؟!

ظل محدثاً نفسه يتساءل, كاد أن يخطو دون وعي باحثاً عنها.. ألم يمر بين الشرفتين بالفعل!, بل حل القفل العنيد بسلاسة ليجد نفسه غارقاً في ظلام غرفة معيشتها.. بل كادت أن تقوده خطواته نحو غرفة نومها!..

تراجع.. أيقن في لحظة فارقة ضعفه.. هو لا يستطيع الاقتراب منها, لا يجرؤ على اقتحام هذا الباب المغلق, فخلفه عشقه ولعنته ومتعته ونهايته لا محالة.

غادرته المقدرة على إيذائها وتمرد عليه بأسه بشأنها وارتجف قلبه لمجرد أنه تصور قُربَها!

شدّ على قبضته في ألم وهو يتأمل شرفتها ويتذكر مغامرته الليلة من أجلها ثم تمتم بحنق:

"الأحمق ياسين!"

أن تضئ شمعة صغيرة خير لك من أن تنفق عمرك تلعن الظلام

المقولة قفزت بعقلها وسط جنح ظلامها, تلك الغرفة الضيقة التي قضت بها ليلتها بعد أن قذفت صفاء بوجهها مؤامرة أخرى من عقل الرازي.

المقولة قالتها هند أمامها في أحد المرات, هند التي اضاءت بدلاً من الشمعة ألف شمعة وغدت امرأة ناجحة مستقلة غير عابئة بلغو ماضٍ سعى لتحجيمها وعقولٍ يابسة أرادت لومها, شحذت أسلحتها وانتصبت في مواجهة سرمدية لكل من تخول له نفسه بالوقوف أمامها فكانت ذكية على الدوام, هادئة وقتما أرادت وشرسة عند الحاجة.

والحاجة في قاموسها هي العوز.. عوزٌ لكل ما هو معنوي كان أو مادي, وطالما كانت هي امرأة تنشد العوز!

حماية رجلٍ تحت مسمى زوج, وسطوة آخر اقتحمها دون دعوة فأذعنت في النهاية متباكية على حظها العثر, وأخيراً مساعدة هند التي تشبثت بها كغريق اعتاد العوز!

كانت تراقب ملامحها في المرآة, تبدو مزرية.. هالات داكنة اقتحمت عينيها بدعوى الأرق, وأنف متضخم من كثرة البكاء, وخصلات مشعثة ضاع بريقها وسط تعرق وعبرات وأسى نال حتى من شقرة تاج جمالها..

وآه من لعنة هذا الجمال الزائل, أكان سيشتهيها الرازي إذا لم تكن بجميلة!.. ربما نعم وربما لا فطمعه كان بسبب وحدتها وضعفها قبل جمالها.. امرأة دون ثمن هكذا رآها الرازي وهكذا رآها هذا الذي كان زوجها.. مجرد حشرة وسيتم سحقها وقت اللزوم!

رمقت انعكاس صورتها ببأس وأطلقت للماء العنان لينال من جسدها المتعرق ويزيل أوساخ الماضي من قلبها وعقلها بآن واحد, وأيضاً لتتخلص من تلك البائسة فوق ظهرها فإذا أرادت الحياة فلتكن بكرامة وإلا فالموت وبكرامة أيضاً..

- ريم تطلبك.

مازال يستمع لصدى عبارتها في عقله.. السيدة سلوى تنظر نحوه بابتسامة مترددة وهو.. هو بعدما كان يتوق شوقاً لرؤيتها فجأة تسمرت قدماه وخانته خطواته واقتحمت عقله أسوء الأفكار.. يرفض رؤية انكسارها, ربما ستهرب منه عيناها خجلاً أوخوفاً.. أم أنها ستكره طلته لأنه دوماً سيذكرها بأحلك لحظاتها سواداً..

- رامز.. بني هل أنت بخير؟

كانت الأم تنظر نحوه بعينين مضطربتين وكأنها تنشد في صلابته نجاة ابنتها, هل تدرك كم هي خاوية تلك الصلابة الآن؟!.. بل متهاوية أمام ريم وعبراتها التي لم تجف حتى الآن..

كانت ملامحه وشفتاه مزمومتان يتحايل لاخفاء ارتجافهما وقلبه ينبض شوقاً وغضباً وخوفاً وذعراً من مجرد فكرة فقدانها مرة أخرى..

انتصب ناهضاً بعد حوالي دقيقة من الصمت المطبق ثم أردف بنبرة تصطنع الهدوء:

ـ أنا بخير.. فقط بعض التعب.

أردفت مسرعة لتداري ارتباكها: ـ ريم في انتظارك.. سأذهب لاحضار بعض الشاي من الكافيتيريا.

استوقفها قبل أن تتحرك متخطياه: ـ كيف هي الآن؟

صمتت لوهلة قبل أن تستدر نحوه بابتسامة واهية: ـ بخير.

كانت كاذبة.. كلماتها تنضح كذباً, هي لا تعلم كيف هي ريم, فريم لم تتحدث معها مطلقاً بل رفضت الحديث أيضاً مع الطبيبة النفسية سوى بعبارات مقتضبة للغاية تحمل كلها مدلولاً واحداً كاذباً..

"أنا بخير"

ترك الأم بحيرتها وتوجه نحو الغرفة.. كانت تجلس على الفراش وقد عقصت خصلاتها بإحكام وضمت ركبتيها أمامها مطوقة كلتاهما بذراعيها ومتأرجحة للأمام والخلف دون أن يرمش لها جفن..

تقدم نحوها بخطوات محسوبة ورغماً عنه تعثرت الكلمات في حلقه, شحوب وجهها وجحوظ عينيها كانتا غصة ألم بقلبه.. ودّ بتلك اللحظة أن يفتك بالرازي وجبنائه وكل

من خولت له نفسه بالنيل منها.

همس باسمها بصوت متحشرج: ـ ريم؟

لم تستدر نحوه مما أسقط قلبه بين ضلوعه للحظات يحمد الله أنها لم تدم...

نبرتها كانت بائسة, هي تلك الخشونة التي تقتحم أحبالنا الصوتية دون دعوة معلنة بتكبر عن كتماننا الواهي لطوفان البكاء.. وهي.. هي بالفعل لم تكن باكية تلك المرة وكأنها استهلكت مخزونها الثمين من العبرات.. على وضعيتها محدقة في الفراغ وتمر أمامها ذكرى لوجوه مقيتة ستظل تلازمها بقية العمر..

أردفت ببأس: ـ أريد الخروج من هنا رامز.

تلعثم وتمكن منه الصمت المطبق قبل أن يجيبها بصوت أجش: ـ ريم.. تحتاجين للبقاء بالمشفى بعض الوقت.

استدارت نحوه على الفور وقد لمح بألم عينيها الغائمتين ببحر عبرات ينشد الفيضان فأردف على الفور: ـ ولكن سأسأل الطبيبة.

هربت من لقاء عينيه لتحدق في الفراغ مرة أخرى ثم تابعت: ـ أخبروني أن هاتفي معك.

أجابها وملامحه بدوره تنبض بالألم لاستشعاره الهروب من ناحيتها: ـ نعم.

مدت يدها نحوه لتأخذ الهاتف ورغماً عنه وعنها تلامست أناملهما.. الرجفة لم تنل من قبضتها فقط بل من جسدها بأكمله فانكمشت مبتعدة عنه قاضبة جبينها وكأنها ترفض الملامسة العفوية مع أي رجل..

تنهيدة حارة أطلقها ليردف بعدها في مجازفة حمقاء: ـ لا تتركي له المجال لينتصر.

رمقته بغضب متأجج وكأنه قرر الولوج لمنطقة محرمة ولكنه لم يتزحح بل تابع بنبرة قاطعة: ـ فقط عودي شامخة كما عهدتك.

كان يعي أن مطرقته على سخونة الحديد ستلهب قلبه قبل أن تذيب صلابتها الواهية.. ودون مقدمات ثار الفيضان..

حطام.. وكأنه بتلك اللحظة يواجه حطاماً غير قابل للترميم, ارتجافة شفتيها دمرته..

هذا الثغر المميز الذي طالما تاه في خضم غروره وجبروته ومشاكسته ببساطة تهاوى ومال للأسفل في إشارة مؤلمة لبكاءٍ مرير.. دوي نحيبها قاتلاً...

كيف لرجلٍ مثله أن يحتمل كل هذا!.. فالليالي السابقة كانت ممزقة بين قلقٍ بالغ عليها وحنقٍ من كل لحظة مرت عليها بداخل تلك السيارة.. هواجسه تنتفض كلما خانه خياله مصوراً مشاهد انتهاكها على أيديهم, كان يظن أن صعوبة هذا اللقاء تكمن في مواجهة ذعرها ولكنه الآن يدرك أنه مصاب مثلها تماماً وأن عبرات رجولته قد قررت الخضوع بدورها..

كانت سلوى قد عادت لتوها حاملة كوبين من الشاي الساخن لها ولرامز متمنية أن يكون قد نجح ولو بشكل طفيف في اخراج ريم من تلك البؤرة المخيفة من الصمت.

النحيب بالداخل لم يبشر بخير, فإن كانت تخشى صمتها فالبكاء بدوره مؤلم وبقسوة. تعثرت الأكواب فوق قبضتيها وتذوقت أناملها حرقة محتواها الساخن ولكنها لم تبالِ فما أثار اهتمامها حقاً هذا المشهد المجسد أمامها؛ رامز جاثٍ على ركبتيه أمام ريم وكأنه يتلو قسماً!.. نبرته متحشرجة ونظراته مسلطة عليها في إصرار وريم بدورها باكية.. ضعيفة.. مجرد أنثى مرتجفة ربما تنشد بقربه الأمان ولكنها مع ذلك مبتعدة عنه بقدر استطاعتها.. عيناها تنشد في طلته النجاة وهو.. هو يكرر عبارته بتوكيد لمس نيران متأججة بقلبها تنشد الإنتقام..

"أعاهدك يا ريم على الثأر منه ولكن فقط كوني قوية لتتذوقي نكهته"

أخيراً.. رآها!

يشعر كأنه مراهق ينشد طلة معشوقته, منذ الأمس وهو يتلكأ ساعات أمام شرفتها ودقائق متفرقة أمام بابها عله يلمح قدومها أو خروجها وحالفه الحظ أخيراً..

بتلك اللحظة لم يكن يفكر بشيء سواها, ملامحها تبدو مرهقة وكأنها لم تحظَ بالنوم مثله, وفوق ذلك بدا بعينيها بريقٌ غامض عندما نظرت نحوه..

أهو خوف أم شك أم غضب أم ربما ندم.. لا هي حاجة للاختباء بين ذراعيه, بل هو عشق.

كانت هي بدورها تغوص في وجل من نوع آخر, رؤيته أجفلتها..

أيراقبها؟.. يسعى لمحاصرتها؟..

اقتضبت ملامحها وقررت ببساطة تخطيه فهو من تود الهروب منه وخاصة الآن.

دون وعي أحاط معصمها بقبضته ليمنعها من الرحيل وبنبرة من القلق أردف: ـ سارة!.. ما بكِ؟

ابتلعت غصتها ثم سحبت معصمها من تملك قبضته بألم وتابعت: ـ لو سمحت!

وقف بمواجهتها ليتابع بنبرة حانية: ـ أشعر بالقلق عليكِ.. أين كنتِ بالأمس؟

رمقته بحذر: ـ ولماذا تسأل؟

أجابها برقة ظاهرة: ـ لم ألمحك بالشرفة كما اعتدت ولم ألمح أي أضواء.

يراقبها!.. يترصدها إذاً, أهو جنون عاشق!

بالطبع لا.. كانت تشعر بنبضاتها وكأنها دقات طبول منفردة بلحن صاخب يترجم أسوأ مخاوفِ انتابتها منذ الأمس, تيبست ملامحها لتجبه بنبرة حادة: ـ هذا ليس من شأنك ولا تعترض طريقي مرة أخرى.

قبل أن تنتظر جوابه أو ربما ردة فعل عينيه رحلت, رحلت قبل أن يتمكن منها هذا الضعف الأنثوي الذي يجتاحها فقط أمامه.. وكأن قدرها أن تختبر تلك المشاعر مع رجلٍ قد يكون معذبها الأول لا محالة.. رجل اجتاح قلبها دون هوادة وما زال عقلها يناجيها بيأس..

"افيقي فقد يكون هو مَن استأجروه عشيقاً من أجلك".

أما هو فقد ظل متيبساً بمكانه يراقب رحيلها, بريق عينيه أصبح غامضاً بدوره وكأنه قرر اختبار الخوف والغضب والندم وحتماً تلك النار المتأججة بقلبه التي اشتعلت مع رحيلها القاسي من أمامه.

أخرج جواله وعبث بأزراره ليسطر الكلمات التي طالما انتظرها الطرف الآخر..

"موعدنا بعد يومين قبل منتصف الليل بساعة!"

أفكارها غير مرتبة منذ الأمس.. متدفقة ولكن بأكثر من اتجاه, حاولت بقدر الإمكان محو سيف ومغازلته التي خضعت لها مؤخراً وصبت تفكيرها حول الرازي..

المواجهة مع عاصم اتخذت منحنى آخر الآن ونهج ريم في الاستعانة بعدوه ولملمة بعض المعلومات عن قصة سارة وحملها منه غير كافي.. وأيضاً شهادتها عن تهديد عاصم لسارة بمنزلها ومحاولة الاقتحام بعد ذلك غير كافية.. لا شيء كافي أمام تدبير الرازي, يبدو وكأنه دوماً يسبقهن بخطوة.. كان يعلم جيداً مواعيد عملها ومتى تكون سارة بالشقة بمفردها, وعندها

أرسل من يخلصه منها بل كان يعلم أيضاً أن وقت الحادث ستكون وحدها بالسيارة دون سارة, الهدف لم يكن سارة تلك المرة بل ربما يكون هو من أرسل جموع الصحفيين للبناية لمنع سارة من الخروج واحتجازها وحيدة بالمنزل مرة أخرى..

ولكن لماذا؟ هل سيهاجمها الأحمق بعد أن قدمت بلاغاً بشأنه!!..

انتفض عقلها ذعراً.. المقصود ليس فقط الانتقام منها أو ربما ريم المختفية بدورها.. بل المراد هو عزل سارة وضمان وحدتها.

هناك أمرٌ ما يدبره هذا الرازي ولا يبشر بخير على الإطلاق فمن أجل أن يكسب قضيته يجب أن يحطم أساس القصة ونواة الحكاية وهي العلاقة الآثمة التي أجبرها عليها..

شهقت في فزع وهي تنظر للجملة تتراقص أمام عينيها..

"امرأة سيئة السمعة"

لم يسعفها الوقت لتتوغل في التحليل والتدقيق وكيفية حدوث ذلك فملامح سارة التي ظهرت أمامها في ذات الحين كانت كافية لتنبأها أن المسكينة على أبواب كارثة.

همست بقلق: ـ سارة.. هل أنتِ بخير؟

كانت سارة واجمة بشكل مخيف.. تبدو كمن فقد نفسه وربما كيانه أو أمانه..

احتوت هند أناملها المرتجفة بقلق لتتابع: ـ سارة.. ماذا هناك؟

أردفت بنبرة مكتومة دون أن تتبدل ملامحها: ـ ترددت كثيراً قبل أن أخبرك ولكنني أدركت حماقة أن أحتفظ بأمر كهذا لنفسي.

تبدلت ملامح هند لتردف بقلق: ـ ماذا هناك؟
نظرت سارة نحوها وقد حاولت عبرات ضعفها التسلل من بين جفونها ولكنها قاومتها بصرامة متابعة: ـ سأخبرك بكل شيء.

لا يوقن كم مر عليه من الوقت وهو يتأمل ملامحها, بشرتها الحنطية التي كانت تحرص على ابراز بريقها البرونزي باتقان.. صبغة شفتيها التي اختارت لها بريق الذهب الأحمر وكأنها تبرز دوماً عن قصد شغفها بالمال.. ستظل دوماً وأبداً كاريمان شوقي.. المتباهية بثرائها والمتكئة على نفوذ أبيها دائماً وأبداً..

استدارت نحوه بابتسامة ماكرة لتهمس بنبرة مغوية دأبت على تكرارها في الشهور الأخيرة: ـ لا أصدق!.. هل تتأملني حقاً زوجي العزيز؟!.. أرى أن خليلتك الأخيرة لم ترضِ طموحاتك!

تمعن فيها بغرور من أخمص قدميها حتى رأسها ليبتسم بشراسة متابعاً: ـ هي لا تحتاج للمحاولة كغيرها!

تمكن منها الحنق فاقتربت منه جاذبة ربطة عنقة النصف مربوطة نحوها حتى همست بنبرة قاسية قريبة جداً من ثغره: ـ أنت واهم سيف, فأنا توقفت عن المحاولة ومنذ زمن.

لم يتحرك من مكانه, فقط حل تملك يديها من ربطة عنقه التي كادت أن تتمزق من غيظها ثم تابع ببرود: ـ إذاً ما الجدوى من تلك الزيجة؟

ببأس رمقته ثم أردفت بسخط: ـ تعذيبك!

تخطاها دون حديث ودون أن تُبدي ملامحه تأثراً بحقدها.. التقط سترته ثم توجه نحوها بكبرياء متابعاً: ـ مستمتعة أنتِ بالعرض؟

ضحكة عالية ترددت بأركان الفيلا, غطرستها التي تَحَمَّلها لسنوات من أجل المال والعمل والسلطة والنفوذ وقوة العائلة وهراء تحمله من أبيه تارة ومن أخيه الأكبر تارات عن أهمية تلك الزيجة الغير قابلة للإنهاء.. ابتسم مراقباً سعادتها ثم أردف مكملاً: ـ حسناً كاري.. أرجو أن تنالي ما يكفيكِ من عرضك الممتع في الفترة القادمة لأنه على وشك الإنتهاء.

ألقى بجملته بوجهها وغادر, هو لا يوقن كيف ومتى سيتخلص من قيدها ولكن حتماً وقتما ستصبح له هند سيكون بدوره لها وحدها في الحياة وفي الأوراق أيضاً.

توجه لسيارته قاصداً رؤيتها, يتوق للتشبع من ملامحها وخاصة الآن, فهي فقط من تخلصه من تأثير كاري.. معها يختبر جنون مراهق يعشق مشاكسة معشوقته ورجلٌ يقوده الحنين نحو أنثى لونَّت ماضيه وأيقظت حاضره ولا يتمنى سواها بمستقبله.

كانت سارة قد قصت لتوها ما حدث من زيارة صفاء لها والخبر الذي حملته عند دخول سيف, تجنبت مرة أخرى الحديث عن أدهم فهي لن تتحدث عنه بوجود سيف.

سخر منها عقلها على الفور ناعتها بالحمقاء التي تبحث عن الذرائع من أجله..

ولكنه بدا متأثراً في الصباح من أجلها, استشعرت صدق عينيه والعيون لا تكذب.

حمقاء!!

نحن في زمن أصبحت صبغته الكذب وبطانته الغدر.

قطبت جبينها وكأنها تنشد في قلبها عن جواب تُخرس به عقلها وإلى الأبد!..

غادرت أفكارها على صوت سيف الذي ألقى تحيته على الجميع: ـ صباح الخير.

ابتسمت وأجابته هند بملامح مقتضبة: ـ صباح الخير.

اقترب سيف من هند وتابع بقلق: ـ هند.. ما بكِ؟.. لا تبدين بخير.

صمتت هند لوهلة, كانت غارقة فيما قصته عليها سارة منذ قليل.. أصبحت هواجسها حقيقة وفهمت الآن غرض الرازي من وجود سارة وحدها بالمنزل

استدارت نحو سارة لتتابع بحدة: ـ لا مجال لعودتك للمنزل.

لا تعلم ماذا أصابها, انتفضت لتجيب ببأس: ـ لا!

هند: ـ ماذا!.. أتودين المكوث وحدك مع علمك بما ينويه الحقير من أجلكِ؟!

تنهدت بعمق ثم أجابت بهدوء أثار تعجب هند في المقام الأول: ـ لقد سئمت الهروب يا هند.. ربما أهرب الآن, ولكن ماذا بعد؟.. هل سأقضي بقية عمري في حالة استنفار مما قد يفعله عاصم؟!

فركت هند صدغيها يائسة: ـ سارة.. لا أفهمك.

تجولت سارة ببصرها بين هند وسيف ثم تابعت: ـ حتى وإن كان حكم القضية بصالحي فهذا لن يمنع عاصم من الثأر مني إن أراد.. هند.. لو لم أستطع النوم غدًا حينها سأظل مستيقظة بقية عمري.

رمقتها هند بغضب لتجيبها: ـ غداً شيء وبقية العمر شيء آخر, فهو الآن يسعى لترتيب أوراقه بشأن القضية وأهمها أنتِ يا سارة.

تدخل سيف عندما شعر بلوغارتمية حديثهما بالنسبة إليه فقال موجهاً عباراته لكلتيهما:

ـ مهلاً.. هل لي أن أعلم ما القصة؟

صمتت سارة واستدارت هند نحوه لتخبره ببأس: ـ الرازي يود تشويه سمعة سارة, سيستغل وجودها بالمنزل وحدها وسيرسل لها أحد الرجال وبعدها زوجها السابق ليبدو الأمر كأنه....

صمتت هند وعندها استنبط سيف بقية الخبر خاصة مع تخضب وجه سارة بحمرة الحياء

زفر بيأس ثم تابع: ـ حسناً فهمت, ولكن كيف علمتما بهذا؟

هند: ـ زيارة غريبة من زوجة الرازي لسارة.. فيما يبدو قررت تحذيرها.

سيف: ـ غريب!

قاطعته سارة: ـ لا ليس بغريب فهي امرأة حسنة المعشر ولا تشبه زوجها في شيء.

رمقها سيف بنظرة فاحصة: ـ إذاً تصدقينها؟

توترت سارة لوهلة غير مدركة لغرض سيف ثم أجابته: ـ نعم.

ابتسم سيف ساخراً فعندها تنبهت هند لمقصده فأردفت: ـ هل تقصد أن مجئ صفاء قد يكون لعبة من الرازي؟

سيف: ـ لم لا؟!

تملكت الدهشة من ملامح سارة فقالت: ـ ولكن لماذا؟.. ما وجه الإستفادة؟

سيف: ـ لا أعلم.. ولكن إن كانت لعبة فلهم غرض, وتركك للمنزل سيكون أولى خطوات تحقيقه.

هند: ـ وإن لم تكن لعبة؟

سيف: ـ عندها سيصبح وجود سارة بالمنزل وحدها كارثة ومجرد انتظار لما هو محتوم!

أغمضت سارة عينيها في ألم ثم تمتمت: ـ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

ابتسم سيف بثقة: ـ بالطبع.. ولكن علينا أن نسعى بدورنا أيضاً للنجاة.

رمقته سارة بحيرة فتابع بنبرة مطمئنة: ـ أستطيع تدبر أمر حمايتك بالمنزل.

انفرجت أسارير هند لوهلة: ـ حقاً!.. كيف؟

سيف: ـ سأكلف حارسين من إحدى شركات الأمن بمراقبة البناية بالتوالي ولو استشعرتِ أي خطر, ما عليكِ سوى الاتصال المباشر على أحدهما وسيكون أمامك بلمح البصر.

بدت ملامح هند يائسة وكأن حل سيف لم يرضها فتابعت: ـ أنا أفضل رحيلها عن المنزل.

رمقها سيف بابتسامة حانية: ـ أستشعر القلق الشديد منكِ وأقدره, ولكن إذا ما غادرت سارة المنزل للمكوث بفندق أو ما شابه قد يكون بالضبط ما يسعى إليه عاصم.. وما يخططه لها يستطيع القيام به في الفندق وربما بشكل أسهل.

زفرت هند بضيق ثم تابعت بنبرة قاطعة: ـ إذاً لا مجال.. يجب أن أعود معكِ.

قاطعتها سارة على الفور: ـ لا.. لم أخبرك بهذا حتى تتركين المشفى لتعودي معي.

هند: ـ لا سبيل لتركك وحدك الآن خاصة مع اختفاء ريم.

سارة: ـ وأنتِ لا يمكنك مغادرة المشفى بتلك الحالة.

ابتسم سيف وهو يراقب نزاعهما الأخوي ثم تابع موجهاً حديثه لهند: ـ أقدر تضحيتك هند ولكن حقاً خروجك من المشفى الآن صعب للغاية.

زفرت هند: ـ أراه الحل الوحيد.

سيف: ـ بل هناك حلاً آخر.

هند: ـ الحارسان؟

سيف: ـ هو الأفضل.. وبعد إذنك سارة, سأحضر لكِ من يقوم بإضافة بعض الأقفال لأبواب الشقة إن أردتِ.

هند: ـ لقد قمت بهذا بالفعل بعد الحادث, مرور شخص من الباب دون أن تسمح له سارة يكاد أن يكون مستحيلاً.

سيف: ـ حسناً.. سأهاتف شركة الأمن وأرتب الأمر.. لا تقلقا ستكون حماية أربع وعشرون ساعة.

زفرت هند لتتابع بيأس: ـ أتمنى.

أما سارة فقد شردت متفكرة بعبارة هند.. "مرور شخص من الباب دون أن تسمح له سارة يكاد أن يكون مستحيلاً"

إذاً من أين سيدخل إن أراد..

الشرفة؟!!

كان قد غادر المشفى لتوه بعد أن نبه على الطبيبة أن لا تكترث بصلابة ريم الواهية أمامها, غضب من كذبه بشأن محادثة الطبيبة ولكنه كان على ثقة بعدم جواز خروج ريم من المشفى اللآن رغم الهدوء الذي انتابها في نهاية الحديث بينها ورغبتها في محادثة سارة..

راقب عبثها بالهاتف ولكنها لم تجري المحادثة بل ارتجفت يداها بتردد وتصلبت أناملها على شاشته المضيئة وكأنها تتفكر في المعضلة الأصعب.. "ماذا ستقول؟"

اعتادت ريم الإنصات بحكم عملها؛ تستمع لمشكلة هذا وكارثة تلك, تكتب بحماس عن شجاعة من يواجهن هجوماً مثل التحرش أو الإغتصاب ويقصصن مأساتهن بعد ذلك بل هو يعلم جيداً أنها هي من شجعت سارة على الحديث وأمطرت عقلها بعبارات تحفيزية عن الحقوق والواجبات والمجتمع والمرأة و... و.... و....

ولكن ها هي الآن بدور الضحية لتوقن صعوبة الأمر ولن ينقذها منه سوى تخطيه ومواجهته كما نصحت سارة.

ألقى نظرة أخرى على هاتفه قبل أن يقوم بالاتصال المنشود.. لم يتصور أنه قد يلجأ لامرأة مثلها ولكن تتعدد السبل والأهداف أيضاً وهذا السبيل الذي يود سلكه لن يعينه عليه سواها..

أجابت بغنج: ـ رامز!... لا أصدق!!

تنهد مجيباً: ـ كيف حالك شوشو؟

ضحكت: ـ كما هو.. أنت كيف حالك هل قررت ترك صحيفتك الحمقاء؟

رامز: ـ ليس بعد.

أردفت: ـ مكانك ليس هناك, رامز.

ابتسم ساخراً: ـ نحن نتصيد المتاح فقط ألا تتذكرين!

تنهدت ببأس: ـ بالطبع أتذكر, ولكن أتذكر ما قلته أنت.. دوماً هناك اختيار.

صمت لوهلة ثم أردف متابعاً: ـ شوشو.. أريد منكِ خدمة.

ابتسمت: ـ أنت تأمر رامز, فما فعلته معي دين لن أقوى على سداده.

رامز: ـ ليس دين مجرد خدمة.

شوشو: ـ كلي آذان صاغية.

صمت لوهلة ثم تابع بنبرة بائسة: ـ حسين سلطان... طبيب الفضائح!.

همست: ـ ماذا تريد؟

أردف بقسوة: ـ فضيحة!.

أنهى المكالمة وهو يتفكر في تلك الخطوة التي قام بها منذ قليل, هل حقاً الغاية تبرر الوسيلة؟..

أم أنه سأم دور الضحية بدولة الغاب التي ابتدعها من يظنون أنفسهم بسباع وهم ليسوا بأكثر من ضباع متعطشة للافتراس وليس أكثر..

هل ستنتفض الغزلان لتعلن بتحدي عن بأس الضعفاء؟..

ربما...

ولكن المؤكد أن صاحب الدهاء هو من ينتصر في النهاية وكما يقولون فالغاية تبرر الوسيلة ومع رجل مثل حسين سلطان لا توجد أمامه سوى تلك الوسيلة.

تنهد وهو يتذكر معرفته بشيماء, إحدى فتيات الليل اللاتي اعتدن بيع أجسادهن بظلمة الليل ورسم مظهر العفاف بالصباح.. كادت أن يتهاوى عالمها عندما التقطت لها جريدته صورة وهي تتوجه لمنزل فنان شهير غرض التشهير به.. يومها توسلت له ولصاحب السبق ألا يفضحاها فعائلتها ربما تعاني مرارة الفقر, تتغاضى عن تجاوزات منها ومن شقيقتها ولكن حتماً سيقتلوها إذا ما جلبت لهم هذا العار!

إنها الإزدواجية يا سادة التي تفشت بعالم الكبار فحفظها الصغار عن ظهر قلب..

ليلتها قرر رامز تقمص دور المصلح الاجتماعي متهادياً بعبارت النصح والإرشاد ولكنها أجابته بنبرة حاقدة: ـ نحن فقط نتصيد المتاح.

وعندها أجابها: ـ دوماً سيكون هناك اختيار

ولا يعلم أي طريق سلكت ولكنه يعلم أن خطته لن ينفذها أحد سواها وإذا ما تمت فستكون أولى الضربات فوق ظهر الرازي لا محالة.

الفصل التاسع عشر

مر يومان على زيارة زوجة الرازي, يومان ولم يحدث شيء.. بعد.

طالما تساءلت أيهما أقسى, وقوع البلاء أم انتظاره !

زفرت بضيق وهي تراقب النافذة مستعيرة لنفسها بعض الاطمئنان الواهي من تلك السيارة السوداء الرابضة أمام المبنى.. أخبرها سيف أن تتصل بالحارس على الفور إذا ما شعرت بأي خطر وستجده عندها بعد ثوانٍ معدودة, مجرد ثوانٍ ليس أكثر ولكن قد تحمل الكثير.. قد تتصلب قدماها في ثوانٍ أمام مقتحم ظهر من العدم, وقد يتمكن منها في ثوانٍ قبل أن تفكر حتى في الهروب, وقد ترتجف أناملها فوق زر الاتصال وتضيع النجدة وتضيع هي وإلى الأبد.

ضوء الشمس المتسلل بخفة من بين ستائر النافذة أيقظ ارتجافة ثغرها واصطدم بأنفاسها المتهدجة فيما يبدو على الدوام, أغلقت الستائر وكأنها دون وعي تهرب من ضياء يحمل الصواب ألا وهو ذعرها المكتوم..

كانت تتمتم بتكرار مُلّح.. لا تخافي.. لا تخافي, تتذكر بريق عينيه آخر مرة, تملك قبضته من معصمها وشوق نبرته نحوها..

لا تعلم هل هي خائفة منه أم من ضعفها نحوه؟

تباطئت أناملها فوق عنقها بُغية تمسيده علها تتخلص من تشنج تلك العضلات التي أبت الارتخاء منذ البارحة, سهاد ليلها الذي قضته متقلبة فوق وسادتها تنتفض ذعراً كلما استمعت لمواء قطة أو خرير متقطع لصنبور

مياه تجهل مصدره.. عجيبٌ أمر هذا السكون كلما توغلت به أدركت أنه يحمل صخباً سيوقظ جنونها لا محالة.

رنين الهاتف أجفلها وتناثرت القهوة الساخنة حول الكوب بشكل فوضوي لم تعتده, ابتسمت ساخرة فهند هي المتصلة بالتأكيد وهي تخلت عن سكينة مشروب الياسمين واعتادت قهوة هند المنبهة للحواس, حواسها التي انتفضت جميعها في لحظة واحدة عندما لمحت رقم المتصل...

كانت ريم.

محدقة لهاتفها بثبات, تتلكأ أصابعها على الأسماء لتتوقف أمام اسم سارة.. المرأة التي أجبرتها على المواجهة, قذفت بها لنزال أصبحت لا تعي عاقبته وحمَّلتها ما لم تستطع هي مواكبته!

المحقق الذي تاه وسط عباراتها المشوشة, الارتجاف الذي تمكن من جسدها والعرق الذي تصبب من جبينها وكأنها التجأت لسلوك بيلوجي لتمنع نفسها من الحديث, أن تصف وتشرح كل شيء.. أن تتوغل في أسوء مخاوفها الملموسة وتمر بكل ما حدث من جديد وتتصور كل ما كان يمكن أن يحدث.

يالها من قسوة.. أن تتعرض للذبح ثم يُطلب منك أن تكرر الأمر, تجبر لسانك على سرد انتهاكك مرة تلو الأخرى!

عَبرة قاتلة تلك التي هربت من عينيها, ضغطت على زر الاتصال وأمسكت بالهاتف بوهن لتضعه فوق أذنها لتصمت لوقت ليس بقليل قبل أن تهمس بصوت منكسر:

ـ آسفة.

كانت سارة قد عادت لتلحق بركب دقات قلبها المتقافزة بعد لحظاتها الخاصة من الذهول ولكن قبل أن تقذف بمكنون قلقها وتصوراتها وهواجسها تصلبت شفتيها وغابت الكلمات عن عقلها وهي تستمع لتلك النبرة الشجية وهذا الإنكسار الذي لم تعتده من تلك المتمردة من قبل ألا وأولها هذا الاعتذار المبهم بالنسبة إليها..

حملقت سارة في الهاتف وكأنها تود التأكد من صاحبة الصوت ثم أعادته لأذنيها مرة أخرى متمتمة برهبة: ـ ريم!!.. ماذا هناك وأين كنتِ طوال الفترة الماضية؟

غصة الحلق مؤلمة.. قاسية.. تحمل نكهة دقائق بلون الموت, دقائق بدلت عالمها وأسقطت قناع الرجولة الذي طالما ارتدته لتدرك أنها مجرد أنثى..

زفرت بألم.. فسارة هي من على الهاتف.. سارة التي أجبرتها على قص كل شيء وعلى العلن.. سارة التي واجهت طوفاناً من القهر والظلم والعدوان وما زالت صامدة تصلب عودها الضعيف أمام اعصار يود أن يبتلع الجميع دون هوادة.. كان هدير أنفاسها هو صاحب الحضور ولكن الصوت غاب.. غاب كما غابت أشياء كثيرة عن دنياها الآن وكأنها امرأة أخرى.. خاضعة.. ضعيفة.. أم ربما بقايا أنثى..

طال الصمت وزاد القلق وصرخت سارة: ـ ريم.. ماذا هناك؟.. هل أصابك مكروه؟.. هل آذاكِ عاصم أنتِ الأخرى؟

وكأن سارة عن غير قصد أيقظت بداخلها إحدى حواسها التي ربما افتقدتها بالأيام السابقة حيث كانت تسبح وحدها في غيمتها الخاصة من الأسى ألا وهي الإنصات, فحتى وعد رامزها العنتري لم تستطع أن تتشبث به ورغماً عنها رفضت الغوص بتفاصيله, مر بعقلها ككلمات مبهمة الخلاص سيكون في رفضها لهذا الأمل لأنه ببساطة لن يستطيع!

الشر ينتصر.. انتهت الرواية.

هكذا ستسطر آخر حروف القصة.. أو ربما هكذا قررت قبل أن تستمع لصوت البطلة, هي بطلة عرضها بالإكراه ونجمة الموسم دون اختيار ولكن رغم كل شيء نبرتها بها لمحة من الأمل!

وجدت نفسها تسألها بقلق: ـ أنا الأخرى؟!.. ماذا حدث؟

أردفت سارة بحزن: ـ هند في المشفى لقد دبر لها الحقير حادث سيارة.

صمتت, مرة أخرى هي بدائرة الصمت.. الإنتقام كان جماعياً, محاولة لقتل هند ومحاولة لإذلالها وربما قطع رقبة كل من يفكر في معاونة سارة.. بريق افتقدته اجتاح عينيها,

هي محاولة قاسية للتهديد, للتفريق, قطع جوانح سارة لتعود مرة أخرى وحيدة.. راكعة.. خاضعة لما هو أقسى من الإنتقام.

وجدت نفسها تنتفض من فراشها متخيلة ما قد ينوي عليه عاصم لسارة بعد فعلته الحقيرة معها, زعقت: ـ سارة هل أنتِ بخير؟.. هل أصابك مكروه بدورك؟

أجابت سارة ببأس: ـ أكثر مما أصابني بالفعل!

تنهدت ريم لتردف بحزنٍ طاغٍ: ـ نعم سارة هناك ما هو أكثر.

أردفت سارة بحزن مماثل: ـ أعلم.

صمتت ريم مرة أخرى ليس عن قصد ولكن بسبب تلك العبرات التي خانتها لتنهمر بقسوة سوط ملهبة وجنتيها, أردفت بصوت مبحوح: ـ تعلمين؟!.. هل تعرض لكِ الحقير؟

ابتسمت سارة ساخرة: ـ من جديد؟.. ليس بعد!

ريم: ـ تبدين مختلفة سارة.

سارة: ـ وأنتِ أيضاً وتُصرين على اخفاء ما حدث.. أثق أن شيئاً ما حدث ريم.

ارتجفت أناملها الممسكة بالهاتف وزاغت عيناها بين ذكرى فائتة وعبرة حالية وأبت الكلمات أن تغادر شفتيها فاهتزتا دون معنى منبأتين بنحيب مضنٍ.

شهقت سارة: ـ ريم.. ماذا حدث؟!

كانت ريم تسحب الهواء لرئتيها بصعوبة بالغة وكأن ذراته أبت عليها الراحة, إن كانت ستفرغ بمكنونها لأحد فلن تكون سوى سارة ولكنها لا تستطيع,

خانتها المقدرة على الحديث.. تحاول ولكنها ببساطة تعجز عن المضي فيما تريد..

خرجت منها بصعوبة جملة واحدة قالتها بعد تردد: ـ أنا بالمشفى.

لم يتمكن من سارة الإنهيار كما اعتادت دوماً, بل تلبستها قوة احتمال هي نفسها لم تدرك كيف ومتى, أجابتها بثبات: ـ اعطني العنوان.. أنا قادمة إليكِ.

الوزر, هذا الحمل الثقيل الذي يظل يؤرق منامك ويغذي ليالي سهادك..

ألا تفهم عقولهم معناه!.. ألا تدرك قواميس دنياهم ماهيته!.. أماتت ضمائرهم وتعفنت تحت أطنان التراب فلم تعد تدرك وجوده!

شعرت أن رأسها قد وصل لدرجة الغليان, هو ليس برأس الآن هو مرجل متأرجح فوق شعلة من اللهب تُغذي كل ما يحتويه من جنون, جنون يضاهي جبروت هذا الذي عاث في دنياها فساداً, البداية كانت هي ونالت هند من بأسه ما كاد يودي بحياتها وريم..

ريم واجهت مستنقع حقارة أجساد غادرتها العفة ومنذ زمن.. ريم التي تلبست هيئة الصلابة فقط لدقائق عند رؤيتها وتهاوت بعد أول سؤال, بكاؤها ونبرتها المتحشرجة كانا يتفوهان دون حديث بالحقيقة البينة..

أنتِ فقط من ستُقَدِّر آلامي.

احتضنتها.. هدهدتها كأم, تلك هي المرة الأولى التي تشعر فيها بواجب العطاء أم ربما أريحيته.. لا تعلمان كم مر عليهما من الوقت؛ سارة محتضة

جسد ريم الهزيل مملسة على خصلاتها بحنان أمٍ على وليدها وريم ساكنة كحمل وديع ترتسم على شفتيها ابتسامة شجية وكأنها تخلصت للتو من حمل ثقيل كاد أن يسحق ضلوعها وبنفس

الوقت تعاني من عذاب مواجهته..

همست بنبرة مبحوحة بعد صمت طويل: ـ آسفة.

ابتلعت سارة غصتها محاولة منع عبراتها من الانهمار: ـ مرة أخرى تعتذرين!

همهمت بوهن: ـ لم أُقَدِّر ما مررتِ به من عذاب وأجبرتك على...

وضعت سارة كفها الصغير برقة على ثغر ريم لتمنعها من استكمال الحديث ثم تابعت بابتسامة هادئة: ـ قدر الله وما شاء فعل.

رفعت ريم رأسها لتنظر نحو سارة بإعجاب: ـ أنتِ قوية سارة.. ليتني مثلك!

تنهدت سارة لتتجول في الغرفة ببصرها المشوش بتلك العبرات المحتبسة ثم تابعت بنبرة بائسة: ـ لقد حاولت الإنتحار ريم.. مررت بأحلك لحظاتي سواداً وأنا أتذكر تلك الليلة وشناعتها وما تبعها بعد ذلك, ليتني تحدثت بحينها.. ليتني قذفت بهمومي فوق كتف أحدهم من البداية.. لولا رحمة الله بي وظهور هند لخرجت من الدنيا محمولة على أكفف وزر يفوق احتمالي ألا وهو إزهاق روحي.

احتضنت ريم كفي سارة المرتجفتين لتتابع بنبرة باكية: ـ قدر الله وما شاء فعل.

رمقتها سارة بآسى ثم احتضنتها مرة أخرى لتهمس بدورها: ـ آسفة فكل ما مررتِ به بسببي.

زفرت ريم بألم ثم أبعدتها عنها بحنان لتحيط وجنتيها المبللتين بالعبرات التي استطاعت الهروب من محجريها أخيراً لتردف: ـ لسنا نحن من يجب علينا الاعتذار.

ابتسامة بائسة علت ثغر سارة الباكي لتتابع بسخرية: ـ وهل سيكفي الاعتذار ريم؟!

بسخرية مماثلة أجابتها: ـ بالطبع لا.. ولن نحصل عليه ولا نريده.

جففت سارة عبراتها متابعة: ـ الوقت يمر وموعد المحاكمة اقترب ونحن لا يوجد لدينا سوى كلمات مبعثرة لم أعد أوقن جدواها!

رمقتها ريم بثقة عادت لتوها لتحتويها من جديد ثم تابعت: ـ لدينا بعضنا البعض وهذا ما حاول البغيض هدمه.

ابتسمت سارة بأمل: ـ ولم ينجح.

تأملتها ريم بحنان: ـ بالطبع لم ينجح بل انقلب السحر على الساحر!

سألتها سارة بدهشة: ـ ما قصدك؟

أغمضت ريم عينيها لتتابع بسكينة: ـ دعينا لا نستبق الأحداث فقط لنتمسك بالأمل.

شردت سارة في كلمتها.. الأمل!..

الرجاء الذي ينتفض بين ضلوعها منذ أن اجتاحها الشك نحوه, ليته يكون مجرد عاشق.. هذا الذي يتبدل حالها في حضوره , تخونها نبضات قلبها

فتتسارع متقافزة باتجاهه وتتمنى لو توقف العالم أمام بريق عينيه ويتهاوى الزمان والمكان ولا يبقى بصحبتها سواه..

ليته يكون مجرد عاشق.

أجفلتها ريم: ـ سارة.. ما بكِ؟

تلعثمت: ـ لا شيء.

ريم بإصرار: ـ بل هناك شيء

ابتسمت بارتباك: ـ هذا ليس بالوقت المناسب.. استريحي.

الملامح متناقضة مع الحديث, شعرت ريم أن سارة تخفي شيئاً, وشيء ليس هيناً بالمرة.. بنبرة قاطعة تحدثت: ـ ستخبريني سارة, والآن.

تنهدت سارة لتردف بتردد: ـ حسناً.. سأخبرك كل شيء.

ومرة أخرى قصت سارة ما حدث من زيارة صفاء وخطة عاصم وزادت عليها مساعدة سيف والحارس الرابض تحت البناية, تحسست ريم جبينها ثم زفرت بدهشة: ـ يا الهي!.. لقد حدث الكثير.

أردفت سارة بضيق: ـ هذا الرجل لن يتوانَ عن ايذائنا كلما أُتيحت له الفرصة.

زمّت ريم شفتيها: ـ معكِ حق..

تابعت سارة في استعداد للرحيل: ـ حسناً يجب أن أذهب.. سأمر على هند لأخبرها بظهورك ثم أعود للمنزل علّني أحظى بقدر من النوم.

أوقفتها ريم لتردف بثقة: ـ لن تحظِ بالنوم سارة.. لا تخدعي نفسك.

ابتسمت سارة بارتجاف: ـ الهروب ليس بحل.

أكملت ريم بثبات: ـ التقهقر في الحرب فن.. فقط يجب علينا اجادته.

تأملتها سارة لوهلة قبل أن تتابع بتردد: ـ وأنا لا أجيده!

بإيماءة أجابتها ريم: ـ كلنا نتعلم.

شردت سارة مرة أخرى فقطعت ريم شرودها على الفور: ـ هل لديك بذرة شك بأحدهم؟

همهمت سارة بارتباك: ـ ماذا؟!

رمقتها ريم بتفحص: ـ العشيق المنتظر.

صمتت وطال صمتها, لم تستطع أن تحتفظ بالأمر أكثر من ذلك.. تشعر أنها تتقدم بخنوع نحو هاوية من صنعها تلك المرة, أجابت بعد سكون مؤلم: ـ نعم.

كانت عينا ريم تنتفض بالسؤال: ـ من يكون؟..

تجمدت عبراتها.. يخونها لسانها ويأبى ذكر اسمه بل, هي الخائنة التي ستلوث حروف الرجل الوحيد الذي عشقته لمجرد شك!

صمتت مرة أخرى, تملكت الدهشة من ريم.. زعقت: ـ سارة.. من يكون؟

ببأس واجهتها: ـ لست متأكدة بعد!

أردفت ريم: ـ سارة سؤالي عن بذرة شك.

تبدلت ملامحها, غادرها الاقتضاب وبدت أكثر سكينة.. أردفت: ـ أشعر أنني مخطئة, ولا أود أن أظلم أحداً.

ربتت ريم على كتفيها لتجيبها بنبرة حانية: ـ حسناً لن أجبرك على الحديث, ولكن سأجبرك على الرحيل!

تفاجآت بكلماتها, أردفت متسائلة: ـ ماذا؟!

بملامح حادة كان جواب ريم: ـ ستغادرين منزل هند الليلة وليحضر عاصم لكِ هذا العشيق مع فتاة وأمها إن استطاع!

لم تفهم سارة مقصد ريم ونطقت ملامحها بحيرتها فأردفت ريم بابتسامة: ـ سأكون هنا بانتظارك وأمي وسنقضي ليلتنا بمنزلي.. يا الهي كم سئمت هذا المكان.

أردفت سارة بتردد: ـ ولكن..

قاطعتها ريم بحدة: ـ هل تودين تجربة ما مررت به سارة؟!

بدت نبرتها متحشرجة وكأنها ستفجر في البكاء من جديد, احتضنتها سارة على الفور لتهمس بدورها: ـ آسفة.

تابعت ريم ببأس: ـ سأنتظرك في المساء.. وتذكري التقهقر فن.. فقط دعينا نحاول إتقانه.

وحيداً بمكانه المفضل على ضفاف نيل القاهرة يراقب أصحاب المراكب العائمة وهم يتحضّرون ليوم آخر ومشقة أخرى مع ساعات الليل حيث تتزين

أخشابهم البسيطة بأضواءٍ مبهرة وينطلقون في المياه المظلمة كصندوق موسيقي صاخب يخترق ظلمة النهر بجلبة فيتملكه ظناً واهياً بأنه قمر مضئ, ولكن بمجرد أن يمر بجانب أحد البواخر الحقيقية يُدرك ضآلته, تواضع امكانياته وبساطة هيئته..

وأنه قد يكون قمراً ولكن حتماً سيبقى لا شيء أمام طغيان الشمس.

شعر بتلكأ خطواتها بجانبه لتهمس بدلال امرأة منتصرة: ـ لا تستهن بتلك الصغيرة, فروعة قوتها تكمن في حجمها الضئيل!

كانت تشير لأحد القوارب الصغيرة الذي أوقعها حظها العثر في المرور بجانب الكروز الفخمة التي كانت بدورها تتأهب للإبحار, صعيدي أسمر اللون يزعق بكلمات مبهمة ويجاهد هو وزميله لابعاد غاليتهما المتهالكة عن بطش الكروز العائمة.

ابتسم بثقة ليردف بصوت أجش: ـ أعلم.

تثائبت بعد أن أودعت بيديه غنيمتها الثمينة: ـ لا أعلم لماذا كلما نظرت لمياه النيل شعرت بالنعاس!

ابتسم وهو يتحسس بأنامله محبوبته الصغيرة التي وفرت له منذ دقائق صيداً ثميناً ليردف: ـ كما طلبت منك شيماء؟

اتكأت بمرفقيها على السور لتولي ظهرها للمياه العذبة وتتابع وهي تراقب جنون السيارات المتزاحمة على الطريق: ـ بل أكثر!

رمقها بنظرة متفحصة فتزين ثغرها بابتسامة ماكرة لتردف: ـ أخبرتني أن الأمر ليس من أجل النشر.

أعاد النظر للكاميرا الصغيرة بقبضته ثم أردف بابتسامة متحيرة: ـ إذاً؟

استدارت نحوه لتتابع بشراسة: ـ مسجل لديك الاتفاق كما طلبت وزاد عليه التنفيذ.. فبتلك الآلة الصغيرة دقائق ثمينة للطبيب الغالي وهو يجري الجراحة المتفق عليها.

جحظت عينا رامز وظل صامتاً لوهلة غير مستوعب ما سردته الفتاة لتوها ثم أردف بوجه مشرق: ـ كيف تم هذا؟.. وكيف حصلتِ..

قاطعته: ـ لدي الفتاة والسبب والطبيب والكاميرا والفرصة لأكون معها بغرفة العمليات وقمت ببساطة بإستغلالها!

ابتسمت وهي تقوس ظهرها للخلف مُحَرِّكة عنقها في إشارة واضحة لما تعانيه من إرهاق لتتابع: ـ فقط قم بإستغلالها جيداً رامز, فما دمت لا تود النشر فأنت تسعى لا محالة لمساعدة أحدهم.

تأمل رامز الكاميرا الصغيرة بتأثر وهو يتصور ردة فعل حسين سلطان عندما يعلم بمحتواها ثم تابع: ـ أسعى لإظهار الحق ولكن لا يوجد لدي سبيل سوى نهجهم.

نظرت نحوه بإعجاب لتردف بنبرة متحدية: ـ أثق بنبل هدفك ولكن لتكن تلك هي المرة الأولى والأخيرة فلن تستطيع التملص من تأثيره إن اعتدته.

لم تنتظر جوابه فقط ألقت بدلوها وتركته, أما هو فابتسم برضى ليعود لمراقبة النهر الهادئ وابتسامة الصعيدي وصديقه بعد نجاتهما من سطوة الباخرة العملاقة ويهمس بتحدي: ـ أعدك.

كانت الساعة قد تعدت العاشرة مساءاً بقليل, رمقت بعض الملابس التي قامت بتوضيبها والحقيبة التي أعدتها والمنزل الذي استعدت لمغادرته وأطرقت رأسها في شرود.

على الرغم من قصر المدة التي قضتها هنا وعلى الرغم من أنها كادت أن تفقد حياتها بهذا المكان إلا أنها تعشقه.. تشعر أنها هنا ولدت من جديد, استنشقت نسيم مختلف أيقظ بداخلها الحياة والأمل والحب والرغبة والخوف على المستقبل..

استيقظ عقلها وشهدت ميلاد شعور لم تتصور أنها قد تحظى به بعد كل ما مرت به ألا وهو العشق..

تركت الحقيبة وتوجهت للشرفة علها تلمحه!.. رفضته منذ يومين واختفى بعدها وعانت هي ويل بِعاده.. كل دقيقة تمر تخبرها بأنها ظالمة فمعشوقها الغامض انسحب ببساطة ليصفعها بالحقيقة التي تتمناها.. هو ليس بمتآمر ورحيلها ربما ليس ضرورياً.

نعم ستهاتف ريم وستخبرها أنها ستبقى.. أي نعم ستقتلها هند التي ثار جنونها بمجرد أن علمت ما أصاب ريم ولم يثنها عن ترك المشفى سوى وعدها لها أنها سترحل وستمكث عند ريم كما اتفقتا, ولكن لا.. هي لن تهرب وأدهم ليس بخائن.. بل سيحميها!

نعم يسيظهر من أجلها وقت اللزوم..

همست وهي تنظر شرفته الفارغة..

"أحبك."

الطرقات على الباب أثارت انتباهها, أسقطت الحقيبة وهربت منها عبرة مؤلمة.. لا تعلم أهو خوف أم ذعر أم قلق أم شعور قاسٍ بقرب النهاية..

تهاوى قلبها عندما لمحت صورته خلف العين السحرية.. انتفضت هواجسها واستيقظت آلامها مع ظهوره وما زاد عذابها هو ذلك الخوف الذي انتابها مانعاً إياها من فتح الباب..

بعد دقائق بدت بطول الدهر واصرار من الطارق أجابت بوهن: ـ مَن؟

كان صوته أجشاً.. صارماً: ـ إنه أنا.. أدهم.

كانت تبكي, نبرتها مبحوحة.. مؤلمة قاست لتخرجها من مَعقلها: ـ ماذا تريد, أدهم؟

بدا غاضباً: ـ افتحي, سارة.. أريد منكِ خدمة.

سارة: ـ أي خدمة؟

أدهم: ـ سأخبرك عندما تفتحين الباب!

فقط هي وهو وحاجز خشبي هو قادر على اختراقه إن أراد..

ظلت صامتة.. مترددة, تكره صَرفِه وتخشى أن تتحطم صورته أمامها إذا ما مهدت له السبيل لذلك..

اقترب من الباب حتى التصق صدره بدفء أخشابه.. همس: ـ أرجوكِ.

كانت مستندة بظهرها على الجهة الأخرى تقاسي ما فوق احتمالها, لا تراه ولا تشعر بتلك القبلة الدافئة التي لثم بها الحاجز بينهما.. قبلة تحمل اشتياقاً

واعتذاراً ولهفة لأيقونة نكهة الياسمين بعالم رجل اعتاد الظلمة حتى بنسمات الهواء.

ابتعد لخطوات عندما سمع صوت المزلاج.. كانت هيئتها مُهلِكَة؛ عيناها التي غابتا بطوفانٍ من عبراتها الساخنة, ووجنتاها اللاتان تخضبتا بحُمرةٍ لا يعي أهي بسبب البكاء أم بسببه أم كلاهما..

ما آلمه أكثر هو خوفها منه؛ فبابها لم يكن مفتوحاً من أجله.. فقط مواربة بسيطة تنشد في صلبة سلسلة معدنية حمايتها..

همست بضعف: ـ ماذا هناك؟

لم ينطق.. فقط ظل يتأملها بملامح متيبسة.. هي ربما لا تفهم ما يدور بعقله ولكن هل يدرك هو!.. هل يدرك كم قاسي بكائها وقاتلة عبراتها!

نطق أخيراً بصوت مبحوح: ـ أود أن أستعير منكِ بعض الدواء.. مُسَكِّن للصداع.

بدت على ملامحها الصدمة, أردفت: ـ مُسَكِّن!

لم يحد ببصره عنها ولم يرمش له جفن على الرغم من اضطرابه, تابع بثقة واهية: ـ نعم لو سمحتِ, فأنا أشعر بصداع قاتل والصيدلية لا تجيب الهاتف.

ظلت واجمة تتأمله, تشعر أنه كاذب ولكن.. لا ملامحه تبدو منهكة بحق أو ربما هذا ما تريد أن تصدقه.. تراجعت للخلف لتحضر له ما يريد..

لم تغلق الباب ولم تفتحه.. سيظل بابها حائراً مثلها تماماً!.

توجهت لغرفتها تبحث له عن الدواء وعادت...

وشهقت وفزعت وتألمت وتناثرت العلبة بمحتوياتها تحت قدميها..

همس بجانب أذنيها مكمماً فمها الصغير بقبضته: ـ لا تتركي أبداً بابك مُوَارِباً سارة وخاصة مع رجل مثلي!

لم تقوى على الصراخ ولم يعطيها هو فرصة.. وفي لحظات غابت عن الوعي.

بالموعد المتفق عليه كان أمام البناية..

تأمل المكان بتكبر ليُحَدِّث نفسه ساخراً: ـ حسناً سارة.. يبدو أننا سنتقابل من جديد, ولكن بموقف لن يسعدك مطلقاً!

كما اتفق معه عاصم؛ الباب نصف مغلق والمكان هادئ, والضوء الخافت المنبعث من غرفة النوم يوحي بجلسة حميمية سيكون هو مُفسِدَها لا محالة..

رغم كل شيء شعر بغضب جامح يعتريه فهو على وشك أن يضبط من كانت زوجته برفقة آخر.

تحرك بخطوت محسوبة ودفع الباب بحرص وقبل أن يستوعب المفاجآة وقبل أن يدرك أن الضوء الخافت لم يكن سوى بداية لشعلة من النيران انتشرت بسرعة البرق لتلتهم الفراش بأغطيته فوجئ بمن يسحبه من الخلف وانتابه الهلع من الهرج والمرج وأصوات غرباء يبدو أنهم من قاطني البناية: ـ أبلغوا الشرطة.. مقتحم أضرم النيران بالمكان.. أبلغوا الشرطة.

الفصل العشرون

عرق.. عرق.. عرق..

وكأنه غرق في نهرٍ منه!..

يقف متصبباً به أمام مكتب يبدو متهالكاً بأخشابه المتشققة وسمين جاثياً خلفه يلقبونه بحضرة الصول..

صول!!..

هو أسامة الرازي يقف مرتجفاً أمام هذا المقترض الأهمية من لحظات غياب ضابط القسم, ياله من عبث!

عبث قاد قدميه نحو شرك شيطان لا محالة, تُرى هل أعده الرازي من أجله؟!

أين سارة؟.. وأين العشيق؟.. وأين الفضيحة؟..

كل ما وجده كانت مجرد نيران وحشود من سكان البناية ظنوه لصاً.

استفاق على صفعة قاسية الملمس كانت تمثل ترحيباً من أحد العساكر لمؤخرة رأسه, انتفض غاضباً وقد غلت الدماء بعروقه وجحظت مقلتاه لتعلنا بشراسة عن غضبه المتأجج..

زعق بكل ما أوتي من قوة: ـ ماذا تظن نفسك فاعلاً أيها النكرة ألا تعلم من أكون؟!!

قهقهة ساخرة أطلقها الصول المتملك لموقع الآمر الناهي, رمق أسامة باستهزاء وهو يقوم بتكرار جملته ليتابع بقسوة: ـ كلما تعثرنا بالحثالة أمثالك يُمطر آذاننا بتلك الجملة!

زفر أسامة بغيظ ثم توجه للرجل بنظرة نارية ليردف في قسوة مماثلة: ـ أمعن النظر في البطاقة الشخصية أمامك.. ألا يذكرك اسم الرازي بشيء أيها الغبي؟!

زمجر الرجل في حنق وكاد أن يبادره بصفعة ربما تقضي على ما تبقى من أنفاس الحياة الهزيلة بداخله ولكنه عاد للتفكر بعد أن مر ببصره مرة أخرى على البطاقة الملقاة أمامه..

أسامة محمد سليمان الرازي.

أتراه من أحد أقرباء عاصم الرازي رجل الأعمال وعضو البرلمان المسلوبة حصانته.. قبل أن يرفع الرجل بصره سمع وقع خطوات العساكر المعتادة عند كل تحية,

انتفض بدوره ليضرب الأرض بقدمه اليمنى معلناً عن غيظ مكتوم وهو يزعق: ـ تمام يا فندم.

شاب صغير السن.. الرتبة رائد أم ربما نقيب, لا يهتم.. كل ما يجب أن يهتم به الآن هي تلك المعضلة, هو وحريق وزوجة هاربة وعشيق غير مرئي لأحد سوى عاصم!.

جز على أسنانه بحنق وهو يرددها..

"عاصم".

تنحنح الضابط الشاب وهو يتصفح أوراق المحضر أمامه ثم توجه ببصره نحو الصول الذي تبدلت ملامحه لتتخذ شكل حمامة مسالمة في حضرة مالكها, بصوت أجش وبلهجة آمرة أردف الشاب: ـ أحضر لي بعض الشاي والشطائر.

رمق الصول أسامة بنظرة حانقة ثم زعق بحماس مصطنع: ـ أمرك حضرة النقيب.

اتكأ الضابط على مقعده ثم أخرج لفافة من التبغ أشعلها ببطء وهو يراقب ملامح أسامة المغتاظة, ابتسم بهدوء متابعاً: ـ أسامة الرازي؟

رمقه أسامة بتحفظ مومئاً بنعم دون حديث, صمت الضابط لوهلة ليردف على حين غرة بسرمدية معتادة: ـ هل لك أن تفسر لي سبب تواجدك في العقار الكائن بشارع 25 حي المعادي شقة رقم ثمانية وعشرون المملوكة للآنسة هند عبد الكريم والتي لم تكن متواجدة بالمبنى وقت حدوث الحريق؟

للحظة تصلب فاتحاً فاه .. المدعوة هند هو لا يعرفها ولا يوجد لديه سبب لزيارتها,

كاد أن يتفوه بما لا يعي ولكنه الضابط أوقفه مرة أخرى بجمله شقلبت كيانه: ـ الشهود أجزموا أن باب الشقة كان مكسوراً فهل لك أن تفسر لي يا سيد أسامة لمَ قمت بإقتحام الشقة؟

ابتلع غصته بصعوبة, ظل يتمتم: ـ سارة.. سارة..

بنظرة فاحصة رمقه الضابط متسائلاً: ـ من تكون سارة؟

عاد العرق ليتصبب من مسامه دون روية, تابع بصوت مضطرب: ـ زوجتي.. زوجتي السابقة.

تابع الضابط بنبرة هادئة وهو يتأمل تلعثمه: ـ وما علاقة زوجتك السابقة بإقتحامك لشقة المدعوة هند؟

ازدرد لعابه ليتابع بعصبية واضحة: ـ سارة تقيم هناك وقد مررت لزيارتها.

الضابط: ـ وأين هي؟

تابع متلعثماً: ـ لا أعلم.. لم تكن هناك.

الضابط: ـ ولهذا اقتحمت المكان؟

انتفض صارخاً: ـ أنا لم أقتحم أي مكان, لقد وجدت الباب مفتوحاً!

الضابط: ـ وهل من عادتك سيد أسامة أن تتجول بشقق الغرباء إذا ما وجدت باباها مفتوحاً؟!!

جز على أسنانه بحنق: ـ أخبرتك أن زوجتي كانت هناك.

الضابط: ـ قلت زوجتك السابقة؟

أسامة: ـ نعم.. لقد طلقتها منذ فترة.

الضابط: ـ وأين هي؟

أسامة: ـ لا أعلم.

الضابط: ـ ولماذا وددت زيارتها؟

أسامة بارتباك كاذب: ـ لإنهاء بعض الأمور المتعلقة بيننا.

الضابط: ـ قرب منتصف الليل!

أسامة: ـ هي من حددت الموعد.

الضابط بتهكم: ـ وهي من تركت لك الباب مفتوحاً؟!

أسامة: ـ ربما.. لا أعلم!

فاجأه الضابط: ـ لماذا أشعلت الحريق بالشقة؟

صرخ: ـ أنا لم أشعل أي حريق, لقد لمحت ضوءاً خافتاً منبعث من غرفة النوم وعندما توجهت نحوه فوجئت بالحريق.

الضابط بيأس: ـ إذاً أنت تقول أن زوجتك السابقة أعطتك موعداً بوقت متأخر وتركت لك الباب مفتوحاً وعندما دخلت فوجئت بالنيران؟

أسامة: ـ نعم..

الضابط: ـ ولم تظن أنها فعلت ذلك سيد أسامة؟

أسامة: ـ لا أعلم.

الضابط: ـ هل حاولت ايذاء المدعوة سارة زوجتك السابقة؟

أسامة: ـ ماذا؟!.. لا.. بالطبع لا.

الضابط: ـ إذاً أين هي؟

أسامة بعصبية: ـ أخبرتك لقد اختفت, لم أراها.. لم ألمحها قط.

صمت الضابط لوقت ليس بقليل ثم استدعى الحارس دون أن يكترث بالنظر نحو أسامة ليردف بلامبالاة: ـ ضعه في الحجز!.

لم يصدق أسامة ما مر به ويمر إلا عندما شعر باحتواء القبضة الآثمة لأحد الحراس على ذراعه النحيل..

زعق بكل ما أوتي من قوة: ـ حجز!.. أي حجز؟.. أود الاتصال بالمحامي خاصتي.. لي حق الاتصال.. أود اجراء مكاااااااااالمة.

ببريق زئبقي اعتاد نكهة السلطة ونعيم النفوذ تمعن في مراقبة عقارب الساعة المتقافزة دون روية معلنة عن مرور الوقت, دقائق ثمينة سينال بعدها غنيمته لا محالة.

أغمض عينيه متصوراً مانشتات الصحف في اليوم التالي, الخطوط العريضة التي ستنال من حمقائه ولحظات المتعة المحرمة التي ألفتها, الروايات التي ستُنسج حولها, والاعتذارات التي سيقدمها الجميع له وأولهم من تجرأوا على اسقاطه واسقاط حصانة منصبه بسبب تلك النكرة, نكرة ستصبح عبرة لكل من تسول له نفسه بالعبث مع الرازي! ابتسامة قاسية علت ثغره وهو يعبث بشاربه منتشياً بعبق الانتصار متمتماً بهمسٍ متوعد "رُبّ ضرةٍ نافعة, فبعد أن تمر تلك الأزمة لن يتسنى للأحد الوقوف أمام إعصار الرازي!"

لم يكد يتم خيالاته حتى قاطعه رنين الهاتف, حتماً هو سعيد بالخبر اليقين..

تنهد براحة ثم التقط سماعة الهاتف لتتبدل ملامحه بعد ثوانٍ معدودة ويصرخ غاضباً بصوت اهتزت له جدران الغرفة: ـ خياااااااااااانة

كان سعيد قد ابتدأ مراقبة البناية منذ غروب الشمس؛ تأكد من عودة سارة, وهاتَف أدهم من أجل تأكيد الموعد وبعدها ظل رابضاً بسيارته ينتظر الخبر اليقين الذي اقترب موعده بظهور أسامة, هي مجرد دقائق وستظهر الشرطة وستخرج العفيفة بفضيحة ستلتصق بها طوال العمر.. بضعة صحفيين ينتظرون منه مخابرة على إثرها سيتوجهون للمخفر لرصد السبق المشين.. كل شيء مرتب وبدقة والخطأ غير وارد..

جحظت عيناه وكاد أن يفقد ما تبقى له من ثبات عندما لمح أسامة مجذوباً كمجرم بواسطة الشرطة ولا أثر لصاحبة السبق!

ظل متيبساً بمقعد السيارة لدقائق غير مصدقاً للصورة التي مرت أمام عينيه, عبث بجواله مسرعاً باحثاً عن أدهم ولكن لا جواب!

لم يستطع أن يتمالك نفسه فقفز من السيارة متصنعاً دور الشخص المتطفل وليته ما فعل.. فالجواب الذي حصل عليه لم يكن بالمنتظر بالمرة؛ الشقة خاوية ليس بها أحد وأسامة متهم بالإقتحام وافتعال حريق, وأدهم والفتاة لا يوجد لهما أثر.. تبخرا!

كان يقذف بعباراته بأذن الرازي والصدمة تعلو ملامحه, زمجر عاصم بشراسة اقشعر لها جبينه: ـ اختفيا كيف أيها الأحمق؟!.. أنت أمام البناية منذ ساعات لو خرجا لرأيتهما أيها الأعمى!

فرك سعيد صدغيه بشدة ليتابع بتلعثم: ـ معك حق سيد عاصم, وأقسم لك هو لم يخرج لم ألمح أي منهما.

تابع عاصم بزعيق صاخب: ـ إذاً ربما هما ما زالا بالداخل؟.. لا أريد رؤية وجهك إلا وهو معك هل فهمت؟

انقطع الخط منبئاً ربما بتحطيم عاصم لهاتفه في ذروة غضبه, أما سعيد فخرج من السيارة بمجازفة أخرى متوجهاً لشقة أدهم..

لا يعلم ماذا حدث ولكن ربما يحتجزها بالداخل..

كانت حالة الهرج قد هدأت بعد رحيل أسامة واختفى الحارس من حسن حظه.. توجه للمصعد قاصداً الدور العاشر ولكن قبل أن يدلف لغرفته المعدنية الضيقة لاحظ علامة تشير لمخرج آخر غير بوابة البناية الرئيسية, شد على قبضته في حنق وهو يقرأ اللوحة المتهالكة بأتربة اعتاد الحارس أن يغفل عنها؛ "الجراج"

هي ليلة.. في خضمها تبدلت الأدوار وساد الجنون واختلطت أوراق العاشق بالمعشوق والجاني بالضحية, نسَّق خطته بروية وتوجه لبابها بقلبٍ عاشق وعقلٍ آثم وكيانٍ متخبط بين جدران الحيرة ربما لآخر لحظة!

السيارة بجراج البناية وأسامة على وصول وهي في كلا الحالتين ستغفو بين ذراعيه,

ربما تنال من بأس أدهم وربما تتهادى فوق أوتار قلب ياسين..

ارتجافتها اصطدمت بدفء صدره, وتصلبت قبضته فوق ارتعاشة شفتيها وتهاوت أمام رهبة أنفاسها وكاد أن يتراجع عن فكرة تخديرها ولكن.. فات الآوان.. تهاوت..

وتهاوت معها عبرة مالحة اتخذت طريقها بين تعرجات أنامله فاستنشق عبيرها الشجي واستشعر ألم مذاقها.

لحظة..

جنون.. عشق.. عبث.. فرصة.. هفوة.. مصير.. قدر..

لا يهم..

فقط غاب أدهم وانتصر ياسين..

على مقعد سيارته الخلفي أراح جسدها, عاد وحل قفل الباب بحماقةِ لصٍ مبتدئ.. حقيبتها الملقاة أمام الشرفة نادته فحملها وكأنها إشارة قدرية بوجوب احتجازها بين جدرانه..

رمق ساعة الحائط ببريقٍ قاسٍ فخادم الذئب على وصول, افتعل شعلة البداية.. وراقب صعود الغافل من خلف ستار مظلم اعتاده أمثاله ليلقي بآخر أوراقه أمام باب غرفة الحارس بصرخة إسغاثة مجهولة المصدر

"حرييييييييييق"

راقب صعود الجميع واطمئن لما سببه من فوضى ولم تمر ثوانٍ معدودة حتى أصبح خارج البناية منطلقاً بكل ما أوتي من قوة مستأثراً لنفسه بعبق الياسمين النائم.

مجرد ليلة طويلة كسابقيها.. عدّل من عويناته السميكة وارتشف القليل من قهوته ثم سأل مساعدته السؤال المعتاد: ـ ما زال هناك مرضى؟

أجابته الفتاة: ـ فقط رجل ينتظرك بالخارج.

رمقها بدهشة: ـ رجل!.. ألديه بعض التحاليل أم يود الإتفاق على موعد؟

أردفت الفتاة: ـ لا.. هو يود مقابلتك بشكل شخصي.

تفحص ساعة يده كان الوقت قد تعدى منتصف الليل بأكثر من ساعة, زفر بضيق وود أن يصرف زائره فهو بنهاية اليوم يكون قد بلغ أشده من التعب خاصة مع تزايد زبائن تجارته الصغيرة التي يبدو أنها في ازدهار يوازي انحلال المجتمع حوله.

أخرج لفافة من التبغ بُغية التركيز ثم تابع: ـ حسناً.. أدخليه لنرى ماذا يريد هذا أيضاً..

اعتدل رامز في جلسته بعد دقائق لا بأس بها من الصمت كادت أن تطيح بصبر بئر المشاهير كما اعتادوا أن يطلقوا عليه, ابتسم بمكر وهو يهمس بنبرة متوعدة: ـ أيهما تختار الجحيم أم النجاة؟!

غضبٍ مستعر كان هو ردة فعل الطبيب الكهل, أي عابث هذا جاء ليطرق بابه بعد منتصف الليل ليتفوه بهذا الهراء!!.

بعد أن أنهى وصلته الأولى من التوعد والسباب,

ابتسم رامز مرة أخرى بهدوء مَغيظ ثم تابع: ـ النجاة في الصدق, والكذب حتماً هو خطواتٍ نحو الجحيم!

زمجر الطبيب مرة أخرى ولكن بتوازٍ مع نهوضه واستدعائه لمن سيصرف رامز بالقوة, ولكن رامز أوقفه بحركة يد واحدة بثقة متناهية ليقذف بين كفيه بإسطوانة مدمجة متابعاً بحزم: ـ شاهد هذا أولاً!

رمقه الطبيب بحذر عندما استشعر جدية نبرته ليردف باضطراب: ـ ما هذا؟

بثغر هادئ وملامح واثقة أجابه رامز: ـ الوسيلة!

شاب بسيط الهيئة مألوف الملامح تحمل عباراته من الغموض ما أثار غضبه وأفسد نهاية يومه, لم يجد حسين سلطان بُداً من مواكبة زائره ومشاهدة فيلمه الغامض عله يتخلص منه دون بلبلة, وأيضاً يُشبع حاسة فضوله عن محتوى الإسطوانة وليته ما فعل. تفجرت الدماء بوجهه وتسارعت نبضات قلبه وهو يشاهد بنود الإتفاق الآثم الذي ربما من كثرة تكراره ألفه واعتاده واعتاد تجاهل بطلاته؛ فتاتين بمظهر المومس وهو وصفقة متكررة وحياة تسدد ثمن فجور أخرى والأمر كله يتم تحت وقع أصابعه السحرية..

تهاوى بمقعده والتقط منديلاً ليجفف به حبات عرقه التي تساقطت مع وقع دقائق الكارثة المجسدة أمامه,

رمق رامز بحنق جنوني ليردف بقوة مصطنعة: ـ أي ابتزاز حقير تصبو إليه؟

رمقه رامز بازدراء ليتابع بدوره: ـ مصطلح حقير ينطبق على ما شاهدناه الآن سيد حسين.. عفواً لا أستطيع تلقيبك بالطبيب فأنت لا تستحقه!

تهدجت أنفاسه وهو يشاهد ملامح مذلته بواسطة هذا الشاب الذي يبدو كعابر سبيل قرر اقتحام خلوته ومقصده هلاكه, تمتم بقنوط: ـ كم تريد؟

تأمله رامز بشفقة: ـ هكذا تراها أنت حفنة من الأوراق الملونة!

بصبر غائب زفر بضيق زاعقاً: ـ أنت هنا لتلقيني دروساً في الفضيلة أم ماذا؟.. ليس لدي صبر أو وقت لهذا الهراء!

أردف رامز باستهزاء: ـ وأنا ليس لدي وقت لتصحيح مسارك ولا أهتم!

بغيظ مكتوم تابع حسين سلطان: ـ ماذا تريد؟

ترك رامز مقعده ثم توجه نحو النافذة مردفاً: ـ الحقيقة!

بتحفظ تابع الطبيب: ـ أي حقيقة؟

كان رامز يتأمل النافذة ويتذكر ما قصته ريم بشأن سارة, تلك اللحظات المقيتة التي تلونت بها جدران عالمها لتنضح قتامةً آثرت انهائها بأبشع الطرق..

ارتجف جسده وهو يتذكر ريم وما مرت به بسبب هذا الرازي وقبلها سارة, أردف بقسوة:

ـ حقيقة الرازي.

ابتلع حسين سلطان غصته متذكراً تلك الليلة الغبراء التي جاءه فيها الرازي بامرأته وما تبع ذلك من كارثة كادت أن تودي بسمعته المرقعة بدورها..
تمتم بتردد: ـ لقد قلت ما لدي في النيابة و..

قاطعه رامز بحدة: ـ لغوك الكذب وكلماتك الافتراء.. الاختيار واحد وليس اثنان أيها المتحاذق؛ الحقيقة توازي نجاتك والكذب يوازي فضيحة وعار سيلاحقك أنت وأسرتك بقية حياتك.

تجمدت الكلمات على لسانه وجف حلقه وتصبب عرقه فزعق مدافعاً: ـ أنا قلت الحقيقة.

تفحصه رامز لوهلة ثم استطرد بنبرة واثقة: ـ كما تشاء.. في النهاية ستكافئني جريدتي بهذا السبق المرئي وأنت ستقضي أياماً لا بأس بها بمكتب التحقيقات.

ألقى رامز بعبارته ولم ينتظر جواب الطبيب, توجه نحو باب الخروج بخطوات محسوبة ليوقفه الطبيب اليائس بنبرة متوسلة: ـ انتظر!

استدار نحوه رامز ولم يتحدث, فقط ظل يراقب اضطرابه بثبات.. أردف الأخير بضيق: ـ حسناً.. لك ما تريد.

ابتسم رامز بثبات: ـ الحقيقة كما روتها سارة.

أومأ حسين سلطان بخضوع متابعاً: ـ منذ اتصال الرازي وحتى مجيئه بها كشاه في انتظار الذبح..

ـ إذاً موعدنا في المحاكمة فأنت ستكون أول مفاجآتنا للرازي.

أنهى عبارته وترك الطبيب متهاوياً بمقعده يسترجع ذكريات المقابلة وربما مقابلات عدة كان أبطالها الرازي وأمثاله من خلف الظلال..

أما هو فلم يكن يفكر بشيء سواها.. أراد أن يتوجه نحوها في لحظتها ليبشرها بأولى انتصاراته ولكن لا يستطيع فربما تكون مستسلمة لسلطان راحة وقتي متمثل في غفوةٍ يتمنى أن تمر على عقلها النائم دون أضغاث أحلام, لم يكن يعلم أن النوم قد خاصم جفونها بتلك الليلة وأن الأضغاث لم يكن لها علاقة بعالم الأحلام بل بواقعٍ متمثلٍ في اختفاء سارة.

ربما كانت تلك من المرات القليلة التي توجه فيها للنوم مبكراً, فهو كائنٌ ليلي إن صح هذا التعبير والمقولة الشائعة الحياة قصيرة جداً لنضيعها في النوم.

خصلاته الحالكة السواد كانت مشعثة بشكل عفوي وعيناه تداعبان الظلام برقة متأرجحة بين جدران حلمٍ كانت هي نجمته دون منازع..

اصرار الهاتف غير محتمل, اقتحم معقل أحلامه باصرار ولولا أن الأمر منوط بها لما تحرك من هذا الفراش قيد أنملة فالمخابرة في النهاية كانت بشأنها..

بعد دقائق وصل للمشفى لاهثاً.. لا يُصدق ما أخبروه به عن قرارها المفاجئ بالرحيل قبل أن تتم فترة علاجها..

ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة عندما لمحها واعية تلملم ما تبقى لها من ملابس بتمكن رغم ركود يدها الأخرى في دثار الجبس القاسي ولكنه عاد للعبوس عندما استشعر وهن قدميها خاصةً أنها كانت قد تخلصت لتوها من أربطة إحداهما وتُثقل بشكل جنوني على الأخرى, دون مقدمات تقدم منها زاعقاً بقلقٍ أثار جنونه: ـ هند.. ماذا يحدث؟.. ما هذا الذي...

تيبست شفتاه وتجمدت الكلمات فوق لسانه, عيناها غائمتان ببحر ثائر من العبرات وملامحها تحمل صموداً وغضباً لم يلمس مثله منذ عرفها

تمتم بخوف: ـ هند..

بصوت يحمل حشرجة مخيفة أردفت دون أن تحيد نظرها عن حقيبة الملابس أمامها: ـ تلقيت اتصالاً منذ ساعة من حارس العقار.

نظر نحوها بذهول غير مدرك لما يحدث وما قد يكون حدث, أكملت ببأس: ـ ظهر أسامة واختفت سارة يا سيف.. اختفت ولا أعلم ما يمكن أن يكون قد أصابها.

الكلمة الأخيرة كانت شعلة انهيار يبدو أنها جاهدت لكبته بين ضلوعها, انفجار عبراتها تناثرت أشلاؤه فوق كتفيه لتستسلم لبكاءٍ مرير لم يخفف من وطأة ألمها..

هدهدها برقة متناقضة مع جنون نباضته المتقافزة هوساً بها وقلقاً عليها ثم أردف بصوت مرتجف: ـ هند.. اهدئي أرجوكِ.

بعد دقائق من المثابرة مع قلبها الباكي استكانت أخيراً, ابتعدت عنه لترمقه بلوم جارح: ـ كنت أود رحيلها من هناك.. أنت من أبليتنا بفكرة حرس بغير فائدة!

استشعر المرارة بغصته فملامتها كانت مؤلمة وحقيقية للغاية, بغرور استمع لسارة وبثقة واهية قرر تدبير ما تصور أنه أفضل سبل الحماية, أخرج هاتفه لينفجر بزعيق صاخب بوجه الطرف الآخر الذي لم يكن سوى الحارس القابع دون منفعة أمام البناية..

كلمات مبعثرة استمعت إليها بعد أن ولته ظهرها منشغله بغلق الحقيبة

"لم ترها!.. لم تخرج؟!.. فقط ظهرت الشرطة دون سابق انذار وقبضوا على لص فيما يبدو ومنذ حينها هاتفها خارج نطاق الخدمة!"

الجملة الأخيرة قالها لها على استحياء بعد أن أغلق الهاتف, صمتت لوهلة مستشعرة بعض الذنب نحوه ثم همست بألم متابعة: ـ أود الخروج من هنا سيف.. أود العودة لمنزلي.

أومأ رأسه بإيجاب ليردف بصوت أجش: ـ سأنهي اجراءات الخروج مع الطبيب.

تلكأ في خطواته قبل أن يترك الغرفة ليستكمل عبارته بنبرة مبحوحة: ـ عذراً.. كعادتي أفسدت الأمر مرة أخرى.

غادرها لتهرب عبرة أخرى من عينيها ترافقت مع تصلب قبضتها على ذراع الحقيبة القاسِ الملمس وهمس شجي غادر شفتيها: ـ بل أنا من أفسدت الأمر..

تركتها لقمة سائغة لحماقتها ولِبَأس من غادرته النخوة منذ عقود والآن تتوجه بلومها نحو سيف الذي لم يفعل شيئاً سوى المساعدة بنهجه الذي اعتاده, وكأننا كبشر نستسيغ الجُبْن بالفطرة وأقصاه هذا الذي نخشى مواجهة أنفسنا بشأنه..

فنركض بحماقة نحو لوم الآخر ليلتهمنا شعورٌ زائف بالرضى.

كانت قبضته متصلبة على المقود, يرمق شرودها الحزين بحسرة وكأنه بشكل أو بآخر يُصرّ على أن يكون مصدر آلامها..

نحنح عندما وصلا للبناية فانتبهت بعد وقت ليس بقصير لتظل محدقة بالمبنى دون حراك.. همس بتردد: ـ هند.. لقد وصلنا.

أغمضت عينيها في محاولة لاستعادة صلابتها المفقودة على ما يبدو, كان ترجلها من السيارة كارثياً فلم تتعثر مرة واحدة بل أكثر من مرة.. مثابرتها أصبحت دون معنى فليست قدماها فقط هي المعطوبة بل قلبها أيضاً, استسلمت لاحتواء ذراعيه في النهاية لتتوجه نحو شقتها مستنده عليه متدثرة بقوته.

ثرثرة الحارس مهلكة وأغلبها دون جدوى, صرفه سيف بحفنة من الأموال أخرست فضوله وأمره باحضار من يصلح الباب على الفور.

كانت هند تقف متيبسة بالمدخل, خانتها قواها.. فمع كل خطوة كانت تتصور ما يمكن أن تكون مرت به سارة منذ ساعات وبنفس المكان, ملامح غرفتها بدت مفزعة فسواد الحريق ألقى بظلاله على الجدران والأثاث وربما أيضاً على متعلقاتها..

وجدت نفسها تخطو متعثرة نحو الغرفة, لقد اتفقتا على أن ترحل بتلك الليلة لمنزل ريم هل رحلت بالفعل أم لم يُسعفها الوقت؟..

شعرت أنها تتشبث بأمل أحمق ولكن الخزانة الفارغة من الملابس ساهمت في تغذيته.. اقترب منها سيف مربتاً على كتفيها عله يشد من أزرها, تجولت ببصرها في الغرفة ثم أردفت برجاء: ـ ملابسها ليست هنا.

تمتم سيف بدهشة: ـ ماذا؟!

تابعت بنفس النبرة: ـ سارة كانت على وشك الرحيل.. اتفقنا أن تبيت الأيام القادمة مع ريم.

قطب حاجبيه متفكراً ليردف بحيرة: ـ هل تقصدين أنها رحلت؟.. إذاً لما أغلقت هاتفها؟!

زفرت هند بضيق شديد: ـ ومن أشعل النيران؟.. إن كان أسامة فلماذا؟.. خاصةً أن لم يجدها!

فرك سيف صدغيه بيأس مردفاً: ـ وإن وجدها.. لماذا أشعل النيران؟! لم تكن تلك هي الخطة!

كانت هند تستمع إليه بنصف عقل فالنصف الآخر نأى بعيداً عنها بعالم آخر, عالم سارة التي اقتحمت عالمها دون دعوة لتقلبه رأساً على عقب..

هادئة الابتسامة التي كانت تتجول بالمنزل كضوء شمس مميز النقاء, لمستها طيبة النكهة على كل طعام, وخجلها المتسم ببراءة افتقدها هذا الزمان وهمسها الباكي مع كل صلاة.

صلاة.. استدارت لتلمح إسدالها الفيروزي الذي ابتاعته لها منذ أشهر.. سجادة الصلاة الناعمة الملمس ومصحف صغير اعتادت القراءة منه كل ليلة, تمتمت برهبة: ـ تركتهم غافلة أم عن قصد؟!

هل تركتهم لتعود من أجلهم أم هي علامة على الرحيل الدائم؟

شهقة ألم هربت منها لم تفلح قبضتها الملَثِّمة لثغرها في ردعها.. انتفض سيف ذعراً من أجلها فاحتوى وجنتيها بقبضتيه مردداً: ـ هند.. ستكون بخير.. لا تقلقي ستكون بخير.

همهمت بضعف: ـ أشعر بوهن شديد يا سيف.. أشعر بالعجز.

جذب رأسها نحو صدره بحنان أبوي لم يعهده بنفسه من قبل ليتابع بنبرة حانية:

ـ سنجدها يا هند.. ستظهر وستكون بخير بإذن ربك ستكون بخير.

أغمضت عينيها مستسلمة لعبراتها لدقائق علها تنشد في انهمارها الراحة مثلما كانت تفعل سارة.. وفي هذا الرداء الفيروزي وتلك السجادة المخملية كانت تنشد سارة أيضاً راحة من نوع آخر.. حالة خاصة من الخشوع تتفرد بها خاصةً بين جنبات الليل فتهمهم باستكانة بما تحفظه من كلمات الرحمن لتخرج بعد دقائق راضية بوجه منير.. وكأنه الخلاص الذي لم تنله هي قط ولم تتوجه نحوه بل كانت ترمق بسخرية كل من يخطو لدينه شبراً عند كل أزمة وبعد مرورها يبتعد ذراعاً..

ابتعدت عن سيف لتصمت متأملة الفراغ حولها ثم أردفت بشرود: ـ طمعاً في الثواب أم رهبةً من العقاب!

لم يستدرك مقصدها فنظر نحوها بحيرة ليجدها تتقدم بخطى مرتجفة نحو الزرقة المرتبة فوق أحد الطاولات وبجانبها سجادة للصلاة, مرت بأناملها فوق الرداء لتهمس متابعة: ـ طالما انتفضت ذعراً من توعدها, العقاب الأبدي الذي سيلازمني إذا ما تهاونت في صلاتي.. كنت أتوجه نحو مسجد الدار بارتجاف أتلعثم في الآيات فأشعر بالهلع رهبةً منها قبل أي شيء وعندما تركتها تركت كل ما اعتقدته يخصها ويخص مبادئها..

لم يكن يعلم أنها تتحدث عن زينب.. معلمتها التي لم تكن تدرك بالدنيا سوى نهج التهديد والوعيد, العقاب الدائم الذي لا ينتهي خاصةً مع خامة

الفساد أمثالهن, فالفتاة في نهاية المطاف لن تكون سوى نسخة مشابهة لأمها..

لم يكن يعلم أن قنبلة عرضه المخزي التي ألقاها بوجهها منذ سنوات لم تكن سوى القشة التي قصمت ظهر البعير, المسمار الأخير الذي دقه دون وعي بنعش هند الفتاة الرقيقة التي تجرأت لتحلم بالحب والزواج والاستقرار أو ربما بالحياة, فأيقظها هو من غفوتها دون رحمة.. حتى تلك اللحظة لم يكن يعلم حقيقةً من هي هند وعندما علم أيقن أنه سقط عبداً بمحرابها إلى الأبد..

ابتسم باقتضاب ثم أردف وهو ينظر نحوها بحب شديد: ـ تودين أن تصلي؟

أومأت برأسها إيجاباً بدموع منهمرة فبتلك اللحظة فقط شعرت أنها تنشد راحة من نوع آخر.. سكينة قد تخمد البركان الثائر بداخلها دوماً وسبيل نحو الدرب الصحيح الذي أصبح ضبابياً الآن.. لحظات من الخلاص لأجلها ولأجل سارة..

جلست بارتعاش متوجهة للقبلة التي لم تهتم يوماً بحساب اتجاهها إلا عندما جاءت سارة, نصف صلاتها كان بكاء وتلعثم وقلق وحيرة أنهتهم بسكينة غامضة افتقدتها منذ سنوات, رفعت رأسها نحو السماء باكية متمتمة بكلمة واحدة:

"يا رب".

هدير الأمواج صاخب.. يمثل معزوفة صارخة أتقنت بعناية دور الملكة المتوجة لهذا الخلاء..

أسند رأسه على حافة الدرج فيما بسط قدميه على بقيته متوجها بنظره للستار الداكن فوقه,

آه من تلك الزرقة الداكنة المتلألأة بنجماتٍ تمثل آخر ما تبقى من نكهة الضوء,

آه من شمسٍ تُصر على الحضور تارة بشخصها وتارة بانعكاس ضيائها على دجنة دنياه.

تنهد بيأس, عن أي شمس تتغنى أفكاره عن تلك الحقيقة الراسخة فوق رأس العباد أم تلك الغافية بالداخل فوق فراشه!!.

زفرة عميقة خيُّل إليه أنه من خلالها قد أفرغ كل مكنون صدره من شقاء, أي جنون انتابه وأي عبث هذا الذي أوغل نفسه بداخله!..

كلما أصبح على بعد خطوات من الخلاص وجد نفسه يتعثر مرة أخرى غارقاً ببئر ساحرته الشقراء حتى الثمالة.

كيف له أن يقاوم هذا الضياء أو ربما هذا النقاء؟!..

قادته خطواته نحو الغرفة حيث احتجز ضياءه, كانت ما زالت غافية والغريب أن ثغرها كان يحمل باقي ابتسامة!

ابتسامة غابت مع هذا الشحوب الذي اجتاح بشرتها بفضله, شعر بالهلع للحظة فانقض على صدرها برأسه باحثاً عن نبضات قلبها الصغير, وتنفس

الصعداء عندما اخترقت إذنيه.. تلكأ في مغادرة هذا الحصن الدافئ وود أن يقضي ما تبقى له من عمره بجواره, دون قلق.. دون حسابات.. دون عقل.

فقط قلب وشغف وعاطفة سيدخرها من أجلها وحدها.. لا توجد أنثى بالكون تستحق عاطفته سواها..

استدرك حماقته ليبتعد.. نعم سيبتعد عن تأثيرها المهلك لا محالة بل سيحطم تلك المنحوتة الساحرة بقبضة من حديد, حديد مصمت لا قلب له.. هكذا اعتاد نفسه وهكذا بقى وحتماً سيكون, الأدهمي بجدرانه المظلمة ليس أكثر.

كان يعي أن الشيطان يتجول برأسه بتلك اللحظة وبجنون.. الاستسلام لإغوائه بدا خلاصاً من نوعٍ آخر.. ربما خلاصاً منها ومن سطوتها عليه..

امتدت أنامله لتحل عنها وشاحها الرقيق وتترك العناء للذهب الأشقر لينسدل فوق ذراعيه..

هدير الأمواج العاصف.. صخيب البحر وجنون الرياح لم يمثلوا شيئاً في حينها فالعالم كله الآن توقف فوق شفتيها..

ولكن همسة هاربة من عقلها النائم دمَّرت كل شيء.. تصلبت شفتاه أمام شفتيها ولم ينل منها سوى تلك الأنفاس المحمَّلة بعبق حماقتها وجنونه..

"ليتني ما أحببتك"

الفصل الحادي والعشرون

العالم حولها يبدو ضبابياً.. وجوه.. وجوه متكررة تمر أمامها..

بعضهم يرمقها بشفقة.. وبعضهم يرمقها بإزدراء..

صرخت, ولكن دون صوت..

بكت, ولكن دون عبرات..

شعرت أنها عارية رغم أنها كانت ترتدي جميع ملابسها.
أخيراً ظهر..

أبصرته يقترب منها, بل كان قريباً بالفعل.. قريباً للغاية..

ابتسامته بدت قاسية وهيئته بدت مخيفة وكأنه آخر.. آخر قرر أن يخطو فوق بقاياها دون اكتراث..

أغمضت عينيها علها تهرب من تلك القبلة الدافئة التي كانت على وشك تلقيها..

بكت مرة أخرى.. تحشرجت نبرتها.. تباً لهذا الهذيان وهذا التيه المُهلك بين الواقع والخيال دون جدوى..

اقشعرت لاقترابه وحاولت التملص من قيده ولكنها كانت مجرد جسد متهاوٍ دون إرادة.. دون قدرة على الحراك..

همست علها تستفيق من هذا الكابوس المؤلم:

" ليتني ما أحببتك"

لحظات من السكون.. قد تحمل لنا الجنون وقد تكون مجرد حقيقة راسخة أمام أعيننا لا نستطيع تجنبها..

هي حقيقة راسخة أمام عينيه لا يستطيع تجنبها.. عشقها حقيقة لا يستطيع تجنبها.. وعشقه لها عذابه الأبدي لا محالة..

كانت قد بدأت تستفيق.. تتحرك بوهن على الفراش.. ولا تدرك من الدنيا سوى صوت أمواج البحر, الذي لا تعلم من أين جاءها وكيف!!.

انتفضت بهلع وأبصرته.. كان قريباً للغاية وكأنه كان على وشك..

أغمضت عينيها في جزع..

أبعدته عنها بوهن, ولكنه ابتعد بالفعل..

استند بظهره على باب الغرفة وظل يتأملها دون تعابير واضحة, وكأنه يسعى لاكتساب صلابة رجل دون قلب خاصة في مواجهتها..

تجولت ببصرها في المكان في اضطراب ملحوظ.. للوهلة الأولى ظنت أنها بمنزله, ولكنها لم تدرك ما هي الخطة وهل تمت بالفعل أم لا..

بعد ثوانٍ أيقنت أن هذا المكان ليس بمنزل, وأنه بعيد كل البعد عن سماء القاهرة.. ذكرى اقتحامه للمنزل وسطوته على صرخاتها المكتومة اقتحمتها لتذكرها بتفاصيل خيانته..

أغمضت عينيها لتبتلع غصتها بألم ثم همست بنبرة خانقة: ـ أكان الثمن مجزياً؟

وكأنها تمسك بمطرقة قاسية وتدق بها على أوتار قلبه الحساسة.. عن أي ثمن تتحدث الحمقاء؟!!.. فهو قد حطم كل قوانينه من أجلها ودون إرادة...

في أقل من الثانية كان رابضاً كفهد أمامها يمسك بإحدي ذراعيها بقسوة جاذباً جسدها الضعيف بمواجهته ليتمتم بشراسة: ـ عن أي ثمن تتحدثين؟!!

بعبث حاولت التحكم في ارتجافة جسدها.. وغيظها.. وغضبها.. وحسرتها.. وألمها الذي تمكن حتى من نبرتها, فخرج صوتها مشوهاً دون ملامح وبدت عبراتها كنهر حزين ينشد الانهمار, وحتماً أثبط من عزيمة قسوته فتراخت أنامله عنها في ألم وهمس مرة أخرى بنبرة مخنوقة: ـ عن أي ثمن تتحدثين؟

انكمشت في فراشها مبتعدة عنه وجذبت وشاحها بقبضة مرتجفة لتداري خصلاتها المبعثرة, ثم أردفت بنبرة متحشرجة: ـ ثمن فضيحتي من سيدك الرازي.

للحظة.. تهاوى..

شعر بنفسه صغيراً للغاية في مواجهتها..

ماذا تعلم؟.. وكيف علمت؟.. وكيف استأمنته على نفسها بعدما علمت؟!..

تبدل خزيه لغضب جامح فجره بوجهها في الحال صارخاً: ـ كنتِ تعلمين؟!!

صراخه أفزعها.. فتاه منها الجواب وكأن الحال تبدل, فأصبحت هي المُلامة وهو صاحب العتاب..

لم يبالِ برهبة ملامحها أردف بقسوة: ـ كنتِ تعلمين؟

رمقته بغضب مكتوم بعد أن استدركت نفسها ثم أجابت: ـ كنت أعلم أنه سيرسل لي أسامة, وسيسعى لتدبير فضيحة لي مع أحدهم.. وراهنت نفسي على أنه ليس أنت.. ولكن يبدو أنني خسرت الرهان.

كانت نبرتها شجية تحمل غضباً.. وغيظاً.. وندماً.. على تلك المشاعر التي ولتها حتماً من لا يستحق..

أما هو فظلت ملامحه جامدة يحدق في الفراغ بثبات وبريق مقلتيه يحمل صراعاً لا يدركه سواه..

استدار نحوها بابتسامة ساخرة ليتابع بنبرة أجشة وكأنه يقرأ أفكارها: ـ نعم.. أوليتها من لا يستحق!.

استدار ليتركها فأوقفته بزعيق: ـ أين ستذهب؟.. وما هذا المكان؟..

أجابها دون أن يستدير نحوها: ـ السجن.. تهذيب وتأديب وإصلاح!!

تمتمت دون وعي: ـ ماذا؟!!

بغصة ألم كانت تتراقص بحلقه تابع: ـ هنا ستدركين يا سارة كيف تولين ثقتك لمن يستحقها.. وحتماً كيف تخوضين حرباً بمواجهة عدو يفوقك شراسة.

لم تستوعب ولم تفهم مقصده.. كل ما لمحته إغلاق الباب بالمزلاج وصوته يبتعد مكملاً:

ـ لا تجهدي نفسك بمحاولة الهرب, فهو ببساطة أمر مستحيل.

زقزقة عالية النغمة اخترقت سباتها بنعومة.. بتكاسل رفرفت أهدابها لتبصر هذا الضوء الساطع المتسلل من النافذة النصف مفتوحة, وذلك الطائر الصغير المنتفض بجناحيه الصغيرين مبتهجاً كطفل بانتظار حلوى العيد.

مرت دقائق قبل أن تدرك أنها سقطت غافية منذ ساعات.. ممدة على سجادة الصلاة ومتوشحة لرداء سارة الفيروزي.. انتفضت متجولة ببصرها في المكان الهادئ باستثناء جنون الطائر الصغير فوق النافذة.. يغدو ويجئ ويحشر منقاره الرفيع بين ثنايا القاعدة المعدنية وكأنه يبحث عن غذاء..

ظلت تراقبه لوهلة منتظرة يأسه ولكن دون جدوى, فالعنيد الصغير مقتنع تماماً أن نافذتها هي مصدر غذائه.. والأدهى أنه يبدو أنه قد حصل لنفسه بالفعل على بعض الفتات..

منتظماً بحركته ومستمتعاً بوليمته الضعيفة وكأنه اعتاد الوجود هنا بالفعل وكأن هذا الصباح هو مجرد تكرار ككل صباح.. يتراقص هو على النافذة وتمطر الشقراء معدته بكسرات رقيقة من الخبز..

ابتسامة مقتضبة علت ثغرها وهي تراقب صديق سارة الصغير الذي ربما لا يدرك اختفائها ولكنه حتماً بالفطرة جاء بحثاً عنها..

كان المنزل يبدو هادئاً.. لا تعلم متى رحل سيف.. وكيف؟.. ولكنها استدركت الباب المغلق مما يوحي بأن الحارس قد أحضر من أصلحه بالفعل..

توجهت نحو المطبخ لتعود ساحقة بأناملها بعض الحبوب لتبسطها بحنان أمام الطائر الجائع..

همست بجنون محدثة كتلة الريش الرمادية: ـ هذا مؤقتاً فقط حتى تعود سارة.

تؤكد على ذلك.. لنفسها قبل الجميع..

ستعود سارة..

تكرر العبارة في إصرار وكأنها لا تود التنازل عنها..

طرقات ناعمة بالباب أجفلتها.. كان هو أيضاً على هيئته منذ البارحة ويبدو أنه حصل على القليل جداً من النوم.. ابتسامة هادئة علت ثغره وهو يتخطاها متقدماً للداخل حاملاً لفة مغلفة بين يديه بسطها على الطاولة في لحظتها وهو يردد: ـ صباح الخير.

راقبته بشرود لوهلة ثم تابعت متسائلة: ـ ماذا حدث بالأمس؟

أجابها ببديهية: ـ غفوتِ على الفور.. ولم أشأ إيقاظك.. أصلحنا الباب وغادرت.. هيا.. تعالي الطعام سيبرد.

أومأت برأسها بابتسامة مجيبة: ـ سأبدل ملابسي أولاً.

خلع سترته ليستقر على أحد المقاعد متهالكاً ثم تابع: ـ لا تتأخري.. فقد أحضرت لكِ المعجنات الساخنة التي تفضيلنها.

قبل أن ترحل بادرته متسائلة: ـ أين ذهبت سيف؟.. يبدو أنك لم تحظَ بالنوم على الإطلاق.

تخللت أنامله خصلاته المشعثة نوعاً ما ليبتسم مجيباً: ـ غفوت لبعض الوقت بالسيارة.

رمقته بدهشة: ـ السيارة!!.. لِم لم تعود لمنزلك سيف؟

بدا بعينيه بريق اشتياق وهو يردف بنبرة دافئة: ـ منزلي بقربك هند.

بدا عليها ارتباك لحظي وتلعثمت كلماتها فهربت مسرعة من طوفان اهتمامه الذي جاءها في أكثر أوقاتها ربما احتياجاً.. خاصة مع عبارته الماكرة وهو ينظر نحوها ملمحاً لذراعها المكسور: ـ إذا احتجتِ لأي مساعدة, أنا بالخدمة.

غلبتها الابتسامة وهي تغلق الباب لتهمس محدثة نفسها: ـ لن تتغير سيف!.

بعد وقت ليس بقصير عادت لتجده متذمراً بشفتين مزمومتين فابتسمت وهي تسحب أحد المقاعد لتجلس بمواجهته مردفة: ـ برد الطعام؟

رمقها بغيظ: ـ تأخرتِ

قبل أن يكمل لاحظ تأنقها فتابع في دهشة: ـ ذاهبة لمكان ما؟

تابعت وهي تمضغ أحد الشطائر بنهم: ـ أماكن!..

ثباتها أقلقه.. تبدو كالهدوء الذي يسبق العاصفة.. هو يدرك تماماً البركان الثائر بداخلها ونزعة الإنتقام المسيطرة عليها بتلك اللحظة..

ارتشف القليل من العصير خاصته ثم رمقها بتفحص متابعاً: ـ حسناً.. سنذهب سوياً.

استدارت نحوه بتحفظ مجيبة: ـ أين؟

رمقها بتحدٍ مجيباً بدوره: ـ إلى عاصم.

توقفت عن تناول طعامها لتمسح فمها بمحرمة ورقية بتوتر ملحوظ متابعة في حدة:

ـ سيف.. هذه مشكلتي وحدي, وسأنهيها بطريقتي.

ضرب قبضته بغضب على المائدة زاعقاً بحزم: ـ لن تذهبي وحدك لهذا الحقير.. لن أسمح لهذا البائس بالاقتراب من شيء يخصني, وأنتِ أغلى ما عندي, هند.

قاطعته بحدة: ـ أنا لا أخصك سيد سيف.. ولن أكون ضعيفة مستنسخة تنشد الاختباء تحت جناحيك.. أشكرك, ولكن أعتقد حان وقت عودتك لمنزلك وزوجتك.

قبل أن تنهض من مكانها كان هو قد انتفض ليجذبها من ذراعها المعافى لتقف في مواجهته.. ظل يتفحصها بغضب دون أن ينطق فقط يتأمل ملامحها المتمردة وطاقة العند الهائلة المنبعثة من عينيها.. بالاتجاه المقابل كانت هي على شفا هوة الاستسلام.. ربما بالفعل هي تحتاج لجناحيه..

تحتاج لتوسد كتفه وترك العنان لعبراتها من جديد.. تحتاج لقبلة دافئة على جبهتها وهمسة كاذبة تخبرها أن كل شيء سيكون بخير..

ابتلعت غصتها في اضطراب غير ملحوظ بالنسبة إليه ثم تابعت بنبرة قاسية: ـ اترك ذراعي.

لم يتحدث ولم يترك ذراعها.. ظلت أنامله متشبثة بقسوة بذراعها حتى آلمها دون قصد, تأوهها أجفله فتركها على الفور ليربت فوق كتفها بندم: ـ آسف.. لم أكن أقصد, فقدت أعصابي.

أغمضت عينيها بتراخٍ لتردف بيأس: ـ اتركني سيف.. ليس بي طاقة لمناوشتك, خاصة الآن.

رمقها بجدية ولوم في ذات الحين ثم همس بنبرة أجشة: ـ لن أترك زوجتي وحدها مرة أخرى.

لا تعلم.. ولكن للحظة شعرت بتهاوي قلبها, قبل أن تستدرك فحوى عبارته أتبعها بجملة قاطعة: ـ أنتِ زوجتي.. شئتِ أم أبيتِ, ستصبحين زوجتي!!

دلا بدلوه ثم غادر دون أن يتبين ملامحها فقط زعق وهو بالباب: ـ أنتظرك بالسيارة.

كان يعلم حجم الضغط الذي مارسه عليها, يمطرها بمشاعره وجنونه وخاصة الآن, ولكن مع هند لا تراخِ.. لا انتظار.. ولا تفكير.. ولا استسلام..

استقرت بجانبه على المقعد دون ملامح واضحة.. فقط تخفي عينيها تحت نظارة قاتمة وكأنها تتعمد عدم النظر نحوه, أبطل محرك السيارة ثم استدار نحوها ليخلع عنها النظارة الشمسية بحركة سريعة..

غضب عينيها لم يرهبه بل على العكس ابتسم نحوها في ثقة ليردف بهمس دافئ:

ـ أحبك.. أعلم أن هذا ليس بالوقت ولا المكان المناسب.. أعلم أنكِ تموتين قلقاً على سارة.. وأعلم أن لدي زوجة أخرى قابعة بشبه منزل, ولكن هذا لا يغير حقيقة أنني أحبك.. حقيقة أنني خسرتك بحماقتي منذ سنوات.. حقيقة أنني لا أندم على شيء بعالمي الآن سوى فقدناك.. ولا أنوي اختبار ذلك مرة أخرى.

ظلت متصلبة كتمثال.. بريق عينيها في جحوظ متهالك وشفتيها تعاني ارتجافة مؤلمة.. أعاد النظارة الشمسية لوضعها من جديد ثم انطلق بالسيارة مسرعاً دون حديث, ودون ادراك لشبح الابتسامة الذي تراقص فوق شفتيها, والهمسة الخائنة التي خرجت منها رغماً عنها: ـ وأنا أيضاً.

كانت الساعة قد تعدت التاسعة صباحاً عندما وصل للمشفى, لم يتصور أنه سيجدها مستيقظة بل ومستعدة أيضاً للرحيل.. خصلاتها كانت معقوصة للخلف دون اهتمام وبشرتها شاحبة بشكل قاسي.. ترتدي قميصاً بنقوش زرقاء وسروالاً من خامة الجينز الداكن وأمامها باقايا وليمة من الشاي والقهوة..

أي مشفى أحمق هذا الذي سمح لها بتناول كل تلك المنبهات!!!..

هكذا حدث نفسه وهو يهرول مندفعاً داخل الغرفة بقلق ممزوج بغضب شديد, ولكنه قبل أن يتحدث فوجئ بها تنتفض لتقف في مواجهته زاعقة: ـ لم لا تجيب على هاتفك أيها الأحمق؟!!

برقت عيناه لوهلة وكأن الزمن قد عاد به لتظهر ريم المتباجحة من جديد, وأردف بدهشة: ـ ماذا؟!!

تابعت بعصبية واضحة: ـ أود الخروج من هذا المستنقع حالاً.. والدتي تنهي الإجراءات, ولكنها ترفض أن تتركني وتصرخ بجنون ناشدة عودتي للمنزل.. أحتاجك.. لن تتركني إلا إذا علمت أنك معي.

احتوى ذراعيها بعفوية رغبة منه في تهدئة ارتجافها وهو يردد: ـ ريم اهدئي.. أفهميني ماذا حدث.. وأين تودين الذهاب؟

للحظة شعرت بارتجافة قاسية وغضب جامح تمكن منها.. لولا أنه رامز, لقابلت رأسه مزهرية الغرفة دون هوادة!!!..

أغمضت عينيها في ألم ثم أزاحت قبضتيه متابعة: ـ أود الاطمئنان على سارة.. لا تجيب على هاتفها منذ البارحة, وكنا قد اتفقنا أن تبيت معي.. أشعر بقلق شديد عليها, رامز.

ابتلع غصته وظل صامتاً لوهلة ربما في محاولة يائسة لاستيعاب كل شيء..

ارتجافتها من قربه.. محادثتها لسارة.. عودتها الكاذبة لريم القديمة..

همس بعد حين: ـ اهدئي.. سأفعل كل ما تريدين.. فقط اهدئي.

أومأت برأسها بابتسامة مقتضبة متأملة ملامحه الوجلة من أجلها..

لم تهدأ فحسب لقدومه, بل رغم كل شيء شعرت بالأمان.

منذ البارحة ولم يغمض له جفن.. منذ الخبر المشؤوم الذي استقبله من الأفعى سعيد.. الأمور كلها تبدو ضبابية الآن؛ أسامة المحتجز بقسم الشرطة, سارة التي اختفت بغمضة عين, والحقير أدهم..

ضرب قبضته بحنق على الطاولة وهو يتذكر فعلة اللعين التي حتماً كتب بها سطور نهايته.. الجنون بعقله أصبح كارثياً فما حدث لا يزال مجهول الأسباب بالنسبة إليه,

إلا إذا...

بريق قاسٍ اجتاح مقلتيه الزئبقيتين وهو يتخيل اتفاق خفي تم بين أدهم وجمال زيدان هدفه في المجمل اسقاطه..

أدهم الشقي الذي لا تحركه سوى رائحة المال وحتماً سيكون ولاؤه لمن يدفع أكثر..

كانت أنامله تنتفض بعبث فوق سطح الطاولة تحمل نبضاتها أسوأ توقعاته,

امتدت يده للهاتف ليهمس بشراسة لمخدومه متابعاً: ـ معك حساب مفتوح.. أريده من تحت الأرض.

ابتسم سعيد بخبث مجيباً: ـ أمراً وطاعة سيدي.

أردف عاصم بحنق: ـ يبدو أنه اعتاد نكهة المال فدعنا نذيقه طعم الدماء!!..

ايماءة واثقة كانت جواب الخادم ليتابع بتأكيد: ـ أمثاله منتشرون مثل الجراد, وحتماً سنحصل على خائن.

أغلق عاصم الهاتف بعد أن هدأت ثورته قليلاً.. فقط يجده.. يجد البائس وعندها سيذيقه الألم كما يجب أن يكون.. وسينفذ في النهاية الاتفاق رغماً عن أنفه!!.

رنين الهاتف أخرجه من نشوة إنتقامه, وليته ما فعل فعلى الجانب الآخر كان صوت أسامة منهاراً.. يتلعثم ويهذي بكلمات غير مفهومة مغزاها أنجدني من تلك الورطة..

أنجدني من تلك الورطة, وإلا سأقول كل شيء.

آخر ما ينقصه طفولة هذا الأحمق رضيع أمه, زفر بضيق أتبعه بصرخة آمرة: ـ اصمت ولا تتحدث.. بعد ساعة سيأتيك المحامي وهو سيتصرف.. فقط حافظ على فمك مغلقاً.

كانت صفعة السماعة على الهاتف مدوية تحمل غضب رجلٍ ظن أنه امتلك كل شيء.. طال من الدنيا بريق السلطة وسطوة المال ومتعة النساء أي من اشتهى منهن..

والآن.. هو على وشك فقدان كل شيء...

تنهيدته الحارة كانت تحمل ألماً وقلقاً توازى مع نطقها الجاد باسمه.. فمنذ حماقة العشق التي ألقاها بوجهها وهي صامتة.. تراقب الطريق باهتمام مقصده تجنب الحديث معه.

كانا قد وصلا لتوهما لمجموعة الرازي وعلى وشك مغادرة السيارة عندما أوقفته بنبرة حادة: ـ سيف..

رمقها بصمت فآخر ما ينتظره منها الآن رفضه رغم أنه ببساطة يستحق.. جمود ملامحها أرهبه, ولكن ابتسامتها المرتجفة أنبأته بضعف الأنثى التي لا تلين لرجلٍ سواه.. نظرت نحوه بتوسل لم يعهده بها من قبل.. احتياج له وحده دون غيره..

احتوى أناملها بقلق مردفاً: ـ هند.. ماذا هناك؟

خلعت نظارتها القاتمة ثم فركت جبهتها في اضطراب لتتابع: ـ أحتاج أن أكون وحدي.

لم يدرك مقصدها, تمتم بحيرة خائفة: ـ ماذا؟!!

أشارت بيدها للبناية متابعة: ـ هناك.. فوق.. مع الرازي, أحتاج أن أكون وحدي.

اقتضبت ملامحه مرة أخرى ليحدثها بنبرة لائمة: ـ لماذا؟!

كانت عبراتها تنشد الانهمار, نبرتها مخنوقة وصوتها شابته خشونة البكاء..

همست بصعوبة: ـ لأنني اعتدت أن أكون وحدي, سيف.. اعتدت أن أتدبر حالي دون مساعدة أحد.

قاطعها بقلق: ـ هند.. أنا هنا الآن, ولن أذهب لأي مكان.. يمكنك الاعتماد عليَّ.

رمقته بندم: ـ آسفة.. أنا لا أستطيع أن أثق بك.

قالتها.. ألقت بها كقنبلة وغادرت..

عبارة قد تكون أحدثت جرحاً غائراً بصدره..

أم ربما صرخة تخبره أن كلمة أحبك غير كافية...

لحظة تمر وربما يختلف بعدها كل شيء, خيط رفيع غير مرئي يفصل بين حنين القلب وقسوة العقل.

بملامح مبهمة كانت تراقب أضواء المصعد.. الأرقام تتبدل واحد.. اثنان.. خمسة.. سبعة..

ألن يكون من العدل أن يحلق عاصم الرازي من الطابق السابع, تماماً كما أراد لسارة من قبل؟!!..

فركت جبينها في محاولة للتخلص من شيطانها الغاضب وتوجهت بثبات نحو المكتب الأنيق حيث تجلس امرأة فاتنة تبدو في الثلاثين من العمر؛ مساعدة شخصية, سكرتيرة.. لا يهم..

المهم أنها ستتخطاها وستقابل الحقير الآن.. وليس بعد ذلك.

الكلمات المعتادة في تلك المواقف هي تحفظها عن ظهر قلب, أرجو أن تأخذي موعداً.. السيد عاصم مشغول للغاية أتركي رقم هاتفك..

اقتربت من صاحبة أنفاس الفانيلا لتهمس بفحيح غاضب: ـ سأقابله الآن!!..

ابتسامة صفراء اعتادتها الموظفة كانت هي الجواب مع جواب يحمل صيغة تعالي:

ـ السيد مشغول.. أعلميني بسبب الزيارة وسأحولك لأحد الموظفين المختصين.

ابتسمت هند بشراسة بعد أن تفحصت ملامح الفتاة بتمعن ثم أردفت وهي تشير لذراعها المُجَبر: ـ هل تدركين ما هذا؟

رمقتها الفتاة باستهزاء مجيبة: ـ جبس.

تابعت هند بثقة: ـ قاسٍ للغاية.. لقد حذرني الطبيب من أي محاولة حمقاء لتحريك ذراعي, ولكن أتعلمين أنا أفضل المجازفة!!

لم تدرك الفتاة مقصد هند فنظرت نحوها بدهشة لتردف هند بنبرة تحذيرية: ـ مقابلة قاسية من ذراعي لهذا الوجه الفاتن ستحتجزك بالمنزل لأسابيع, وقد تشوه أنفك الشامخ للأبد.

انتفضت الفتاة بغيظ: ـ كيف تجرؤين؟

لم تنتظر هند جوابها.. استغلت لحظة ترددها وانطلقت مندفعة نحو الغرفة المغلقة لتجد نفسها وجهاً لوجه مع الرازي..

كان جالساً بمكتبه وعلى ما يبدو أنهى لتوه مكاملة مزعجة..

رمق هند بدهشة ممزوجة بالغضب ثم انتبه لثرثرة مساعدته الواهية وثبات ملامح الأخرى التي كانت ترمقه بشراسة نمرة على وشك الانقضاض على فريستها..

بحركة يد صرف الموظفة طالباً منها أن تغلق الباب بهدوء, ثم توجه نحو هند بنظرات توازيها قساوة ليردف بصوت أجش: ـ للمرة الثانية نتقابل.

هدوؤه الظاهري لم يبدل ملامحها بل أكد لها تورطه في اختفاء سارة..
اقتربت من المكتب لتستند عليه بأحد ذراعيها هامسة بقسوة في مواجهته: ـ أين سارة؟

رمقها باستهزاء تبعه ببحث واهي بين جيوب سترته ليتابع ساخراً: ـ ليست معي.

لو أن معهما ثالثاً بالغرفة لأجزم أن لأنفاسها الآن صوت هدير غاضب ذو قدرة هائلة على اجتياح كل من يقف بمواجهته, تمتمت بشراسة اصطكت لها أسنانها:

ـ أمامك أربع وعشرون ساعة.. لو لم تظهر سارة, فانسى رؤية ابن عمك ولفترة طويلة.. عقوبة اقتحام منزلي لن تمر مرور الكرام, خاصةً عندما أخبر الشرطة عن ملامح خطتكما الحقيرة..

كل ما قالته كان يمثل عبثاً تخطى إحدى أذنيه ليخرج من الأخرى, باستثناء العبارة الأخيرة.. عن أي خطة تتحدث؟.. وأي معلومات يملكن البائسات؟..

سألها غاضباً: ـ عن أي خطة تتحدثين؟

أجابت بعد أن رمقته باحتقار: ـ خطتكما الدنيئة من أجل سارة.. ولكن يبدو أن مرسالك كان جزء من الخطة ليس أكثر.

كان بريق عينيه مخيفاً.. شعرت أنها تضغط على زناد فوهته في مواجهتها وأن هذا الـ"عاصم" لا يوجد لديه أي فكرة عن زيارة زوجته لسارة..

اقترابه السريع منها وحصار قبضته الغاشمة لفكيها كان مفاجئاً, فلم تستطع التملص منه ولا من أنفاسه الغاضبة التي صاحبت فحيحه المتوعد: ـ أي خطة تمارسينها الآن؟!..

أغمضت عينيها لوهلة حتى لا ترضي سطوة رجولته الفارغة بالتغلب عليها ثم أردفت ببريق متحدٍ: ـ جاسوسك الذي قام بزيارة سارة وأنبأها بخطتك أنت وأسامة من أجلها.. خطة العشيق المجهول.

تراخت قبضته وظل متصلباً لوهلة فاتحاً فاه يحسب بعقلة ملايين المعادلات المصنوعة من أجل خيانته, تمتم بعد وقت ليس بقصير: ـ من هو؟

لم تنطق وأخفت ابتسامة انتصارها فزعق بغضب مستعر: ـ من هو؟؟؟

انفعاله كان ورقتها الرابحة وعلامة انتصارها في لعبة مواجهته, أردفت بهدوء: ـ أين سارة؟

كان ناقوس غضبه قد أُطلق بالفعل ولا سبيل للتراجع..

أجابها بغيظ مكتوم: ـ أخبريني من هو.. وسأخبرك أين سارة.

ابتعلت غصتها في توتر لاحظه على الفور.. كل شيء يبدو ضبابياً.. مصلحته قد تكون في اختفاء سارة, ولكن كيف سيعلمها مكانها؟!!.. هل ألقت بمجازفة غير محسوبة بورقة رابحة بحق؟.. هل تستحق زوجته الشقاء الذي سيصيبها بسببه إن علم بأمر تحذيرها لسارة؟.. شعرت أنها بتلك اللحظة تحتاج لمعجزة.. إشارة.. علامة..

قطع صمتها بنبرة نافذة الصبر: ـ حسناً.. سأتحدث أنا أولاً... صديقتك البريئة لها عشيق بالفعل, أنا لم أفعل شيئاً سوى استغلال الظروف.

توازت عبارته الماكرة مع دسه لبعض الصور في قبضتها.. سارة وأدهم.. سوياً.. في سيارته!!

شعرت أنها تتهاوى من هول المفاجآة..

أدهم... أدهم!!..

ظلت ترددها بغضب... بغيظ..

كيف ومتى وقعن بفخ جاسوس نصبه لهن عاصم؟!..

لعبة.. هو حتماً رجل عاصم الرازي..

كانت الحقائق والتصورات والتخمينات تتوالي بعقلها كومضات, ظهور أدهم دون مقدمات.. مساعدته لهن دوماً وأبداً.. صباح محاولة القتل, وفشله في لحاق الجاني..

من يكون هذا الرجل؟!.. معهن؟.. أم مجرد مقتحم لعالمهن لغرض في نفسه؟..

وإن كان, لماذا كشفه الرازي الآن؟. وسارة معه برضاها أم رغماً عنها؟..

صراخ حماقته نافذة الصبر أفزعتها.. رمقته يزعق: ـ والآن.. من الخائن؟.. أجيبي.. من يكون؟

رمقته ببأس للحظات ثم همست بنبرة قاسية: ـ أدهم.

كانت غارقة بدوامتها الخاصة من الهذيان..

نعم..

كل ما تمر به الآن مجرد... هذيان..

عشقها..... هذيان..

خيانته..... هذيان..

هذا السجن الأسمنتي الذي احتجزها به..... هذيان..

فعلياً لم تكن تدرك الوقت.. لم تدرك أنها قابعة بالغرفة وعلى الفراش بنفس الوضعية منذ أكثر من خمس ساعات.. وأنه غائب دون اكتراث.

ربما ابتلعته الأمواج الهادرة بالخارج.. لقد لمحته من النافذه يتوجه لثورة البحر بعد أن راقبها لدقائق.. نظرة غائمة اجتاحها بها ثم خلع قميصه واختفى.. هكذا بكل بساطة

ربما لمحت عودته.. ربما لا.. فهي بعدها بأقل من ساعة غاصت في غيمتها الخاصة من الهذيان.. وبدا العالم أمامها متراقصاً تغفو لدقائق.. وتفيق منتفضة لدقائق أخرى..

صرير الباب أثار انتباهها وعندها لمحت خياله.. كان مجرد خيال, فالملامح كانت مشوشة بالفعل.. وكل ما تلا ذلك كان مشوشاً..

خصرها الذي رقد رغماً عنها على راحة يديه.. ورقبتها التي توسدت ذراعه.. وتلك النكهة المسكرة المذاق التي رطبت لسانها..

همسٌ غاضب أخترق أذنيها: ـ لِمَ لم تتناولي طعامك أيتها الحمقاء؟.

أدركت أنه عاد أخرى مرة أخرى بعد رحيله بحوالي ساعة قبل أن يغوص بين الأمواج.. ترك لها بعض الطعام, تاركاً القرار لعوز معدتها.

أحمق.. هكذا تمتم لائماً نفسه, ليسند رأسها المترنح بعدها على ذراعه من جديد ويسقيها بعض الرشفات القليلة من العصير..

استعادت وعيها ببطء توازي مع أنفاسه المضطربة..

انتفضت وهاجت مبتعدة عن أحضانه لتنكمش في فراشها مرة أخرى ثم أردفت بنبرة قاسية: ـ ابتعد عني.

كان صوتها مرتجفاً بشدة, يحمل خوفاً.. وألماً.. وندماً.. ووجل امرأة راهنت بكل تملك, وخسرت الرهان.

رغماً عنه امتدت يده نحوها في حنان, لم يكن يتمنى أكثر من مجرد تمليسة بسيطة على رأسها بتلك اللحظة, ولكنها دفعت يديه بقسوة لتصرخ بزعيق متحشرج: ـ قلت لك.. ابتعد.

تصلبت ملامحه وارتجفت عضلة نافرة بخده الأيسر بتوازٍ مع بريق العقيق الخادع بعينيه.. نعم خادع.. هكذا قالت لنفسها.. كل ما به مجرد خداع.. حتى البريق الذي أدمنته..

ابتعد عنها بخطوات محسوبة بعد أن وضع صينية الطعام أمامها على الفراش..

همت لتقذفها بوجهه, ولكنه استحوذ على ذراعها الضعيف في لحظة ليهمس بجانب أذنها بوعيد غاضب: ـ القوة من القوت يا سارة, فتزودي بكليهما لأنني لن أضمن نفسي إذا ما وجدتك خائرة الجسد مرة أخرى!!..

تركها دون أن يلتفت لردة فعلها ولكنه توقف أمام الباب مستديراً نصف استدارة ليتابع بهمسٍ يصطنع القسوة: ـ ولا تنسِ أنني قبل أي شيء.. أريدك..

غصة الألم بحلقه لم تكن مرئية لها وكذلك ارتجافة ملامحه ككل خاصة عندما تمتمت بألم: ـ أكرهك.

أكرهك.. كانت تخترق ضلوعه كنصل حاد لم يجد في مواجهته سوى أنشودته الخاصة المتفردة بها وحدها: ـ أحبك!!..

الفصل الثاني والعشرون

أُحبك..

هي تلك النغمة المتفردة التي أتقنتها خصيصاً من أجلك..

أُحبك..

هي ارتواء بعد سنوات الظمأ..

هي اشتياق رغم قرب همساتك..

هي انعكاس لجنون رجلٍ أنِف نكهات الحياة وارتضى فقط بطعم الياسمين..

أُحبك...

لن تمر عيناكِ على سطوري إلا بعد إنتهاء الحكاية وخاتمة الرواية..

رواية قاتل مع سبق الإصرار وعاشق بالصدفة..

رواية أدهم وشقرائه التي أخرجت البرئ من مكمن الوحش..

رواية لم يكتب لها أن تكتمل سوى بعالم الأحلام..

عالم أوهامي الذي شيدته من أجلك يا مليكتي..

حبيبتي..

حبيبتي..

أُحبك..

كالعادة.. أنهى سطوره ومزق أوراقه, ربما تقرأها يوماً ما وربما لا..

لا يعرف, هو يشعر أنه يحيا حقبته الخاصة من الهذيان, جنون صحبة عبق الياسمين.

رغم كل شيء كانت تتحرك بخطوات منتظمة, وكأنها آثرت حبس الفيضان بمكمنه. ورغم كل شيء كان بانتظارها..

سيف.. بغروره وكبريائه وعنجهيته اللامتناهية.. ظل بانتظارها

هادئاً.. ترتكز قبضتاه بثبات على المقود وعيناه مغمضتان في حالة منفردة من التأمل ربما لم تكن هي بطلتها.. ربما كانت أخرى منكهة برونقٍ صناعي من البرونز, وغلظة واهية بشفتيها تنشد وهم الإغواء ووهم القيد المحيط برقبته على الدوام..

وآن وقت الخلاص لعله يفوز بالجائزة الكبرى..

يفوز بنفسه قبل أن ينال قربها..

هند.

تمتمت بوهن بعد أن استقرت بجانبه في السيارة: ـ أشعر بالعطش الشديد.

نظر نحوها بشرود: ـ ماذا؟!

همست مرة أخرى بنبرة مخنوقة: ـ أشعر بالعطش, سيف.

كانت تبدو شاحبة بشكل غريب, وجد نفسه يترجل من السيارة ليعود بعد ذلك بسرعة البرق حاملاً بعض زجاجات المياة والعصائر..

كانت تقذف بمحتوى المياه الباردة في جوفها كمن عانى الظمأ لساعات.. تلك هي المرة الأولى التي يراها بهذا الشكل أم ربما هذا الضعف..

همس بقلق: ـ هل أنتِ بخير؟

كانت تنظر أمامها بشفتين مزمومتين وتخفي خلف نظارتها القاتمة نظرة مخيفة تحمل حقداً وغضباً من هذا المخادع الذي اختفى بسارة بين ليلة وضحاها ولا تدرك كيف ولماذا!!

ابتلعت غصتها في ألم ثم تابعت بحشرجة قاتلة لأحبالها الصوتية: ـ سأذهب لمغفر الشرطة.

استدرك عدم قدرتها على الحديث وربما عدم رغبتها ولكن أيضاً تأكد من احتياجها لذراعه القوى لتتكأ عليه وإن كان رغماً عنها, أردف بنبرة هادئة: ـ كما تريدين.

قالها وانطلق بالسيارة دون أن ينبس بحديث آخر, وأغمضت هي عينيها تفكر وتفكر.. وتستند على شعورها بقربه الذي رغم كل شيء بعث في نفسها الراحة.

لطالما استمعت عن قدرة هذا الكوب الأسطورية في تنشيط العقل وايقاظ الدماغ كما اعتاد عامل البوفيه بالجريدة أن يطلق عليه مقهقهاً بسعادة كلما استخدمت عبارته الشهيرة: ـ كوب من الحبر, عم رمضان!

ابتسمت بألم وهي تتذكر اندفاعها الطائش في هذا الحين وكأنها طفلة تهرول بمرح خلف كل لعبة جديدة دون اعتبارات أو حسابات..

صوت عاطف الرفيع أعادها للحاضر من جديد, حاضر جلوسها هي ورامز بقسم شرطة المعادي محطتهما الأخيرة بعد أن مرا على البناية حيث تقطن سارة وعلما كل شيء.

كان المجند الهزيل الجسد يرتشف بتلذذ كوبه الخاص من الحبر الأسود ويتندر بمتعة لا مثيل لها عن آخر زائر لتخشيبة الأفراح كما اعتاد أن يسميها هو وأصدقاؤه!!..

هذا الصندوق الحجري الذي يتناوب عليه كل شكل ولون, فزائري الحبس المؤقت ليسوا فقط أرباب السوابق ومسجلين الخطر.. فهناك مدلل أبيه الذي ربما يبكي كطفلة مراهقة بعد عشر دقائق بالحجز, وأيضاً الراشد الذي يوقعه حظه العثر في تلك القيلولة الميري لأربعة أيام أو أكثر, وغالباً من مثله تجده يتخفى خلف نظارة طبية ويعتبر أن قضاء حاجته أمام الغير من الكبائر.. ويقسم لهم بحياة أمه وأبيه وأيام العز في قريته النائية بمحافظة البحيرة أن ساكني التخشيبة يعدون لأنفسهم الولائم الخاصة من اللونين الأبيض والبني ولكنه وزملاءه لا ينوبهم من الح....

يقطعها ويقهقه: ـ الحب يا آنسة.. الحب يا أستاذ.. لا نشتَّم من الحب جانب!

تنحنح رامز بجدية في محاولة للخروج من بؤرة سرمدية عالم المجند المسكين ليتابع بنبرة أجشة: ـ وأسامة الرازي لم يتولَ أمره أحدهم حتى الآن؟... إكرامية من الخارج على سبيل المثال؟..

لعق المجند شفتيه بعد أن أنهى على ما تبقى من كوب الشاي ليتابع بجدية: ـ لا شيء.. وكأنهم لفظوه.

أنهى عبارته وقهقه مرة أخرى فعلى ما يبدو أسامة اكتسب في ساعات معدودة ما يستحقه من جميع من مروا عليه..

أردف عاطف بجدية: ـ هذا القزم سليط اللسان يظن أنه من طينة أخرى يا أستاذ.. أحمق.. كلنا أولاد آدم وحواء ولكنه الحظ... نعم هو الحظ.

كانت عبارته الأخيرة ساخرة ربما من حاله وربما من حال الدنيا التي قذفته بين زحام وصراخ وعادم سيارات طغى على أنفاسه وزرع بداخله اشتياق لحشائش قريته الخضراء ونسمة الصيف الهادئة المارة أمام منزله بتأني ودون ضوضاء.

جذب رامز ريم من ذراعها ليغادراه فلن يحصلا منه على ما هو أكثر..

زفرت بضيق متمتمة: ـ يجب أن أتحدث مع هذا الأحمق بالزنزانة.. أنا لا أفهم ماذا حدث, وسأجن إن لم أعرف أين اختفت سارة.

تنهد رامز بحيرة: ـ الأمر محير بالفعل.. ولكن الحديث معه أمر مستحيل, ريم.

صمتت وعادت للتفكير مرة أخرى والعبث بهاتفها علها تصل لهند المختفية بدورها.. أردف رامز: ـ يجب أن نتحدث للمحامي, ريم.. مع اختفاء سارة الأمر أصبح محيراً للغاية.

نظرت نحوه بأمل: ـ ستعود رامز.. ليتها فقط تعلم ما وصلنا إليه وما فعلته أنت مع الطبيب.. شهادة حسين سلطان ستغير مجرى الأحداث, خاصة أن الأخطبوط عاصم يعتمد على لغوه المشين ضد سارة.

أغمض عينيه وهو يتذكر أحداث الأمس ونجاح خطته مع حسين سلطان, ولكن يشاء القدر أن تسير الأمور بشكل آخر على الجانب الآخر..

زفر بضيق وهو يتمتم: ـ لا إله إلا الله.. أنت تعلم أن نيتي الخير يا الله ففرج همنا يا كريم.

ابتسامة مرتجفة علت شفتيها.. شعرت أن رامز تخلى عن مبادئه من أجلها ومن أجل الثأر لكليهما هي وسارة.. والآن, وبعد ما حدث يتسلل إليه هذا الشعور الخانق بالذنب.. هذا التناقض الدائم بين نبل الغاية وجنون الوسيلة..

تنهدت بأسى دون جواب.. فقط تراقب تدافع البشر بين ظالم ومظلوم.. دائرة مفرغة لا نهائية, ربما ستبقى حتى الفناء..

ومن بين الجميع أخيراً ظهرت ضلع المثلث الثالث وإحدى الغائبات... هند.

كانت تتحرك بوهن تتكأ على ذراع وسيم يبدو مظهره غير متوائم مع المكان, فهو أحد هؤلاء المتنقلين بحلتهم الباهظة الثمن وأحذيتهم المضادة للأتربة وطوفان الماركات المتناثر على أجسادهم!!.. مكانه يليق بأحد الطوابق الشاهقة الارتفاع بفنادق النجوم السبعة تحت مسمى منطقة رجال الأعمال ممنوع الاقتراب أو التصوير..

ابتسمت هازئة.. فلو الأمر غير الأمر والظروف غير الظروف, لكان هذا الرجل المصاحب لهند مجرد بداية لسبق عن فوارق الطبقات التي تفحلت في المجتمع في الفترة الأخيرة.. في النهاية مجرد رؤية هند بعثت في نفسها بعض الراحة أم ربما الاطمئنان..

هرعت نحوها لتتسمر الأخرى لوهلة لرؤيتها.. لم تتحدث أياً منهما فحديث العيون فسر كل شيء, بل على الأدق فسر حيرة كليهما..

احتضنتها ريم بحنان عندما لمحت تلك الهالة المُهلِكة من الشحوب على وجهها ثم تابعت: ـ متى علمتِ؟

أردفت هند بنبرة ضعيفة: ـ بالأمس.. هاتفني الحارس.

تابعت ريم بضيق: ـ لقد كنت بانتظارها طوال المساء, ولكنها لم تظهر وظللت أهاتفها دون جواب.

تابعت هند: ـ لقد فاجئها.. أنا على ثقة من ذلك, بل فاجئ الجميع.

تمتمت ريم بقلق: ـ تتحدثين عن من؟

ابتسامة ساخرة علت ثغر هند وهي تنبس بغضب جامح: ـ أدهم.

المائدة المستديرة... طاولة الملك آرثر وفرسانه.. حولها تتبلور الحقيقة وتبدأ المفاوضات وتتساوى الرؤوس.. وعلى المائدة المستديرة جلس جميعهم..

شاء القدر أن يكون هو نفس المقهى التي غادرته هند منذ أشهر لتقابل جسد سارة الهاوي بين الحياة والموت.. والآن هي أيضاً هناك وأيضاً دون سارة..

تنحنح رامز قاصداً أن يقطع هذا السكون الذي تمكن من جلستهم ربما من قبل أن يبدأوها.. همس بثقة أثارت انتباه رفيقته وربما أيضاً أثارت حواسها المتحدية التي هربت منها من نهار الحادث المشؤوم.. نبرته الهادئة بعثت

في نفسها الطمأنينة رغم كل شيء.. كان حديثه يمثل ضرباً من الهذيان ولكنه رغم كل شيء تحقق..

حسين سلطان أصبح ورقتهم الرابحة بين ليلة وضحاها.. سيبوح بكل شيء بداية من المتعثرة في ملابسها التي دفع بها عاصم نحو عيادته ليتخلص من فضيحته, حتى انهيار المسكينة الصامت وهروبها من النافذة.

بريق حاد استحوذ على المتحفزة بمواجهته, أردفت هند بنبرة حادة: ـ كيف؟.. هل سيدين نفسه؟!

ابتسم رامز بأريحية توحي بانتظاره لاستفسارها ليتابع: ـ بالطبع لا.. هو سيتمسك بمقولة واحدة أنه رفض إجراء الجراحة وأن عاصم أحضرها ليضعه أمام الأمر الواقع.

أجابته هند بغير اقتناع: ـ ويصدق الجميع ببساطة أن عاصم بهذا الغباء؟! رمقها رامز بتفحص ليتابع بنفس النبرة الهادئة: ـ القاضي لن يهتم بمستوى ذكاء عاصم, خاصة إذا ما أكدت سارة نفس الكلام.

صمتت.. انشغلت مرة أخرى بالتفكير, رامز على حق فتكامل شهادة سارة وحسين سلطان هو نقطة قوية في صفهم الآن.. ولكن المعضلة أين سارة؟..

تسرب الغضب بمكر لدمائها من جديد.. تسارعت نبضاتها الثائرة وتمكنت حمرة الغيظ من وجهها وتصلبت قبضتها على كوب قهوتها الساخن حتى كاد أن يتناثر بمحتواه فوق ثيابها.. دفء قبضتيه احتواها ككل وليس أناملها فقط..

همس برقة: ـ اهدئي.. كل شيء سيكون على ما يرام.

تمتمت بمرارة: ـ وكيف تعلم ذلك؟..

ابتسم ببراءة هو حديث العهد بها: ـ إنه حدسي.

استدارت نحوه في دهشة: ـ ومنذ متى توقن بحدسك, سيف؟!

صمت لوهلة متفكراً, هي على حق.. منذ متى يتحدث بتلك السذاجة؟!!.. الحدس والشعور, بل تلك الهالة الملائكية من الاهتمام والعاطفة التي توحشت بطفولية لتحيط بكليهما وتلقى بورود الأمل والأمنيات فوق رؤوس الجميع!!..

عادت الابتسامة البلهاء لتتمكن من ملامحه ليجيب بسلاسة: ـ تتبدل الصخور بفعل الماء, أبشري.. فقد هبت رياح التغيير!

ابتسمت بشرود.. تعلقت بعبارته الأخيرة..

"رياح التغيير"..

تستشعر نسمتها هنا بين الجميع, ولكن أين صاحبة السبق؟.. كل ما شيدوه وسيشدوه رمال دون سارة ..

خرجت همستها قاسية: ـ سارة..

أردفت بغضب: ـ كل هذا هباء دون سارة.. هل تفهمون؟

بدت صارخة.. هستيرية.. تحبس فيضاناً من الغضب داخلها, ربما لأنها الوحيدة التي قابلت أدهم والتي تحمل وزر خديعته..

عادت لتسرد كل ما يخصه بتفاصيل أكثر, منذ هذا الصباح الذي ظهر بهيئة المنقذ أمامهن حتى اختفى بسارة!.

ظل الجميع واجمين لوهلة.. كلٌ فاتحاً فاه غير مصدق لما سردته بارتجاف ملحوظ.. قواها التي استحضرتها أمام عاصم كانت في أوج ضعفها أمامهم..

ربما المقولة صحيحة نحن نستدعي بأسنا أمام من نمقت ونتهاوى ضعفاً فوق صدور من نحب..

وهي كانت تتهاوى داخلياً.. قبضة سيف عادت لتشد من أزرها من جديد.. دفعة معنوية توازت مع صوت ريم الذي بدا متوازناً رغم خفوته: ـ إذاً نحن بصدد ظهور طرف ثالث.

كانت تتحدث ببديهية وثبات أثار دهشة الجميع حتى استدركوا جميعاً قواعد اللعبة, ليس هناك وقت للفزع..

الأمور بعدها اتخذت منحنى آخر, فسيف بدأ يسرد كل ما يعلمه عن عاصم وأساليبه الملتويه خاصة بعد لجوئه لسعد عتمان..

رامز وريم هاتفا المحامي عدة مرات وهند كانت تستمع بحذر للجميع, تسجل أراءهم بمفكرة صغيرة وترسم وتوصل النقاط علها تفك تلك الشفرة المسماه أدهم.

"القوة من القوت"..

كانت تلك هي آخر عباراته قبل أن ببساطة... يختفي!

يظهر كهاجس أم ربما كشبح من خلف الباب المغلق.. يمرر لها ما يسد حاجتها من الطعام ويغيب وكأنه لم يكن..

في البداية امتنعت عن سد حاجتها ربما.. للحياة, آثرت التيه في غياهب اللاوعي فضلاً عن تذوق واقعها الأليم بجواره.

مر يوم أم ربما اثنان.. لا تتذكر ولكن كل ما توقنه هو ضعف عوزها ووحشة ظلمة الموت التي كادت أن تتمكن من نبضات قلبها, والظلمة الأكثر قسوة هي مذاق الخيانة.. خيانة العهد.. خيانة الثقة.. وحتماً خيانة القلب..

بأنامل مرتجفة جذبت الصحن الممرر عبر الباب المغلق, ابتلعت بعض اللقيمات القليلة في إصرار.. إصرار على البقاء رغم أنف أنوثتها المتباكية على أطلال عشق وُلد ورحل في محرابها هي فقط.

مع مرور الأيام اعتادت وضعها الجديد.. بل ارتفعت معنوياتها بشكل هي لم تدركه! ورغم كل شيء ظهوره بغرفتها بتلك الليلة أجفلها..

كانت عيناه داكنة تحمل أرقاً ربما بدا أبدياً..

ابتسم بثقة عندما لمح انكماشها الغاضب وشراسة نظراتها الموجهة نحوه, ولكنه بثقة توجه ليجاورها على الفراش..

رمقته بغيظ وهمت للمغادرة ولكنه جذبها بقوة ليعيدها مرة أخرى لمجاورته ثم همس بصوت أجش دون أن يستدير نحوها: ـ اجلسي.

استدارت نحوه بصمود ثم تابعت: ـ هل قررت التحدث أخيراً؟

ابتسامة واثقة مرت على زاوية ثغره ليتابع: ـ بل أنا هنا لأسمعك!

رمقته بدهشة: ـ ماذا؟

استدار نحوها ثم بهدوء كرر عبارته: ـ أنا هنا لأسمعك سارة.

نهضت من مكانها ثم نظرت نحوه بازدراء: ـ لا تلفظ اسمي مرة أخرى.. وليس لدي ما أقوله لك.

تفحصها لوهلة ثم تابع: ـ بل لديكِ الكثير.. لنعود للبداية.

ابتعدت عنه خطوات للوراء عندما لاحظت اقترابه منها لتردف بنبرة زاعقة: ـ أي بداية؟

جذبها بقوة غاضبة من ذراعها ليهمس بفحيح غاضب: ـ البداية مع عاصم الرازي, سارة.. الليلة التي تمكن فيها منكِ عاصم.. الليلة التي..

قاطعته بصرخة غاضبة: ـ اخرس.

لم يصمت بل تابع بقسوة: ـ هل تظنين أن المحاكمة هي نزهة عابرة؟.. ألا تعلمين أن الجميع سيخوض بكل التفاصيل ودون رحمة؟.. وبالمناسبة عبراتك لن تكون كافية لمواجهة هذا الطوفان.

كانت تحاول التخلص من قبضة ذراعه دون جدوى, صرخت مرة أخرى ولكن بنبرة متحشرجة: ـ ما بك؟.. وماذا تريد مني الآن؟.

جذبها نحوه بقوة حتى شعرت بحرارة أنفاسه المتحدية وهو يمطرها بعبارته الصادمة:

ـ أريدك أن تنتصري عليه أيتها الحمقاء.

يقال أن جدار الثقة يملك صلابة الزجاج ما إن تحطم لا سبيل لعودته مرة أخرى.. تحطم.. تناثرت شظاياه حولها وما أن حاولت تخطيها اخترقت جسدها كنصل حاد.. ابتسمت بألم لتهمس بنبرة مبحوحة: ـ هذا هو لُبّ الحكاية!

أردف باهتمام: ـ ماذا؟

تابعت بنصف ابتسامة: ـ أنا هي الحمقاء..

لم يبتعد عنها ولم تتبدل ملامحه فقط تابع بنبرة واثقة: ـ نحن غرقى بنهر من الحماقة شئنا أم أبينا!

رمقته بغيظ ثم تخلصت من قبضته بعنف أتبعته بنبرة قاسية: ـ ليس بعد الآن.. أخبر سيدك أن اللعبة انتهت.

ابتسم بتحفز: ـ بمعنى؟.

تابعت بملامح متحدية: ـ أياً كان ما تخطط له فسأضمن لك فشله, أدهم.

كانت جميلة.. شهية.. تبدو كزهرة أقحوان متدثرة بأشواك قسوة واهية يعلم مسبقاً لذة نزعها الجنونية.. لو تجرأت واقتربت من نبضات قلبه لواجهت إعصاراً لا يحمد عقباه..

ابتسم بمكر تمكن من ثباتها لوهلة ليتبعه بجذب متملك لخصرها أسقط كليهما على الفراش لتجد نفسها في لحظات مقيدة تحت سطوة ذراعيه..

لم تصرخ ولكنها واجهته ببريق متحدٍ توازى مع همسة قاسية: ـ لو اقتربت مني سأقتلك.

كانت دقات قلبه جنونية.. أي متعة قاتلة تلك التي يتذوقها الآن, فلتفنى كل القوانين ولتسقط فوق رأسه مائدة الحكماء.. لا يبالي.. فليحتجزها بين أحضانه لأبد الدهر..

أبعد نفسه عنها بجنون خاصة مع شراستها الواهية..

همس بصوت أجش قبل أن يرحل: ـ تبدين ضعيفة.. لم يحن الوقت بعد.

لم تفهم مقصده ولكن بمجرد رحيله تهاوت مرتجفة.. باكية.. فرغم كل شيء ما زال اللعين متمكن من قلبها..

بل هي الملعونة..

ملعونة باسم الحب..

وعلى جانب آخر.. حيث يخفت صوت البحر بفطرته الهوجاء وتدوي جلبة البشر بزعيقهم وغنائهم وتمايلهم الراقص المشروع واللامشروع سعياً وراء الرزق كان يتلون كالأفعى.. يسعى للاستئثار بدور بطولي أمام مخدومه عله ينال وريقات الرضا السحرية..

ارتشف سعيد بضعة رشفات من كوب الشاي الساخن الموضوع أمامه وهو يراقب بإمعان سائقي المركبات الصغيرة يتناوبون كالنحل على محطة الوقود المقابلة, دقائق من السقيا بالذهب الأسود.. آفة العصر.

لطالما حلم بعالم غير عالمه وربما اسماً غير اسمه.. ولو بيده لبدل هذا الجسد المكتنز أيضاً ولكن لا.. الأهم هي الأوراق السحرية, خاصة الخضراء..

كيف كان سيكون الحال لو استيقظ ليجد حاله مالكاً لأحد آبار الذهب الأسود يدهس بقدمه الجميع بما فيهم... عاصم؟.

ـ الريس رشيد سيأتي حالاً.

أخرجته عبارة النادل الضئيل من شروده, صرفه دون اهتمام ليظهر ضيفه بعدها بدقائق.. رشيد الأسيوطي, يبدو من مظهره كأحد الهاربين من حقبة الثمانينات وسارق متبجح لأزياء المعلم زينهم السماحي في مسلسل ليالي الحلمية!!..

على الرغم من أنه أحد أهم الموردين لأصحاب القلوب الميتة وقاتلي الأجرة أمثال أدهم.

الخائن أدهم.. هكذا بدأ عبارته وهو يدوي ويزعق بوجه رشيد الكاظم لغيظه, عبارات.. تلت عبارات وانتهت بصفقة أخرى تطالب بأدهم حياً أو ميتاً..

استمع رشيد إليه للنهاية دون ردة فعل واضحة سوى عبثه المتتالي بطرفي شاربه وابتسامته الغامضة التي لم يدركها سعيد ولم يتكبد عناء التفكير بمعناها!

انتهت المقابلة بعبارة صارمة من حصن القتلة: ـ يومان.

عبارة كانت مجرد مقدمة لحديث آخر ابتدئه بعد مغادرة كلب عاصم كما أطلق عليه.. صوته الغليظ الذي تسلل عبر الهاتف ليلتحم مع ضجيج البحر في معزوفة انتصار تفردت بها أذناه: ـ كما أردت ياسين... لقد ابتلعوا الطعم.

الموجات الهادرة تشكل نغمة خاصة.. نغمة عابثة تشدو بتفرد فوق أوتار قلبه, زفر ببطء ليردف في مواكبة لعبارات محدثه: ـ ممتاز.

صمت الريس رشيد لوهلة ثم تابع بضيق: ـ أنا غير موافق على ما تفعله, ياسين.

ضحك ساخراً: ـ أنت تصر على مناداتي ياسين!

أجابه الريس رشيد بهدوء: ـ وأنت تصر على أن أدهم آخر غير ياسين.

قطب جبينه مردفاً: ـ أليست تلك هي الحقيقة؟

أجابه معلمه العجوز بثقة: ـ لا.. فكليهما نفس الرجل.

لم يود أن يستمع للمزيد, يعلم أن رشيد يساعده عن غير اقتناع ويعلم أن سقوط عاصم أثار شاحذي السكاكين حوله ومن يتمنون سقوطه في ازدياد..

قالها رشيد..

"لولا مطالبة الكبار بسقوطه, لما ساعدتك"..

وهو أصبح لا يبالي.. لا يبالي بجنون التأرجح بين أدهم وياسين..

ولا يبالي بما خسر وبما قد يخسر..

فقط يبالي بمالكة قلبه المحجوزة بين جدارن سطوته ورغم ذلك لا يستطيع الاقتراب منها!.

تنهيدة حارة خرجت من صدره قبل أن يتابع محادثته: ـ صبري مستعد؟

ضحك رشيد باستهزاء: ـ بالطبع مستعد.. وهل سيجد فرصة مماثلة لانهاء خدمته وبهذا الثمن المجزي؟

أردف: ـ جيد.

قاطعه رشيد: ـ فكر مرة أخرى, أدهم.. الأمر لا يستحق.

ضحك بشدة: ـ الآن تقول أدهم؟!

تابع رشيد بجدية: ـ عاصم لن يتركك, أدهم.. وأنا لن أضمن ولاء الجميع.

تابع أدهم بهدوء: ـ أعلم ذلك وأنا على استعداد, لا تقلق.. فقط كما اتفقنا ضللهم حتى يحين موعد المحاكمة ويتم الأمر كما خططت.

زفر شاهين بضيق: ـ كما تريد, ولكن انتبه لنفسك.. أعلم أنك بمكان آمن, ولكن أخشى أن يتوصل أحدهم إليك.

تأمل ظهور خيالها من وراء النافذة ليشرد لوهلة قبل أن يجيب بنبرة مبحوحة: ـ سنكون بخير.

أغلق هاتفه وظل يراقبها.. منذ الأمس لم يرها..

آثر الابتعاد من جديد وقرر أن يتركها لأفكارها علها تصمد بعض شيء..

نعم.. معشوقته ما زالت هشة للغاية.. تحتاج أن تستمد القوة ولكن من نفسها وليس أحد آخر..

ابتسم بألم وهو يتصور مشاعر الكره التي ينبض بها قلبها نحوه ليتمتم بعدها محدثاً نفسه: ـ الأزمات تصنع الرجال, سارة.. تصنع الرجال.

المقولة الشائعة هي.. لا تضع البيض كله بسلة واحدة.. وربما كانت تلك هي غلطته التي لا تغتفر, اعتماده على الأحمق سعيد..

منطق أهل الثقة دون أهل الخبرة حتى ولو كانوا دون المطلوب, سعيد الذي هاتفه منذ ساعة ليعلن بتباهٍ عن اقترابه من التوصل لأدهم.. تماماً كما فعل منذ يومين!

زفر سحابة أخرى من دخان سيجاره العتيق ثم عاد لتفحص ملامحه بالمرآة.. لحيته النابتة دون تشذيب لتجاور بإصرار فج شاربه الكث وأيقونة رجولته التي طالما تفرد بها دون الجميع, عيناه اللتان تمكنت منهما حمرة الأرق والقلق في آن واحد, وأخيراً خصلات شعره المشعثة بعد محاولة أخرى فاشلة للنوم أقلقت سبات زوجته التي تصلبت على الفراش كتمثال حجري بمجرد اقترابه..

ترك الغرفة متوجهاً لحجرة مكتبه لإجراء مكالمته المهمة فهذا الآخر قد يحضر له ما يتمنى وعلى طبق من ذهب.. فقط يفعلها, وسيصبح رجل عاصم الرازي بحق.

هكذا أخبره في المحادثة السابقة ويكررها الآن: ـ أتم الأمر, وستصبح رجل المهام الصعبة.

أجابه محدثه بثقة: ـ أنا لا أسعى سوى لرضاك, سيد عاصم.

سأله عاصم دون صبر: ـ علمت مكانه؟

أجاب الرجل ببساطة: ـ ليس بعد, ولكن اطمئن.. اقتربنا للغاية.

تابع عاصم بغيظ: ـ لا تخبرني أنك أنت أيضاً بانتظار المدعو رشيد؟

ضحك الرجل ساخراً: ـ رشيد لن يشي بأدهم, فهو معلمه الروحي.

عاصم: ـ إذاً من سيفعل؟

الرجل: ـ أحد صبيانه المشتاقين بشدة لرائحة المال وسيقوم بالتنفيذ أيضاً.

عاصم: ـ كما اتفقنا.

الرجل: ـ لا تقلق.. رصاصة واحدة كفيلة بالتخلص منه وسنحضر لك الفتاة.

أغلق الهاتف ثم تخلص منه كما اعتاد في الآونة الأخيرة, متى يتخلص من هذا الكابوس وتعود له سطوة الرازي من جديد؟..

أغمض عينيه ليستعرض كل شيء ربما للمرة المائة.. المحاكمة بعد أيام وهو لديه كل شيء.. شهادة حسين سلطان وصورها مع أدهم.. اختفاؤها الذي رغم كل شيء صب في مصلحته وسيتم ترجمته لهروب منها عندما أيقنت ضعف موقفها وعدم قدرتها على مواجهة حقيقة فضيلة من اتهمته ظلماً!..

ابتسم بثقة وهو يتلمس أشواك لحيته التي أرقته وآن آوان التخلص منها..

نعم آن آوان عودة الرازي من جديد.. وبشراسة.

وكأنها ليلة مظلمة.. طويلة.. قررت المرور ببطء على الجميع.. كانت هند تراقب بريق النجوم في السماء في صمت, تشعر أنها مقيدة دون حيلة ودون قرار..

ريم ورامز مصران على استكمال الطريق نحو المحاكمة رغم غياب سارة..

وسيف يسعى بكل السبل للتوصل للغائبة دون جدوى..

وهي.. هي تجاهد ضد المنطق والعقل واليقين بالخسارة الفادحة التي تنتظر سارة الغائبة.. أي قاضٍ سيحكم لصالح مدعية غير مرئية, ولا أحد يعلم سر اختفائها؟!.. البينة على من ادعى.. وأول بينة مطلوبة هي سارة, المغتصبة المقهورة التي ستتحدى كل شيء وستقف بمواجهة عاصم لتسرد تفاصيل انتهاكها على يديه أكثر من مرة منتهية بمحاولة قتلها!

أي جنون هنّ بصدد مواجهته؟.. وأي عبث هذا الذي يختبرونه؟.. والأهم أين سارة؟..

كانت تمسك برأسها الذي كاد أن ينفجر من ألم الصداع والأفكار..

رسالة نصية غامضة التوقيت هي التي أنقذتها..

بلى لقد زادت من حيرتها وأثارت جنونها وحتماً كانت صاحبة اليد العليا..

"لا تجزعي ولا تخافي, سأظهر بموعد المحاكمة.. سارة"

الفصل الثالث والعشرون

"لا تجزعي ولا تخافي, سأظهر بموعد المحاكمة.. سارة"

ضغط على زر الإرسال ثم ألقى بالهاتف بعيداً ليلتحم بأمواج البحر مغادراً دون رجعة.. فخطته كانت تتلخص بضمان سير القضية حتى وإن غابت سارة.. ليضمن هو ظهورها بالوقت المناسب.

علت الابتسامة ثغره وطل ببصره مرة أخرى على نافذتها.. مضت أيام منذ آخر لقاء لهما..

عاندته وتلبست بدثار قوة هي أبعد ما يكون عنها..

وهو.. هو أمامها أضعف ما يكون ولو بيده لأبقاها لنفسه للأبد ضارباً بكل شيء عرض الحائط..

زفر بحرارة ليجد خطواته تتجه نحو غرفتها من جديد.. لقد حان الوقت المصارحة يا سارة.. ولا سبيل سواها الآن.

كانت جالسة على الفراش منكمشة وقد أحاطت ساقيها بكلتا ذراعيها في سكون مستندة برأسها على ركبتيها المضمومتين.. ملامحها واجمة دون تعبير واضح..

فقط شرود لا يعلم أهو بماضٍ أم حاضر أم ربما خوف من مستقبل مجهول بسببه..

ظل ثابتاً مكانه ينظر نحوها بصمت ولكنها لم تتحرك ولم تنتبه له وكأنه ببساطة غير مرئي!.

دلف بثبات داخل الغرفة متوجهاً للفراش ليجاورها كما المرة السابقة لكنها لم تهرب كما فعلت قبل ذلك, بل لم يتحرك لها جفن.. صمود غامض أم ربما شجاعة حمقاء!.

أسند رأسه على حافة الفراش ثم تنهد براحة ليتابع: ـ من بين كل الأماكن أجد راحتي بتلك الغرفة.

لم يستدر نحوها ليتبين ملامحها, ولو أنه استدار لم يكن ليلاحظ فرق.. كانت تبدو كمنحوتة من الشمع ولكن بقلب لا يوجد في الكون دفء يضاهيه.. مهما جاهدت لإخفائه, فنبضاته المنتفضة كانت أشبه بناقوس الحب الصارخ.

ابتسامته التي أدمنت زاوية ثغره كانت حاضرة ليردف بعدها بنبرة هامسة: ـ أنا من يجب عليه كره الأماكن المغلقة, أتدركين لما؟

لم تجب وكأن الحديث غير موجه إليها

استكمل حديثه بنفس الهدوء: ـ لأنني سبق أن اختبرت الاحتجاز, سارة.. وأعلم جيداً آلامه.

بتلك اللحظة نظرت نحوه, عيونها باكية وملامحها تحمل شجن ليالٍ قاسية.. لم تتحدث ولكن عينيها كانت تصرخ غضباً..

"تدرك آلامه وتذيقني إياها بسخاء!"..

تأملها بحنان وكأنه يدرك حديثها الصامت.. أردف بنبرة حزينة: ـ لكنني أعلم جدواها, فلولاها ما كان أدهم وربما هلك ياسين.

كان الشرود قد تمكن منها من جديد.. لم تدرك مغزى عبارته, ولكنها أيقنت أن أدهم وياسين هما الرجل الذي تسبب في تعاستها وما زال..

همست أخيراً بعد صمت طويل: ـ انتهيت؟

كانت نبرتها قاسية, نبرة تطالب برحيله دون تردد وكأنها ألفت تلك الوحدة التي أجبرها عليها واعتادت ادمانها.

أجابها بهدوء متحدياً: ـ لا

عادت لصمتها مرة أخرى متمسكة بنفس الثبات المتحدي رغم طوفان القلق الغضب الذي يعتصرها من الداخل, وكأن عزلتها المفروضة عليها بدلتها.. أوجدت امرأة أخرى مختلفة تحمل في نظرتها صموداً لم يعهده بها من قبل..

استدار نحوها بكامل جسده في رغبة فطرية لجذب انتباهها ليبتسم بثقة متابعاً: ـ ألا تودين أن تعرفي من أكون سارة؟

ابتسمت بمرارة لتجيب على الفور: ـ لم أعد أبالي.

ظل مرتكزاً بنظراته نحوها ثم أردف: ـ أكيد؟.

جاوبت بإصرار: ـ أكيد.
بعفوية غاضبة وجد حاله يجذبها نحوه بتملك, همس بأذنها: ـ كاذبة.

كانت عيناها تشع احمراراً غاضباً, حاولت التملص من قيده ولكن دون جدوى.. استكانت للحظات ولكن ببصر تعمدت ألا يلاقي عينيه, مبتعدة بوجهها عنه بقدر ما استطاعت, رافضة هذا الشعور النابض بكرهه وعشقه بنفس الوقت.

كان يراقبها بصمت.. بعد لحظات استدرك قسوة قبضته على ذراعها النحيل فتركه بندم زافراً بغضب شديد ليخرج ما في جعبته دون تردد..

وتراقصت أمام عينيها تلك الصورة التي تحوي كليهما بسيارته..

في البداية لم تدرك ماذا يحدث.. ولكنها عندما استدركت خيانة تلك الحظة الخاصة بينهما وجدت نفسها تنتفض مبتعدة عنه بصراخ انتهى بضربات غاضبة بقبضتيها الضعيفتين فوق عضلات صدره..

كانت ضرباتها ضعيفة ولكن قاتلة, صراخها يمزقه من الداخل.. وكأنها دون وعي تشق جراحه بسكين حاد.. وجد نفسه يحتضنها بقوة..

انتفضت كطير مذعور محاولة الهرب منه ولكنه شدد من احتضانها بتملك حتى تمكن منها السكون في النهاية وتحولت ثورتها لنشيج خافت..

بصوت مرتجف تحدث مكملاً ما بدأه: ـ عاصم سيقدم تلك الصور في المحاكمة, وأثق أنه لن يكتفي بهذا بل سيحضر من يشهد على علاقتنا الآثمة.

ابتعدت عنه بعنف ثم رمقته بنظرة لائمة: ـ وتخبرني هذا؟!.. أي لعبة حقيرة تدبرون الآن؟

فرك جبينه بيأس ليردف بمقامرة غير مضمونة العواقب: ـ اللعبة بدأت يوم أن أراني عاصم صورتك مطالباً بتصفيتك يا سارة.

شحوبها كان قاتلاً.. كانت تشعر أنها تستمع لكذبة غير قابلة للتصديق..

أغمض عينيه مردفاً بهلاك الاعتراف: ـ نعم حبيبتي.. حبيبك قاتل محترف.

قنبلة.. ألقاها ليجني بعدها ثمار الاعتراف..

أولها: كان انكامشها في ركن الغرفة مبتعدة عنه في وجوم متأملة ثورة البحر المظلم..

كان يدرك أن الطوفان قد بدأ ووجب اكتماله.. ظل يتحدث ويتحدث وكأن في افراغ حمولته القاسية راحة.. حمولة أحنت ظهره منذ تلك اللحظة التي هرب فيها ياسين مجاوراً للحظة غدر قمرية, ليعود مع ضياء شمسٍ صادقة ولكن بعد فوات الآوان.

همس بحزن: ـ ولكن الأوان لم يفت بالنسبة إليكِ, سارة.

كانت رؤيتها ضبابية من كثرة الدموع, فما سرده كان فوق احتمالها.. ربما عشقت خائن, ولكن أن تعشق من كان مكلف بقتلها!..

أتلك صدمة قابلة للامتصاص؟!!

كانت تتصور أنها أصبحت محصنة ضد الصدمات, ليأتي هو ويقتلها من جديد بما يفوق احتمالها تلك المرة..

وجدت نفسها تنتفض رغبةً في الهروب, ربما الهروب منه.. وربما الهروب من كل شيء حتى نفسها..

لم تدرك اللحظة.. ولم يدركها هو.. فقط وجدت نفسها تهرع متعثرة في آلامها والرمال.. وهو خلفها يصرخ منادياً باسمها في ندم.. كانت خيوط الفجر قد أوجدت لنفسها في السماء درباً كدرب صوته اللاهث خلفها في إصرار..

صرخته الأخيرة بدت قاتلة, لجمتها وصلبت قدميها في ذعر فقد كانت ممزوجة بدوي طلقة غادرة.

كان يقود سيارته بأقصى سرعة.. يسب ويلعن ليس فقط في الخائن الذي قرر بيعه وأدهم بالمال, ولكن بمعرفته المتأخرة للخبر ومحاولته الفاشلة للاتصال بأدهم الذي لا يحتفظ بهاتف لأكثر من يوم.

شعر أنه يسابق الريح والزمن خاصة أن الطريق خالٍ ولا يوحي بأي سيارة على مدد البصر..

وصل الريس رشيد أخيراً ولكنه لم يلمح أي شخص.. ترجل من السيارة وهو يتوعد ويلعن وينفجر قلقاً.. داعياً ألا يكون التنفيذ قد تم بالفعل..

لكن صوت أدهم أثار انتباهه وبعث بنفسه الطمأنينة للحظات.. كان يركض متعثراً دون تركيز ويصرخ بأعلى صوته منادياً امرأة.. ورشيد يبحث ببصره عنه وعن الآخر في ضوء الفجر الخافت.

لحظة.. بها قد تفقد حياة وتنقذ أخرى.. منذ سنوات كاد رشيد أن يفقد حياته بلحظة غدر وأنقذه أدهم.. وكأن الدنيا دوارة على الجميع..

فوهة السلاح ظهرت أخيراً ورغم سرعته للإنقضاض على الجاني, إلا أن الطلقة كانت قد نفذت بعشوائية مخيفة فأصبح لا يعي أين سينتهي سكناها وكيف.

ـ سارة...

اخترقت أذنيها بتحشرج صارخ مقيت.. تسمرت للحظات ثم استدارت تصرخ دون وعي راكضة بتعثر نحوه أم ربما نحو دمائه.. كان قد تهاوى على الرمال مخضباً صفرتها بحمرة قانية وقد قاربت السماء على الهرب من عينيه..

تهاوت على ركبتيها لتجاهد ناطقة في ارتجاف: ـ أدهم.

لحظة.. لحظة بدا فيها العالم صغيراً للغاية.. بدا كل شيء ضئيلاً سواه..

شعرت بقبضته تتشبث بيدها وكأنه حديث صامت بين أنامل عاشقين.. وكأنه يقول لها..

"أحبك.. وسامحيني.. ووداعاً.. بنفس الحين"

جحظت عيناها برهبة, وجدت نفسها تصرخ:

ـ لا.. لا..

أغمض عينيه في سلام مودع فأكملت بهستيريا: ـ أدهم.. أدهم..

صفير الهواء حاد بجوار أذنيها وصوتها أصبح مكتوماً وتآمرت عبراتها عليها لتزيح صورته من أمام عينيها.. تشبثت بقبضته بدورها بقوة وكادت أن تضيع في دوامة فقدانه, لولا تلك الذراع الفولاذية التي أزاحتها بعنف ليتوجه صاحبها نحو أدهم..

كان بادياً أنه قد خرج لتوه من معركة ضارية هو المنتصر بها.. سحب رشيد جسد أدهم ليحمله فوق كتف واحدة بكل يسر ثم زعق فيها بلهجة آمرة: ـ هيا ليس لدينا وقت.

كانت ما زالت رابضة بموقعها فوق الرمال تحملق في الفراغ بعده بذهول..

زعق رشيد فيها مرة أخرى بنبرة أقوى أفاقتها من غيبوبتها وكان بالفعل قد ابتعد عنها عدة أمتار: ـ هيا ليس لدينا وقت.. يجب أن أخرج تلك الرصاصة قبل أن يموت.

صدى عبارته تخلل عقلها وتمكن منها ليسحبها روحاً وجسداً خارج تيه فقدانه.. استقامت لتلحق بهما متعثرة ووسط دموعها ابتسامة أمل تهمس بفرح: ـ أدهم حي.

بعد صرخة ألمه الأخيرة حل الصمت على المكان ولم تعد تستمع سوى لأمواج البحر.. كلما أغمضت عينيها تتذكر هذا السكين الساخن الذي التحم بجراحه ليقتلع رصاصة الموت قبل أن تتسلل بخبث داخل جسده, وهي بجانبه لا حول لها ولا قوة ولا يوجد لديها سوى هذا المنديل الذي تجفف به عرقه من حين لآخر..

همهمة متقطعة أيقظت السكون لينتفض الريس رشيد متجهاً نحوه بابتسامة انتصرت أخيراً بعد قلق ساعات: ـ أخبرتك خذ حذرك من الخيانة يا صديقي.

همس أدهم بصوت ضعيف: ـ سارة.. أين سارة؟

نظر رشيد نحوهما نظرة ثاقبة ليردف بعدها: ـ في الحفظ والصون.

كانت تنظر نحوه بشوق يضاهي نبرته التي فضحت لهفته عليها, حرك عينيه بوهن ليلمحها.. منكمشة على أحد المقاعد تحمل ملامحها بكاء ساعات لم ينقطع..

تنهد بتعب ثم تابع موجهاً حديثه لرشيد: ـ أنحن بآمان؟

زفر رشيد بضيق: ـ حتى الآن.. الخائن مكوم بسيارتي لا حول له ولا قوة, ولكن من أرسلوه ينتظرون الرد.. وقد تأخر.

استند أدهم فوق ذراعه بمثابرة أيقظت آلامه فأسنده رشيد على الفور وانتفضت سارة قلقاً عليه.. غاب للحظة مع عينيها قبل أن يهمس بتحدي: ـ سيتصل بهم ويخبرهم أن المهمة تمت بنجاح.

نظر نحوه رشيد بتمعن ثم أكمل بدوره: ـ وماذا عنها؟.. مهمته كانت قتلك وتسلميها لهم.

وقع كلمات رشيد عليها كانت مرعبة, ارتجافة عامة تمكنت منها وهي تتصور فقدانها لأدهم وتسلميها كالذبيحة لعاصم بعد كل ما حدث..

وكأن ملاذها الآمن سيظل أدهم إلى النهاية!..

كان أدهم يراقبها كاظماً غيظه, يفكر فيها وما كان قد سيصيبها بسببه..

تمتم بغضب مستعر: ـ نفَّذ المهمة ولم يجد الفتاة وانتهى الأمر.

صمت رشيد لوهلة ثم زفر بعمق: ـ ماذا تخطط يا أدهم؟

ترك رشيد ونظر نحوها بعمق ثم أجاب: ـ سأوصلها سالمة بموعد المحاكمة, رشيد.. مع دليل براءتها وحجة دعواها ضد الرازي.

"المحاكمة"

قضية رأي عام.. تبارى المراسلين أمام المحاكمة لالتقاط عنوان العدد المنكَّه بصورة دخوله..

الرازي..

كان يخطو بتباهٍ اعتاده.. يرتدي ساعته الرولكس مصدر تفاؤله وحلة أنيقة ابتاعها خصيصاً من أجل هذا اليوم الذي قرر أن يجعله ساعة انتصاره.. رغم تأكيد مخدومه الجديد قتل أدهم إلا أن اختفاء سارة ما زال يثير بنفسه القلق..

قلق قرر أن يتغلب عليه بابتسامة ثابتة وملامح متحدية للجميع..

شاربه الذي حرص على تشذيبه بإتقان, وأنفه الذي عزم أن يظل شامخاً مهما حدث, وحاجباه اللذان كان يرتفعان استهزاءاً بكل سؤال يمر إلى أذنيه..

كان يستمع للغو ثقة محاميه الأخير الذي رتب أوراقهم ليس فقط بما يدين سارة, ولكن سيحطمها هي وكل من تسول لها نفسها بتحدي رجل مثله.. اتخذ مقعده وهو ينظر بشماتة للجانب الآخر..

كانت هند قد دخلت لتوها تسبقها نظرة اغتياظ نحوه.. بدت صامدة على الرغم من حالة الغضب والقلق المنتفضة بداخلها لاختفاء سارة حتى تلك اللحظة, وربما تشبثها الأحمق بالرسالة الغامضة التي وصلتها باسمها إلا أنها كعادتها قررت أن تتدثر بغطاء القوة للنهاية وتدمر كل لحظة زهو قد يتصورها هذا الرازي..

جذبها سيف برقة من ذراعها ليهمس مطمئناً: ـ هند.. اجلسي.

كانت نظراتها ما زالت مرتكزة على عاصم ببأس.. أردفت بغضب هامسة: ـ سارة غير موجودة, سيف.

تنهد سيف بضيق وكأنه يشعر بفشل ذريع أحاط به وألجمه فلم يستطع الوصول لتلك المختفية التي ابتلعت الأرض كل أثر بشأنها..

أردف بنبرة تصطنع الثقة: ـ المحامي سيتكفل بالأمر هند.. هذا المتباهي هو سبب اختفائها ولن نتهاون عن فضحه.

ضحكت هند بسخرية: ـ وهو أيضاً لن يتهاون عن الفضائح سيف.. بكل السبل لن يتهاون.

ربت سيف على كتفها وهو يتجول ببصره في القاعة الواسعة؛ ريم ورامز اتخذا المقعد خلفهما.. يمسكان بعدة أوراق وكأنهما يرتبان ويتوقعان أسلحة

كل طرف, حسين سلطان يجلس بأحد الأركان يتحاشى النظر نحو رامز, وكأن عاصم سيلتقط خيانته..

عاصم يضجع بزهو كاذب وبجانبه كلبه الوفي ينفث في أذنه على ما يبدو بعبارت مطمئنة ويشير لبعض الأقلام المأجورة التي ستتباهي بانتصاره بعد المحاكمة..

الصورة تبدو مكتملة وكأنه مسرح معد والعرض سيبدأ بعد دقائق مع دقات مطرقة العدل فوق طاولة المفاوضات.. ولكن يغيب عنها أهم طرف..
الضحية وصاحبة الحق والدعوى, وربما الدفاع ضد من سينهشون لحمها دون هوادة..

أغمض سيف عينيه وهو يتصور تلك الرواية التي اصطدمت معلنة عن نفسها بزهو فوق صفيح سيارة محبوبته ويشهد هو نهاية فصولها الآن.. نهاية ماسخة تحمل ابتسامة صفراء لعاصم.. وغضبٌ يخفي خلفه قلق باكي لهند..
ومحاولة مستميتة للصمود من ريم, ولكنها نهاية دون صاحبة دور البطولة..
دون بريئة الملامح الشقراء التي تقف الآن على بعد أمتار منهم جميعاً وعلى ما يبدو أتقنت دورها بقسوة لتصبح في لحظات ملكة العرض!

لم تشعر هند سوى بأنامل سيف تشد على ذراعها دون قصد لتنظر نحوه بدهشة نبهتها لبصره المتحجر نحو مدخل القاعة.. تيبست وغابت العبارات عن لسانها لتشير لريم لتستدير بدورها هي ورامز في ذهول فرح أيقظ حواس عاصم الذي كان يراقبهم رغم ثقته المصطنعة للانتصار.

حمرة عينيه بدت بغضب شيطان وهو يستدير ليلمح تلك الأنثى التي تتهادى بثقة متحدية الجميع, لولا ملامحها التي يحفظها عن ظهر قلب لأقسم أن تلك المتبخترة أمامه امرأة أخرى؛ كانت ترتدي حلة أنيقة بلون رمادي ووشاحاً مزركشاً بألوان قاتمة تدعي الوقار.. تخفي ملامحها خلف نظارة سوداء وتتراقص فوق شفتيها ابتسامة متحدية, قد تخفي عينيها ولكنه يعلم حتماً أن تلك الابتسامة الكريهة من أجله..

ضم قبضته بغيظ وهو يلمح تقدمها لتستقر واقفة بمواجهته مباشرة قبل أن تخلع نظارتها الشمسية وتستقر نظرتها عليه بثقة!

كانت القاعة صامتة تماماً.. لحظة لم تكن في احتياج لمطرقة قاضٍ ينبئهم بوجوب السكوت.. فصاحبة السبق أخرستهم جميعاً بمن فيهم هو.. ولم يكن صوته فقط هو الغائب بل نظرته أيضاً التي تركز سخطها على ملامحها دون أن يدرك القبضة الناعمة التي أحاطت بخصرها ليجذبها صاحبها بتملك مريب وهو يهمس: ـ من هنا حبيبتي.

تهاوى على مقعده وهو يهمس بحنق متوقد يوازي صرخة غضب نافذة بصدره قبل الجميع: ـ أدهم.

محكمة..

العبارة لم تكن تستدعي الصمت تلك المرة, فالكل كان ما زال مترنحاً بغيبوبة ظهور سارة وأدهمها من الفراغ.

استدركا كلا من هند وريم نفسهما لتربت ريم بسعادة فوق كتفي سارة وتشدد هند على قبضتها بعد أن رمقت أدهم بنظرة حانقة.. ابتسمت سارة نحوها بثقة مومئة برأسها في أريحية غريبة!

كان محامي سارة بالطبع هو البادئ.. يسرد تفاصيل الواقعة ويزعق بعبارت ويخفت صوته في أخرى, يرمقه محامي عاصم باستهزاء ليتبارى كلاهما بساحة عراكهما الأزلية يشدو كل منهما نشوة انتصار فوق أنقاض آخر.

محامي عاصم شرع في استدعاء الشهود وكما توقعت هند اللعبة كانت على سمعة سارة, ربما غاب أسامة وأصبح لغوه مجروحاً, ولكن عاصم لم يتوانَ عن الاستعانة بنوال التي وجدتها فرصة لبث سمها والحصول أيضاً على مقابل لهذا السم!..

بعد نوال كان وقت الاستعانة بالصور خاصتها مع أدهم الذي كان بنفس الوقت يجاورها ويحتوي أناملها بين قبضتيه في ثقة!..

وكما حدس أدهم كان الشاهد التالي حارس العقار الذي أكد للجميع تلك العلاقة المستترة بين الجار ومدعية الشرف التي استقبلته بمنزلها على ما يبدو أكثر من مرة..

كانت هند تنبس بسباب وتتوعد في نفسها هذا الكاذب التي قذف سارة بما ليس فيها, وكأن النساء وحدهن دون حائط رجولي هنَّ بئر خطايا هذا المجتمع.. ولكن ريم كانت تنظر من حين لآخر نحو حسين سلطان الذي اقتربت موعدة شهادته ورغم طمأنة رامز إلا أنها بدورها استبد بها القلق..

اضجع عاصم بخيلاء بعض الشيء بعد أن مزق الشهود سارة أمام عينيه ونظر نحو صديقه الطبيب بابتسامة رضا منتظراً آخر ورقة ستحمل نهايتها بكل تأكيد.

كانت سارة بدورها صامتة تستند بأناملها فوق قبضة أدهم دون ملامح واضحة, رغم هالة الثقة التي أحاطت بها في البداية إلا أن الأمر كان مؤلماً ولم يكن هيناً أبداً كما نبهها أدهم.

نظر القاضي نحو الطبيب بتحفظ ثم تابع: ـ اسمك كاملاً..

أجاب الطبيب متعرقاً: ـ حسين.. حسين إسماعيل سلطان.

تابع القاضي بنبرته الأجشة: ـ مهنتك؟

بصوت لم يكون واضح تابع الرجل: ـ طبيب..

زعق القاضي: ـ ماذا؟

الطبيب: ـ طبيب نسائي.

نظر المحامي سعد عتمان نحو الشاهد بثقة ليبادر: ـ ما قولك في توجه المدعوة سارة عبد العزيز ريحان لعيادتك الكائنة بحي المعادي بغرض إجراء جراحة إجهاض؟

أخرج الطبيب منديلاً ليجفف به نقاط العرق المتصببة من جبهته بإصرار ثم تابع:

ـ نعم.. جاءت.. زارتني بالعيادة.

المحامي بابتسامة ساخرة: ـ لماذا؟

الطبيب: ـ من أجل إجراء جراحة إجهاض.

المحامي: ـ وحدها؟

الطبيب: ـ لا.. لم تكن وحدها.

انطلقت بعض الهمهمات بالقاعة واستدرك المحامي مفاجأة أرجعها لاضطراب الطبيب ليتابع بصوت قوي: ـ هل تعاني من النسيان دكتور؟!.. فأقوالك بالنيابة تؤكد أن الفتاة جاءتك وحدها مهددة بقرابتها للسيد عاصم الرازي..

صمت حسين لوهلة بدت وكأنها دقائق لا نهائية لعاصم خاصة عندما أردف بإصرار:

ـ لم تكن وحدها.. وعاصم هو من طلب مني إجراء الجراحة بصفة شخصية.

كانت أنفاس سارة طاغية بتلك اللحظة واكبتها ريم بهمسة هادئة متابعة: ـ اطمئني سارة كلنا معك, فقط واكبي شهادة الطبيب.

وبنفس اللحظة استدعى محامي عاصم غضبه ولم يستكمل استجواب الشاهد نظراً لتغيير أقواله عما ذكر بمحضر النيابة, ولكن دون جدوي فحسين سلطان إن تركه محامي عاصم فالتقطه على الفور محامي سارة ليسرد الرجل بأريحية الصدق كل شيء.. بداية من رغبة عاصم بإجهاض خطيئته حتى انهيار الفتاة ومحاولتها اليائسة للانتحار..

كان عاصم قد تخلى عن تزمت ربطة عنقه وخيل له بتلك اللحظات أنه حتى نسمات الهواء تآمرت على أنفاسه.. ومحاميه بجانبه يتصفح أوراقه ويبعث إليه بنظرات مطمئنة رغم خيانة الطبيب البائس.. ولكن عاصم لم يكن بتلك

اللحظة يفكر فقط بالطبيب بل كان يفكر بمغمضة العينين في تركيز مريب وبجانبها هذا الذي يبدو أن يحمل مفاتيح النهاية بجعبته..

استدعاء القاضي لسارة حان.. وبدت الأنفاس كلها مكتومة بتلك اللحظة..

توجهت نحو المنصة بخطوات ثابتة وملامح مستكينة رغم كل شيء.. نعم هي الآن ستكون العرض المجاني للجميع وستسرد ما لا تقوى امرأة على سرده.. بودها أن تنسحب.. أن تهرب.. أن تختفي بأحضان ياسين ولكن لا مفر.

كان محامي خصمها يسألها متبجحاً, يخطو بفجور فوق أنقاضها ولكنها كانت رغم كل شيء ثابتة كالصخرة, بل حالة غامضة من الصمود أمام كل شدَّة.

تحكي ما حدث من عاصم منذ وقت الليلة المشؤومة, تخفض بصرها خجلاً أمام كل سؤال جارح ولكن تجيب.. لا تخطئ ولا تهرب.

هربت عبرة من عينيها عندما تجرأ المحامي بلفظ أحرجها, ولكن أنقذها محاميها بالاعتراض وطاوعه القاضي..

مرت اللحظات بطيئة حتى أظهر المحامي أهم سلاح لديه.. الصورة.

كان يتهادى بالقاعة بنبرة ساخرة ويلقى بالإتهامات على مدعية الشرف التي لا تمانع بوجود أصدقاء حولها بحميمية زائدة عن اللزوم..

اعترض المحامي ووافق القاضي ولكن لم يمنع هذا من ابتسامة الانتصار التي راودت عقل الخصم رغم تأرجح كل الثوابت.

زفرت سارة بهدوء والقاضي يكرر سؤاله من جديد: ـ ما قولك في تلك المستندات, سارة؟.. وما علاقتك بالمدعو أدهم شاهين؟

ابتسمت بثقة بعد أن رمقت عاصم بزاوية بصرها بنظرة متحدية ثم أجابت: ـ المدعو أدهم شاهين هو زوجي, سيدي القاضي.

تعالت الهمهمة بالقاعة مرة أخرى مع صرخة من الدهشة هربت من ثغر ريم, وارتطام قبضة عاصم دون وعي وبغضب فوق مقعده محدثة دوياً قاسياً..

أعاد القاضي سؤاله مرة أخرى: ـ من يكون أدهم؟..

أجابت بسارة بثقة: ـ زوجي, سيدي القاضي.

القاضي: ـ ومتى تزوجته, سارة؟

سارة: ـ منذ أيام وبعد انتهاء مهلة العدة كما الشرع, سيدي القاضي.

القاضي: ـ ووقت تلك الصورة كان أدهم زوجك, سارة؟

سارة: ـ بالطبع لا.. فلم تكن مهلة العدة قد انقضت بعد, ولكنه كان يوصلني لكل مكان خوفاً عليّ من بطش عاصم.

القاضي: ـ وهل كان يتردد عليكِ بمنزلك كما شهد حارس العقار؟

سارة: ـ أدهم تردد على المنزل مرتين فقط, الأولى بالمصادفة وقت أن تمت مهاجمتي بغرض القتل وهو من أنقذ حياة كلانا أنا وهند.. والثانية كانت أيضاً بوجود هند ليخبرني أن المخفر استدعاه للشهادة, ولم يتخطَ عتبة الباب.. وربما ظن الحراس وقتها أنني سمحت له بالدخول.

كان الجميع يستمع لسرد سارة الواثق في ذهول, خاصة بعد أن سألها القاضي عن ليلة اختفائها وحريق المنزل.. وأخبرته أن فاعل خير أخبرها بتهديد أسامة وكانت تشعر بالجزع وهاتفت أدهم الذي شعر بالقلق عليها وأصر على الرحيل حرصاً على سلامتها..

بدت كل الأوراق الرابحة بصفها في لحظات, واستشعر عاصم صداع رأس قاتل قرر الإحاطة به ودخول غير محمود العواقب بدوامة من الجلسات وقلب الموازين ربما من حيث لا يعلم.. حدسه كان متواكباً مع ورقه صغيرة ناولها أدهم لمحامي سارة طلباً لاستدعاء شاهد بعينه..

رجل كان يبدو على أعتاب الخامسة والأربعون من العمر بملامح متهالكة ربما بسبب سنوات إدمان لم تنقطع.. تخطى الرجل الجميع ليرمق البائس سعيد بابتسامة غامضة ثم يقف بين يدي القاضي ليجيب بسلاسة عن اسمه وعمله وملفه الجنائي الذي يحمل من الجرائم ما لا يعد ولا يحصى.. لينهيها بقنبلة الموسم!!..

"نعم أنا من حاولت قتل المدعوة سارة عبد العزيز ريحان, والإتفاق كان مع هذا الرجل"

انتفض سعيد في فزع والرجل الغامض يسرد ما تم بينهما من اتفاق على قتل سارة بتوجيه من عاصم.. يتحدث عن تفاصيل بالطبع لم يكن يعملها سوى أدهم, كاد سعيد أن ينتفض صارخاً ليخبر الجميع أن الإتفاق كان مع أدهم بنفسه وليس سواه بمنطق الذبيح وهو يُقتَل..

"عليَّ وعلى أعدائي!"

ولكن عاصم استدرك حماقة مخدومه بنظرة أرعدت فرائصه بعد أن كان سيدلي اعتراف كامل بجرمهما في لحظات..

ولكن رغم كل شيء كانت الأدلة تتساقط فوق سعيد وعاصم.. زياراته المتكررة لمكان صبري الشاهد المغمور الذي سقط من السماء, والتي لم تكن سوى للمقهى الشعبي الذي توصل من خلاله لأدهم قبل ذلك.. هاتفه الذي أجرى عدة اتصالات بالفعل وبيانتها مسجلة على هاتف المدعو صبري والذي لم يكن سوى أحد أشباح أدهم التي تظهر وقت اللزوم..

كانت القاعة تبدو وكأنها مظلمة والجميع غائب سوى رجلين يرمقان بعضهما بتحدي؛ عاصم الرازي.. وورقة آس البستوني التي اختارها بإرادته لتكون وثيقة خسارته في النهاية.

"حكمت المحكمة حضورياً بالسجن خمسة عشر عاماً على المدعو عاصم الرازي"

رفعت الجلسة

وكأن الحياة دبت بجسدها من جديد.. كانت تتقبل التهاني من الجميع بعد معركة ضارية استمرت لثلاث أشهر.. عاصم وكل سبل الإنكار التي اتخذها وجزعها من أن يُلقي بأدهم فداءً لغضبه في النهاية.. ولكن الغريب أنه لم يفعل وكأنه كان يود الخروج من الأزمة للإنتقام منه على طريقته الخاصة.

كانت تتجول بعينيها بحثاً عنه, هو من كان سندها طوال الشهور السابقة.. يظهر بجانبها وقت أن تحتاجه ويختفي في لحظات وكأنه لم يكن.. وكأنه ليس زوجها!!..

أخبرها هامساً منذ أشهر بصومعة عشقهما وعذابهما: ـ ثقي بقلبك سارة..

ووثقت بقلبها ووقعت على عقد زواجها منه.. وكيف لا تثق بمن كاد يُقتل أمام عينيها ومن أجلها حتى وإن كان بأحد الأيام قاتلها!..

ارتجفت شفتيها عندما استشعرت ورقة مكومة بحقيبتها بخطه..

أُحبك..

هي تلك النغمة المتفردة التي أتقنتها خصيصاً من أجلك..

أُحبك..

هي ارتواء بعد سنوات الظمأ..

هي اشتياق رغم قرب همساتك..

هي إنعكاس لجنون رجلٍ أَنِف نكهات الحياة وارتضى فقط بطعم الياسمين..

أُحبك...

لن تمر عيناكِ على سطوري إلا بعد إنتهاء الحكاية وخاتمة الرواية..

رواية قاتل مع سبق الإصرار وعاشق بالصدفة..

رواية أدهم وشقرائه التي أخرجت البرئ من مكمن الوحش..

رواية لم يكتب لها أن تكتمل سوى بعالم الأحلام..

عالم أوهامي الذي شيدته من أجلك يا مليكتي..

حبيبتي..

حبيبتي..

أُحبك..

الخاتمة

سيارة صغيرة تحمل ثلاث نساء, إحداهن تقود الدفة كما اعتادت في صمت, وأخرى تستند برأسها فوق المقعد الخلفي مبتعدة في لحظات ثمينة عن بحثها المعتاد عن المتاعب.. والثالثة كانت تلتهم الطريق بعينيها.. بحثاً عنه!

زفرت هند بضيق لم تستطع اخفاءه مهمهمة: ـ لقد اقتربنا من نهاية الطريق, سارة.. ولا أثر لهذا المكان الذي تصفينه.

زجرتها ريم بنظرة ثاقبة.. كانت تدرك غضب هند المكتوم من هذا الأدهمي الذي استحوذ على دور المنقذ والخائن بنفس الحين.. الرجل الذي أصبح زوج سارة دون مقدمات, وغاب الآن أيضاً مثلما ظهر تاركاً خلفه اعتراف عاشق!

همست سارة بابتسامة حزينة.. شاردة وكأنها غائبة بعالم آخر: ـ لقد غادرنا المكان بعد أن أطلقوا الرصاص على أدهم.. الريس رشيد أوصلنا لبقعة أكثر آماناً.

زفرت بضيق في محاولة قاسية لاعتصار ذاكرتها لتتابع: ـ ربما أحضرني أدهم لهذا المكان مخدرة, ولكنني أتذكر تفاصيله عن ظهر قلب.

تنهدت هند ثم نظرت نحو صديقتها في حنان لتردف بنبرة أكثر هدوءاً: ـ ألا تتذكرين المكان الذي أوصلكما له رشيد هذا؟
أغمضت سارة عينيها في تركيز ثم انتفضت متابعة: ـ لوحة زرقاء دون كتابة.. نعم أتذكرها جيداً لوحة زرقاء كانت على جانب الطريق عندما رحلنا.

توجهت ببصرها نحو الطريق مرة أخرى لتكمل ببريق متوهج: ـ باتجاه البحر.. نعم طريق مدقوق داخل الصحراء وبعد اللوحة التي ذكرتها.

أومأت هند برأسها موافقة صديقتها وما كادت تمر عشر دقائق حتى ظهرت العلامة التي ذكرتها سارة.. رمقتها هند بحنوّ وهي تراقب نظرة الأمل بعينيها ثم أردفت: ـ متأكدة أنكِ ستجدينه هنا؟

ابتسمت سارة بأمل: ـ ولن يكون بمكان سواه.

وكأن العشق يولد لدينا قدرات خاصة لم نكن نعي بوجودها من قبل.. لم تكن تدرك أهي حاستها السادسة التي أخبرتها بوجوده هنا أم هو حديث القلوب؟...

كان يقف بمحاذاة الشاطئ يوجه بصره نحو البحر الهائج بالضبط كمشاعر اشتياقه نحوها.

ترجلت مسرعة من السيارة لتتوجه نحوه, وريم ممسكة بذراع هند التي كانت تساورها نفسها بعدم تركها وحيدة بين يديه من جديد..

همست ريم ضاحكة: ـ اتركيها.

رمقتها هند بغيظ ثم استندت على مقدمة السيارة وأخرجت لفافة من التبغ نثرت دخانها متحدية حتى نسمات الهواء العابثة بخصلات شعرها.

جاورتها ريم ضامة ذراعيها وهي تنظر نحو لقيا العاشقين متابعة: ـ لديكما ذوق سئ للغاية في الرجال!!

ضحكت هند ساخرة ثم استدارت تراقب سيارة سيف ورامز التي كانت قد وصلت لتوها لحاقاً بهما ثم تابعت: ـ وهو لديه ذوق سئ للغاية في النساء!

ابتسمت ريم باقتضاب متابعة: ـ يستحق من هي أفضل مني.

نظرت نحوها هند بتأثر لتقذف بلفافتها الثمينة في الهواء ثم أمسكت برأس ريم متابعة:

ـ عزيزتي.. كنت أمزح.

صمتت ريم لوهلة مقاومة تسلل بعض العبرات من عينيها لتتابع: ـ بلى هو يستحق من هي أفضل, ولكنه يريد ريم.

ضربتها هند بخفة فوق رأسها ثم أردفت: ـ إذاً أعطه ما يريد يا صاحبة الحكمة.

نظرت ريم نحو رامز وسيف اللذين آثرا الابتعاد ليتركا لهن بعض الخصوصية ثم تابعت:

ـ وأنتِ أعطي سيف ما يريد يا هند.

تبدلت ملامحها, وكأن ريم ضغطت فوق جرح مكتوم عن قصد.. زمت شفتيها لتجيب بتذمر: ـ أنا وسيف رواية طال تعقيدها منذ أمد.

رمقتها ريم بتفحص لائم ثم تابعت: ـ خبر انفصال سيف وزوجته كان مثار حديث الصحف طوال الشهر السابق, خاصة مع الخسارة الفادحة التي تكبدها آل الأنصاري بسقوط تلك الزيجة.. وكل هذا لأجلك.

ابتسمت هند بقسوة مردفة: ـ ألا أستحق؟

أحاطت ريم هند بذراعها النحيل ضاحكة: ـ حقيقة أنا أشعر بالأسى من أجل الرجل.. سيكفر عن سيئاته بالتأكيد!!

ضربتها هند مرة أخرى ولكن على كتفها لتسحبها ريم مبتعدين عن مراقبة سارة لتسير كل منهما بمحاذاة الشاطئ جنباً إلى جنب مع من ارتضت أن تكمل دربها بجواره.

خطواتها كانت ساكنة تتحدى غوص الرمال لتصل نحوه.. ابتسامته المعهودة مرت على ثغره قبل أن يردف بصوته الدافئ: ـ هل حضر الياسمين؟

أغمضت عينيها في ارتجاف.. لم تكن تتوقع أن قربه بعد كل ما حدث وبهذا المكان سيطيح بها كما الآن.. مرتعشة من رأسها حتى أخمص قدميها خاضعة بنشوة لانتفاضة قلب.

قبل أن تحرك جفونها كان قد ارتد إليها متملكاً بقسوة من شفتيها على ما يبدو لآخر الدهر.

ابتعد بعد مجاهدة ليهمس أمام ثغرها بضعف: ـ ابتعدي سارة.. ابتعدي الآن.

كانت قد أغمضت عينيها في وهن لتترك نفسها لسيل عبرات لم تعد تدرك متى بدأ ومتى سينتهي.. أحاطت وجهه بأناملها الرفيعة ثم تأملته لوقت طويل عصف بكل قدرة لديه على الصمود فأنزل ذراعيها برقة ثم أردف بصوت مبحوح: ـ لن نستطيع سارة.. لا يجوز.

همست أخيراً بنبرة مخنوقة: ـ أنا أحبك, أدهم.

رفع بصره نحوها ببريق متألم ثم أردف بتنهيدة حارة: ـ سأرحل سارة.. سأرحل لأنك تستحقين الأفضل.

اقتربت منه حتى أسندت رأسها فوق صدره متابعة بحزن: ـ أنا لا أريد الأفضل.. لا أريد سواك.

لو رفعت رأسها للحظة كانت ستلمح تلك العبرة الصامتة التي تحدت رجل لم يختبر بحياته سوى القسوة..

أسند ذقنه فوق رأسها ثم أحاط جسدها برقة ليهمس بابتسامة مريرة: ـ ألا يقولون أن الأرواح تتلاقى؟.. ربما بحياة أخرى.

ضربت فوق صدره بغيظ باكٍ فأردف بألم: ـ ياسمنتي أرجوكِ.. ابتعدي الآن.

تركت دفء نبضاته لتطيل النظر نحوه وكأنها آثرت التشبع من ملامحه قبل أن تترك الرجل الوحيد الذي اختبرت معه لذة العشق حتى وإن كانت قاتلة..

استدارت مرغمة على الرحيل فأوقفها بنبرة منكسرة: ـ سأعطيكِ حريتك سارة.. سيحدث هذا آجلاً أم عاجلاً.

صمت متألماً ثم أكمل: ـ أنتِ..

ـ لا.. ليس الآن.

كانت نبرتها صارمة قطعت جملته على الفور, تملكته الحيرة لدقائق قبل أن يتمتم متسائلاً: ـ ولكن متى سارة؟

ابتسمت ساخرة من هذا الجنون الذي أحاط بها وكأن بالعشق لا توجد قوانين.. تسقط الحكمة ويتهاوى العقل أمام لعنة الاشتياق..

ابتسمت ساخرة لتتابع بنبرة تصطنع القوة ودون أن تستدير نحوه: ـ ربما.. في حياة أخرى.

ظل متصلباً يراقب رحيلها المناضل ضد سطوة رمال عشق تجبرها على العودة وهو يدرك تماماً أنها هي من تراهن على عودته..

بل هي ورقة من ضمن أوراق مبعثرة تجاهد بخطى متعثرة بين دروب الحياة مدفوعة بعجلة الأمل حالنا جميعاً..

تمت بحمد الله

مروة جمال